علي باي بن عثمان العباسي

في

الرحلة المغربية

الرحلة المغربية

تأليف:
دومينجو باديا
ترجمة:
فيصل آل بني

الطبعة الأولى:
أكتوبر ٢٠١٠

رقم الإيداع:
١٩٧٢٧ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى: I.S.B.N.
977-5634-29-6

حقوق الطبع محفوظة

تصميم وتنفيذ الغلاف:
كامل جرافيكس

EDITORIAL HISPANA-EGIPCIA
SANABEL

الاشراف العام :
د. طلعت شاهين

Mob.:
(+20) 12 410 20 08

سنابل للكتاب

٥ شارع صبرى أبو علم - باب اللوق القاهرة

(+202) 2 393 56 56
(+202) 2 392 65 93

e-mail.:
sanabooks@maktoob.com
www.sanabil.net

دومينجو باديا إي ليبلش

علي باي بن عثمان العباسي

في

الرحلة المغربية

ترجمة وتقديم:

فيصل آل بُني

هذه هي الترجمة الكاملة لـ:

Viaje a Marruecos

De

Ali Bey Badía

Traducción: Faisal Buni

تم ترجمة ونشر هذا الكتاب بالتعاون مع وزارة الثقافة الإسبانية

Esta obra ha sido publicada con una subvención de la Dirección General del Libro, Archivos y Bibliotecas del Ministerio de Cultura de España

تقديم

هنا ترجمة كاملة للكتاب المعنون (الرحلة المغربية) أو رحلة إلى المغرب للرحالة الإسباني المعروف علي باديا، و اسمه الحقيقي دومنيك أو دومينجو باديا إي ليبلش (1766- 1818)، وقد عرف في أوساط الأدب والرحلات والسياسة بإسم علي باي بن عثمان العباسي.

إن كان هناك رحالة إسباني تميز خلال هذه الفترة بخصوصية فريدة فهو المغامر دومينغو بيديا الكتالاني المنشأ، بعد أن أخفى هويته الحقيقية تحت لباس وجيه عربي جاب البلاد العربية من المغرب إلى الحجاز حيث جالس السلاطين والوزراء، ومن أبرز مغامراته دخول مكة المكرمة، المحرمة على غير المسلمين. ويعد علي باي من مؤسسي مدرسة الرحالة الأوروبيين إلى (البيت الحرام) خلسة، وهي مدرسة التحق بها غيره من رحالة القرن التاسع عشر. وانتهز الرجل تنقلاته لجمع معلومات قيمة لصالح الحكومتين الإسبانية والفرنسية المتحالفتين بداية القرن التاسع عشر في مهمة لم تخل بالتالي من طابع استطلاعي. ودوّن علي باي يومياته باللغة الفرنسية ثم ترجمت إلى الإسبانية.[1]

لقد كرس علي باي العباسي برحلته للمغرب هذه، تقليداً درج عليه الكثير من معاصريه وتابعيه، متنكرين بأزياء عربية ومدعين الصلة بالعرب والمسلمين لأغراض أغلبها سياسية تجسسية لصالح إمبراطورياتهم التي بدأت تهيمن على العالم المسيحي وتفرض نفوذها

[1] لقد اعتمدنا مصادر متفرقة لكتابة هذه المقدمة المختصرة، لم نجد لها سببا للذكر هنا، وهي مصادر مرافقة للنص الإسباني عادة مما اعتمدناه في ترجمتنا.

على العالم المجاور ومن ضمنه البلدان العربية الواقعة تحت هيمنة الإمبراطورية العثمانية التي كانت على عداء تام مع الإمبراطوريات المسيحية المهيمنة على الغرب، كما عليه النفوذ الفرنسي والإسباني منذ القرون الوسطى حتى القرن العشرين.

إن الرحلة المغربية لعلي باي تشكل أهمية كبيرة، إضافة إلى عنصر المغامرة والترقب، فهي وصف دقيق- وإن جانب الصدق في أحيان كثيرة لأسباب معروفة- ينطوي على أهمية كبيرة في الدراسات الجغرافية للمنطقة وكذلك الدراسات الإثنوثقافية والاجتماعية لشعوب وعادات وتقاليد المغرب ومناطقه الشايعة.

لقد أهتم المستعربون الإسبان بدراسة الشرق وقضية الرحالة الإسبان إلى البلدان العربية والإسلامية بشكل ملحوظ، ويمكن أدراك ذلك من خلال الدراسات العديدة التي وُضعت في هذا المجال. ومن الجوانب الكثيرة التي نالت قسطا من جهدهم وبحثهم الدءوب ألا هو السفر الإسباني إلى الشرق إبان القرن التاسع عشر.

ثمة عناصر متعددة تقف وراء الرؤية الغربية العامة للعالمين العربي والإسلامي. وأفسحت طبيعة هذه العناصر المجال أمام كثرة من التحليلات والدراسات تسعى لبحث المسألة ورصد أبعادها، وغني عن القول أن الدوافع والمصالح السياسية أدت دورا رئيسيا في تكوين الصورة الراسخة عند المواطن الغربي إزاء كل ما يمت بصلة إلى الإسلام والثقافة العربية. لا مراء أن العداء السافر واللامتناهي الذي اتسمت به الجهات الدراسية والثقافية الأوروبية والأمريكية له إرهاصات سياسية مؤدلجة، أغلب الأحيان، على الرغم من إلحاح أصحاب هذا الخطاب المعادي على انحصار مهامهم في البحث الأكاديمي الحيادي غير المُسيس. ويهمنا هنا التركيز على أحد جوانب ما يمكن تسميته "العقلية الغربية الرافضة" إزاء الحضارة الإسلامية وتجلياتها على صعيدنا الإسباني في حقبة جوهرية

ضمن مسيرة العلاقات العربية الغربية ألا وهي حقبة الاستعمار. وسبق أن تناول المسألة باحثون عرب وغربيون عملوا على إظهار بعض الحقائق الرئيسية التي تغيب عادة عن صُناع الخطاب الرسمي، مما قاد إلى استنتاجات تؤكد بصورة لا تدع مجالا للشك أن هناك علاقة عضوية بين المنطلقات السياسية والإفرازات الثقافية والحضارية. أو بكلام آخر أن هناك عناصر هيكلية ذات تكوين مصلحي ظرفي ساهمت في تطوير نظريات حظيت برواج غير مسبوق كـ"صدام الحضارات" أو التعارض العضوي بين المنحى الحضاري الغربي (الحر، المنفتح، المتسامح) والمنحى الإسلامي الحضاري الناقص (المقيد، المنغلق، الضيق). وإن كنا نسلم بأن المقومات الدينية والثقافية لم تؤسس وحدها مقولة التحفظ الراهنة حيال الحضارة الإسلامية، فلزام علينا الالتفات إلى معطيات تاريخية أساسية تؤكد بكل وضوح أن القوى الغربية عازمة، منذ زمن بعيد، على التحكم في أنحاء واسعة من العالم الإسلامي لاعتبارات شتى في مقدمها ثرواتها الطبيعية الهائلة وأهميتها الاستراتيجية والجيوسياسية.

شئنا أم أبينا، تعود رؤية الغرب للعالم العربي، بصورة جزئية على الأقل، إلى أحكام وأوصاف صدرت عن رحالة القرن التاسع عشر، وهو القرن الذي بلغت فيه الحملة الاستعمارية ذروتها، ومهدت القوى الأوروبية طريقها أمام تقسيم الدولة العثمانية الآيلة للانهيار. فبالإضافة إلى كتابات المستشرقين، شاركت جملة من التقارير والمذكرات خلفها زائرو البلاد العربية في تحديد موقف غربي واضح الملامح من الحضارة العربية–الإسلامية. وأثار هذا الموضوع، على الأقل فيما يخص الترسانة الفكرية المبنية على مؤلفات المستشرقين، اهتمام شريحة شاسعة من الدارسين المعاصرين تحروا عن الدوافع الحقيقية التي أفضت إلى صيرورة الخطاب الاستشراقي الكلاسيكي ومدى ارتباط ممثليه بسياسة دولهم التوسعية.

لقد كانت لكتابات الرحالة الأوروبيين كذلك يد طولى في "الأساطير المؤسسة" لمفهوم الشرق عند الغرب. ومما يقتضي تأملا مليا في ظروف استمرار هذه الأحكام وشعبيتها علما بأنها نادرا ما تستند إلى قراءة دقيقة للواقع. وعلى الرغم من أن القفزة الإعلامية العجيبة فتحت مجالات لا تحصى ووفّرت للكل معطيات لم تكن سابقا في متناول اليد، وهو ما أدى بدوره إلى تعزيز فرص التعارف والتحاور، إلا أن النمطية والأفكار المسبقة المطلية بالنزعة الاستصغارية ما زالت سيدة الموقف.

الواقع أن يوميات رحالة القرن الـ19 (ومنها هذا الكتاب) تحولت إلى مرجعية لا غنى عنها لدى فئة من الدارسين الغربيين صادفت فيها ما يعزز مواقفها. وبالمقابل اعتمد الرحالة أنفسهم على نظريات هؤلاء الدارسين المحسوبين على المدرسة الاستشراقية إلى درجة أنهم عملوا مرارا على إثبات استنباطات هؤلاء والتطابق بين ما شاهدوه وما سبق أن طالعوه في أبحاث مشاهير المستشرقين. لذلك، تعكس كتابات السَفَر إلى المشرق العربي التيار الاستشراقي السائد في أوروبا القرن الـ19. ولا يسقط الحكم السابق عن أدبيات الرحلة مزاياها وإيجابياتها العديدة، أدبيا وعلميا وتاريخيا. كما شكلت هذه المؤلفات مصدراً لا غنى عنه لمعرفة التقاليد والشؤون الإدارية والاجتماعية، وحتى التضاريس لمنطقة من المناطق. وأكثر من ذلك، تشكل نسبة من تلك الرحلات مرجعا رئيسيا لمتابعة الأحداث التي وقعت في بعض الأصقاع إبان فترة زمنية معينة. كل هذا وأكثر صائب ولا مناص من تسجيله، إلا أن الصحيح أيضا أن هؤلاء المسافرين، وإن كانت هناك استثناءات مشرفة، لم يخرجوا عموما عن دائرة نمطية ضيقة عند تعاملهم مع الشعوب والمعتقدات التي احتكوا بها، أو زعموا أنهم احتكوا بها.

الطواف بالمشرق العربي عادة تميز بها المسافرون الأسبان منذ أزمنة بعيدة. ويحفظ التاريخ سابقة الرحالة الأندلسيين العرب الذين طوروا فن الرحلة في العصور الوسطى، وعلى رأسهم أبو حامد

الغرناطي وابن جبير في القرن الثاني عشر. وكان المسافرون الأوائل يتجهون نحو الشرق لأسباب دينية في المرتبة الأولى، مما أفضى إلى نوع من يوميات السفر تدخل في إطار "رحلة الحج".

لقد سجل الانتقال إلى الشرق الأوسط نشاطا ملموسا ابتداء من القرن الخامس عشر حين كانت إسبانيا موشكة على تولي زمام الهيمنة في القارة الأوروبية، حيث اقتضت الضرورة الإطلال على أوضاع ممالك ودول أخرى عله من المجدي استراتيجيا إقامة علاقات معها. هكذا تبلورت "الرحلة السياسية"، وخير مثال عليها تقارير "السفير" رُوي دي كلابيخو الموفد من الملك القشتالي انريكي الثالث الى القائد المغولي تيمورلنك بين 1403 و1406، ردا على رسالة بعث بها "الأمبراطور الكبير" تيمورلنك إلى البلاط الإسباني إثر انتصاره على بني عثمان بالقرب من أنقرة في العام 1402. وكان غرض زيارة البعثة الإسبانية لسمرقند توثيقاً للروابط بين الممالك الأوروبية ودولة تيمورلنك بغية التصدي للعدو المشترك بني عثمان. في سياق مماثل تندرج يوميات الإيطالي- العامل بخدمة البلاط الإسباني- بيدرو مارتير دي انغليريا الموفد الى سلطان "بابل" وهي التسمية التي أطلقها قشتاليو القرن السادس عشر على مصر. ومرجع هذه الزيارة المطبوعة لأول مرة في إشبيلية في العام 1511 إلى مخاوف الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيسابيل من إجبار سلطان مصر المسيحيين القاطنين في أرض الكنانة على اعتناق الإسلام ثأرا للمسلمين الذين لم يغادروا إسبانيا و عمليات اضطهادهم على يد السلطات الكنسية المحلية. ولم يطأ أي من السفيرين روي دي كلابيخو ومارتير دي أنغليريا بلاد الشام إذ لم تشكل محطة في طريقهما.

هناك قواسم مشتركة بين رحلات القرن التاسع عشر ونظيراتها في القرون السابقة، إلا أن هذه المرة لا بد من إضافة عنصر جديد يتمحور حول "المسألة الشرقية" وواقع تعدد الأديان والأعراق في العالم الإسلامي وكل ما يترتب عليها من عوامل الإثارة وصولاً حتى الاكسوتيكية

(الغرائبية). فزائر الأنحاء العربية يسعى لتحقيق أغراض شتى، سياسية ودينية وأدبية واستجمامية بحتة، ولكننا نجده أيضا مهوسا بأجواء الإغراء والغرائبية التي يخالها ملازمة لهذا الشرق الفاتن. لذلك، تزخر مذكرات هؤلاء الرحالة بروايات تغمر القارىء في بيئة سحرية. وتتجلى هذه النزعة في الإكثار من سرد حكايات مثيرة ومقومات تشويقية، وإن كان ذلك يتم على حساب الموضوعية والرصانة المفترضة لمثل هذه اليوميات، إلى درجة أننا نلفي المؤلفين ينساقون، ولا سيما الكتاب ذوي الميول الأدبية القصصية، إلى معترك المغامرات المؤرخة أكثر منهم إلى مستلزمات أدبيات الرحلة الساعية دائما إلى تحقيق نوع من التوازن العسير بين التوثيق والتسلية.

لا نجازف بالحقيقة إن قلنا إن الأسبان كانوا في القرن السادس عشر من رواد فنّ الرحلة بالقياس إلى ما كان الأمر عليه في المجتمعات الأوروبية المجاورة، لكن هذه الريادة زالت في القرن التاسع عشر، بحيث وصلت أدبيات السفر إلى قمتها، إذ إننا نجد الوافدين الأسبان إلى الشرق الإسلامي مقتفين لآثار أندادهم الأوروبيين. وتتضح هذه التبعية في الأسلوب والمواضيع وحتى في ردود الفعل وطبيعة الاتصال بالبلدان والشعوب، مما يدل على أن الرؤية السائدة (إسبانياً) عن العالم العربي تكونت إلى حد بعيد من خلال موشور أوروبي، أو لنقل من خلال موشور فرنسي وبريطاني كان يمثل وجهات نظر القوتين اللتين تقاسمتا في آخر المطاف التركة العثمانية. بطبيعة الحال لا يمكن تعميم هذا الحكم على جميع الرحلات الإسبانية فهناك من حاول الانفراد بمنهج خاص به، مع ذلك، لا بد أن نسجل أن معظم المذكرات الإسبانية تذكرنا شكلا ومضمونا بمؤلفات أوروبية أخرى.

إن مدونات علي باي باديا (ليست رحلته المغربية وحسب)، بل جل رحلاته الأخرى للشرق، تؤكد ما سطرناه أعلاه، ومع ذلك فهي شهادة قيمة عن مناطقنا العربية في مغربها ومشرقها (3 مجلدات تركها على

باي نشرت بعنوان رحلات علي باي إلى أفريقيا وآسيا من 1803 حتى 1807) وقد نشرها المؤلف بإسم مزيف حتى لا تكشف هويته، لأنه كان يزعم العودة للمشرق برحلة للبيت الحرام للمرة الثانية، وبالفعل وصل إلى سوريا، ليمرض ويموت ويدفن فيها.

إن قراءة واعية لهذه اليوميات والرحلة عموماً، تؤكد لنا أن التواصل بين الثقافات وإن جاء بطرق مختلفة، إنما هي وسيلة من وسائل معرفة الآخر والخطوة الأولى لما صار عليه عالمنا من (إختراق تام بين عوالمه) أو عولمته التامة. إن بذرة علي باي العباسي وغيره من المغامرين، شكلت بشكل وآخر صورتنا المزيفة أو الحقيقية عند الغرب، فالواجب منا ترجمتها وقراءتها وتمثلها بوعي ناقد وقراءة متيقظة، ولتكن كذلك قراءة متعة وفائدة لا تخلو منها أية مذكرات أو يوميات لرحالة من أي جنسية كانت.

المترجم

مقدمة المؤلف:

الحمد لله وهو العلي العظيم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم قل لهم الحمد لله الذي هدانا الإيمان في الإسلام فهدانا إلى الحجاز و إلى البلد الحرام. هذا كتاب الصلاح الأمير الحكيم الفقيه الشريف الحاج على باي بن عثمان باي العباسي خادم بيت الدين الحرام.

أنا، مؤلف هذا الكتاب الأمير الحكيم الفقيه الشريف علي باي بن عثمان العباسي خادم بيت الله الحرام، عقدت العزم مؤخرا، بعد المكوث الطويل في ممالك النصارى عاكفا على دراسة علوم الطبيعة والفنون التي قد ينتفع بها الإنسان ومجتمعه أيا كان معتقده أو مذهبه، على شد الرحال نحو الديار الإسلامية وتأدية فريضة الحج، وبما أنني لم أرغب أن تمر متاعب رحلتي هذه دون أن ينتفع أحد بها فقررت تدوينها، بما فيها التقاليد والرسوم والعادات السائدة في الأقاليم المقصودة لعلّها تجدي نفعا مواطنيّ في البلد الذي سأتخذه في الآخر وطنا لي.

1

الوصول إلى طنجة/ الاستجواب/ المثول أمام الحاكم/ نزول علي باي في البيت المخصص له/ الاستعدادات لزيارة المسجد/ المولد النبوي الشريف/ المرابط/ زيارة القاضي/ الاستغناء عن مرافقه الأول

بعد عودتي إلى إسبانيا في شهر أبريل/نيسان 1803 عقدت نيتي على تحقيق غاياتي فركبت قاربا قطع بي مضيق جبل طارق، وبعد رحلة استغرقت أربع ساعات وصلت ميناء طنجة عند العاشرة صباحا من التاسع والعشرين من شهر يونيو/حزيران من العام ذاته الموافق للتاسع من ربيع الأول عام 1218 للهجرة. إن الشعور الذي يراود من يقطع هذه المسافة القصيرة لأول مرة لا يمكن مقارنته إلاّ بالمنام، فالمرء يحس على إثره بالتحول السريع الخاطف إلى عالم لا علاقة له البتّة بالعالم الذي قد خرج منه للتوّ، وبأنه قد انتقل بالفعل إلى كوكب آخر. والحق يقال إن في جميع أصقاع المعمورة يحافظ سكان المناطق المجاورة المرتبطة فيما بينها بروابط ومصالح مشتركة على أعراف ولهجات متماثلة لدرجة أنه يصعب تمييز الفوارق الفاصلة بينها، إلاّ أن هذه القاعدة غير سارية المفعول في ضفتي مضيق جبل طارق إذ أن سكانهما- على الرغم من أنهم جيران- مختلفون فيما بينهم اختلاف الفرنسيين والصينيين. وإذا تأمل المرء الشعوب القاطنة في المشرق وبدأ بالتوجه نحو الغرب من الجزيرة العربية إلى سورية و تركيا ثم رومانيا وألمانيا فإنّه يلاحظ بالتدرج المراحل التي تفصل المجتمع المتحضر عن

الهمجي، بيد أننا نلاحظ هنا في منطقة جبل طارق، وفي غضون صباح واحد فقط، نقيضي مراحل الحضارة، وكأن المسافر سيظن هذه المسافة القصيرة التي تناهز الفرسخين وثلثي الفرسخ فاصلا زمنيا قدره عشرون عاما.

لما قاربنا البر صادفنا بعض "المورو" (المغاربة) وأقدم أحدهم، وقيل لي إنه رئيس المرسى وكان يرتدي لباسا خشنا مزودا بقلنسوة يطلقون عليه اسم البرنس، على الخوض في الماء وفي يده خيزرانة طويلة وطلب منا الشهادة الطبية، وبعد أن تسلمها من ربان القارب توجه إليّ طارحا الأسئلة التالية:

ـ رئيس المرسى: ما مقدمك؟

ـ علي باي: من لندن مرورا بقاديش.

ـ ر: ألا تتحدث الدارجة المغربية؟

ـ ع: كلا.

ـ ر: فمن أين أنت؟

ـ ع: من حلب

ـ ر: وأين حلب؟

ـ ع: في الشام (سورية)

ـ ر: وأي بلد هو الشام؟

ـ ع: بلد يقع في المشرق بجوار تركيا.

ـ ر: إذا فأنت من الأتراك؟

ـ ع: لا، لست بتركي إلا أن بلدي خاضع لسيادة الباديشاه (الخليفة العثماني)

ـ ر: ولكن هل أنت مسلم؟

ـ ع: أجل.
ـ ر: هل معك جواز سفر؟
ـ ع: نعم، معي جواز أصدرته في قاديش.
ـ ر: ولماذا لم تصدره في لندن؟
ـ ع: لأن حاكم قاديش أخذ الجواز الذي استخرجته في لندن وسلمني هذا عوضه.
ـ ر: أعطني أياه!

سلمته الجواز وأمر ألا ينزل أحدا من القارب ثم ذهب لملاقاة القائد أو الحاكم (يقصد مندوب السلطان) الذي حوّل الجواز بدوره إلى القنصل الإسباني للتصديق عليه وبعد أن أقرّ الأخير بصحته أعاده إليّ على يد نائبه الذي جاءنا مرفقا بتركي اسمه سيدي محمد، وكان يتولى رئاسة المدفعية، وكان الحاكم قد كلفه بمساءلتي مرة ثانية. وسألني الرجل الأسئلة نفسها التي سبق أن سألها رئيس المرسى ثم أعاد إليّ الوثائق ورجع إلى المدينة لإخطار الحاكم بأمري. ولم يمض وقت طويل حتى رجع رئيس المرسى بإذن من الحاكم يسمح لي بالنزول وحللت بالبر على الفور وطلبت مقابلة الحاكم، ولأنني كنت قد أصبت بجرح خطير في رجلي في إثر انقلاب عربة كانت تقلني في طريقي من شمال إسبانيا إلى جنوبها فإني استعنت باثنين من المورو ساعداني في طريقي إلى مقر القائد.

رحب القائد بي ترحيبا حسنا وبعد أن طرح عليّ أسئلة لم تختلف كثيرا عن سابقتها أمر بتجهيز منزل لأقيم فيه ثم انصرف بعد تكرار التحية الحارة وحسن استعداده للقيام بحاجتي. أما أنا فقد عبرت له عن جزيل شكري وتوجهت إلى محل حلاق بصحبة

الأشخاص الذين قادوني إلى مقر القائد. وفي هذه الأثناء حاول الرجل التركي الآنف الذكر مرارا الحصول على مفتاح المنزل المخصص لي إلا أنه عاد كل مرة صفر اليدين إذ اتفق أن صاحب المنزل كان قد غادر إلى الأرياف. حينما حل الليل جاءني الرجل التركي بطبق من السمك فتعشيت معه عشاء نزيرا ثم نعست فتهيأت للتمدد على ما يشبه هيكل فراش إلا أن نفرا من الجنود دخل عليّ بطريقة مباغتة وأبلغوني أمرا من القائد يقضي بحضوري أمامه. نهضت فقادوني إلى مسكن القائد الذي كان واضحا عليه عدم الصبر وهو يترقب قدومي أمام الباب. وطلب مني الصعود إلى حجرة يجلس فيها كاتبه ومساعده وهناك التمس مني العذر لعدم استضافتي في مسكنه في الصباح مشددا على أنه سيرحب بي ما دام منزلي غير جاهز للنزول فيه. أحضروا لنا القهوة بدون سكر وجرى حوار موضوعه الأسئلة والأجوبة المعهودة بشأني وتناولنا عشاء وافرا لم أقتت منه سوى اليسير. وفي آخر الجلسة استلقينا جميعا على السجاد وخلدنا إلى النوم.

كنت في مساء هذا اليوم قد أنزلت حقيبتي من القارب وكانت أمتعتي كلها فيها. توجهت إلى قسم الديوان حيث أخرجت مفتاحها إلا أنهم لم يرغبوا في تفتيش الحقيبة ورفضوا أي مكافأة مالية. إن هذه الحقيبة لازمتني أينما ذهبت إلى أن استقر بي المقام في طنجة.

في الصباح أتاني صاحب القارب عقب الإفطار سائلا توسطي عند القائد من أجل السماح له بشحن بعض المؤونة غير أني رفضت ذلك اعتقادا بأن علاقتي مع القائد لما تبلغ مبلغا يسمح لي بطلب الجميل.

مرت ساعات النهار إلى أن حان موعد الغداء إلا أني لم أنقل إلى المنزل الموعود به. وألححت على السؤال إلا أن الكل أجابني "بنعم نعم نعم" واستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن بُلغت في آخر المساء أن المنزل مهيأ فلممت متاعي واستأذنت القائد وقادوني إلى داري الجديدة. عند دخولي المسكن تبين لي أنهم قد أمضوا النهار بكامله في تبييض الحيطان وتعبيد أرض الغرف بغطاء من الجص سماكته بوصتان أو ثلاث بوصات لم يجف بعد، ولم يكن مني إلا أن شكرتهم على كل ما بذلوه من جهد من أجل تجميل مسكني وأنا مُعجب ببساطة نمط العيش لدى هذا الشعب الذي يحلو له المكوث في مثل هذه البناءات الفظة الخالية من النوافذ مما يجعل من باب صغير يطل على الفناء الداخلي مصدر النور والهواء الوحيد. وعلى الرغم من عدم ارتياحي لمثل هذا المسكن إلا أني كنت أحس بحاجة ماسة إلى الانفراد بحيث عبرت عن امتناني وأغلقت عليّ الباب وافترشت حصيرة كانت هناك وتوسدت حقيبتي والتحفت بغطاء وجدته في المكان فخلدت إلى النوم.

في اليوم التالي الموافق للواحد من يوليو أحضرت بعض الأغراض لتهيئة المنزل كسجاد لتغطية الأرض والحيطان وفرش ووسائد وأدوات منزلية شتى.

إن لباس المغاربة ليس معروفا لدى الأوروبيين لأنهم يرتدون الملابس التركية حين يقصدون بلادنا. وغالبا ما يكشف المغربي عن رجليه وينتعل البلغة وهي حذاء قاسي لا يغطى العرقوب جرت العادة على استعماله في هذه البلاد، أما قطعة اللباس الرئيسية فهي نوع من الملاءة البيضاء من الصوف يسمونها الحائك وتلف المرء من رأسه حتى قدميه. وبما أنني كنت أريد أن أساير نمط لباس من أحاطني من أبناء البلد فاضطررت للتخلي عن سراويلي وخفي التركيين الرقيقين وارتداء حائك فضفاض ابتلعني كاملا ما عدا رجليه العاريتين والقدمين المغطاتين حتى العسيب في البلغة.

ثم قيل لي إننا ذاهبون إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة، ولأن مذهب المغاربة يتميز نوعا ما عن مذهب الأتراك الذي كان مذهبي فأعطاني مرافقي التركي بعض التعليمات بشأن أنماط الصلاة المحلية. بل أكثر من ذلك، طلب مني حلاقة الرأس على الرغم من أني قد حلقته قبل بضعة أيام في قاديش، وأشرف بنفسه على العملية مما أدى إلى احمرار هامتي الصلعاء باستثناء خصلة من الشعر المتبقية عند قنتها. وحرص لاحقا على إزالة شعر الجسم كليا عملا بما اقتضاه سيدنا النبي في سنته. فيما بعد، رافقني إلى حمّام حيث توضأنا استعداد للصلاة وسيأتي الحديث عن طرائق الوضوء والصلاة والذي سوف نسجله في مجال آخر، وأخيرا دخلنا المسجد حيث اختتمنا شعائرنا الخاصة بيوم الجمعة ذلك.

توافق السبت التالي مع عيد مولد نبينا الشريف الذي تمتد احتفالاته لمدة ثمانية أيام هي المدة المخصصة لختان الأولاد. ويتميز هذا العيد بإحياء ما يشبه الحفلات الموسيقية أمام باب مقر القائد (العامل) على إيقاعات ببل (طبلة) صاخبة وغيبة (زرنة أو مزمار القربة) أكثر صخبا يصدر عنها صوت ناشز.

زيارة الزاوية:

في يوم من أيام هذه الاحتفالات انتقلنا إلى مزار يبعد أقل من نصف كيلومتر عن المدينة بغية ممارسة طقوسنا الدينية، وترقد في هذه الزاوية رفات ولي يعظمه سكان المنطقة. وتضم الزاوية كذلك وليا آخر إلا أن هذا الأخير ما زال على قيد الحياة وهو شقيق الفقيد ويتلقى هو بنفسه عطايا الزوار. وتتسنى رؤية مقبرة المسلمين من هذا الطرف من المدينة. وكان ضريح هذا الولي يقع في منتصف القاعة ويكسوه قماش من الحرير والقطن والذهب والفضة الباهتة اللون، وصادفنا بعض المغاربة يتلون القرآن في أحد أركان القاعة. وعندما فرغنا من صلواتنا مررنا على شقيق الولي الفقيد في الحديقة المجاورة للزاوية وكان يرافقه عدد من

المغاربة ورحّب بنا بحفاوة وطلب منا الجلوس إلى جانبه. حكى له رفيقي التركي حكايتي فحمد الله على نعمته وإعادتي إلى دار المسلمين ثم أمسك بيدي وتلا عليها صلاة بصوت خافت بينما وضع يده الأخرى على صدره وتلا ثانية، وبعد ذلك تفرقنا. وكان الرجل يلبس اللباس المألوف في هذه المنطقة.

كما إننا قمنا بزيارة الفقيه سيدي عبد الرحمن المفرج، رئيس الفقهاء وإمام جامع طنجة وأحد قضاة المحافظة، ويحظى هذا الشيخ باحترام شديد لدى جميع سكان المغرب بمن فيهم الملك نفسه. واستمع هذا الشيخ بإصغاء إلى قصتي كما نقلها إليه رفيقي التركي فغمرني بمودته ومحبته.

الاستغناء عن المرافق التركي:

لما استقر بي المقام رغبت في التفرغ لشؤوني الخاصة إلا أن ملازمة الرفيق التركي الذي ظل ملتصقا بي ليل نهار أصبحت مزعجة إلى درجة أني لم أكن قادرا على القيام بأي نشاط. بالتالي، تبين لي أنه من الضروري بمكان إبعاده عني بطريقة أو أخرى ولكني كنت أخشى أن أتعرض لنتائج وخيمة العواقب إن فعلت حيث راودتني الشبهة بأن القائد ألزمني أنا الأجنبي هذا الصاحب بهدف التجسس على كل تحركاتي. مع ذلك، لم يتعذر عليّ إيجاد ذريعة لتحقيق غرضي، خاصة وأن الرجل كان يتولى الإشراف على شؤوني المالية دون التورع عن الاستفادة ماديا من وظيفته، وبعد أن تأكدت أنه لا يمكن ائتمانه بالصورة التي تخيلتها فصلته عني فصلا قاطعا، إلا أني أهديته هدية نفيسة للتخفيف عن استيائه ومنعا لأحقاده، والحق يقال إنه خدمني خدمة حسنة في الأيام الأولى. ومنذ ذلك الحين وجدت نفسي طليقا جاهزا لتسيير أعمالي بمنتهى الحرية.

2
الختان/ وصف مدينة طنجة/ القلاع/ الخدمة العسكرية/ سباق الخيل/ السكان/مزاج أبناء المدينة/ ثيابهم

سبق القول بأن المغاربة يختنون أبناءهم خلال المولد النبوي الشريف، ودرجت العادة على إجراء الختان علنا في الزاوية الآنفة الذكر الواقعة في ظاهر المدينة. وتعتبر مناسبة عظيمة بالنسبة لعائلة المختون فتحضرها مجموعة من الأطفال بمناديل وأحزمة وأقمشة مربوطة إلى عصي على شكل رايات صغيرة تليها مجموعة أخرى مؤلفة من رجال ينفخون في المزامير ويضربون على الطبل بطريقة تثير انزعاج أي مستمع آلف لرقة الموسيقى الأوروبية كما كان حالي، ويأتي بعد هاتين المجموعتين مباشرة الوالد أو أقرب الأقرباء وخلفه المدعوون يحيطون بالطفل الذي يركب حصانا ذا سرج مغطى بجوخ قرمزي، وإذا كان الطفل صغيرا جدا حُمل بين يدي رجل يمتطي حصانا، و يُكسى الطفل عادة بنوع من "الكابا" capa من النسيج الأبيض، ويوضع عليها كابا أخرى حمراء اللون ومزينة بأشرطة ثم يلف رأسه بشريط من الحرير. ويسير الحصان محفوفا برجلين يحملان منديلا من الحرير ينشّان به الذباب عن الطفل ومطيته. وتتخلف الموكب فرقة من النساء المتحفات بالحائك.

مراسم الختان جارية أثناء موسم المولد كله غير أني فضلت التريث إلى اليوم الأخير إذ أُخبرت بأن أعمال الختان تتكرر فيه بوتيرة أوفر. وبالفعل اكتظت الشوارع بالناس وكذا بالجنود المسلحين بالبنادق. وعند الساعة العاشرة صباحا غادرت المنزل إلى الزاوية فالتقيت في الطريق

بمواكب تحمل بضعة أطفال للمشاركة في حفل الختان نفسه. كانت الأرياف تعج بالحصن والعسكريين والأهالي رجالا ونساء (وكن مغطيات بالكامل) القاعدين في ظل الشجر الوافر أو عند منحدرات الطريق، وكانوا يطلقون الصيحات الحادة التي تدل عندهم على الفرح والحماس كلما شاهدوا موكبا يتقدمه الأطفال.

لما بلغت الزاوية وجدت فناءها غاصا بالزوار فتجاوزتهم ودخلت المبنى حيث شاهدت ما يمكن وصفه بالمذبحة، وإليكم الآن تفسيراً لهذه التسمية. في بادئ ذي بدء، رأيت خمسة رجال لا يرتدون غير السروال والقميص المكمم إلى المرفق، وجلس أربعة منهم جنب الضريح فيما وقف الخامس في محاذاة الباب في انتظار الضحايا، وكان اثنان منهم يحملان أدوات الختان بينما أمسك اثنان آخران بكيس صغير فيه مسحوق لقبض الجرح (astringente). ولاحظت وراء هؤلاء الرجال ما يناهز العشرين طفلا من جميع الأعمار والألوان وكل واحد منهم منوط بدور سيأتي ذكره لاحقا. وراء هؤلاء الأطفال وقفت جوقة أخرى لا تختلف عن سابقتها من حيث النشاز وعدم التناغم. وحل الطفل فتقدمه والده أو وليه وتوجه إلى الخاتن وسلم عليه ثم قاد الولد إلى الرجل القوي المكلف باستقباله وتقديمه إلى المطهّر لختانه. وبغتة علت أصوات الآلات الموسيقية الصاخبة وأخذ الأطفال يصرخون صراخا مروعا، ويشيرون بأصابعهم إلى ما فوق رؤوسهم وذلك لصرف أنظار الولد عن الرجال الواقفين من حوله. وفعلا رفع الطفل بصره إلى السقف مرتعبا بذلك الضجيج مما أتاح للمطهر فرصة الإمساك بغلفته وقطعها بالمقص. وهرول أحد الرجال إلى رش المسحوق على الجرح فيما هم ثالث بلف القضيب بكماد، ثم رفعوا الطفل بين أيديهم وغادروا المكان. ولم تطل العملية أكثر من دقيقة واحدة إلا أنها أجريت بطريقة فظة، وعلى الرغم من أن عويل الأطفال وجلبة الآلات الموسيقية حالت دون سماعي

صيحات الطفل فإن حركاته وقسمات وجهه المتألم خير دليل على عذابه. أخيرا، وضعوا الطفل على ظهر امرأة أعادته إلى منزله وهو يرتدي الحائك أو البرنس والموكب سائر وراءه مرة ثانية. ومما أدهشتني وأنا أمعن النظر في حضور الاحتفال مهارة الجنود والبدو المتجمعين هناك في إطلاق النار باتجاه أرجل زملائهم دون إصابتهم وذلك تعبيرا على الصداقة والمودة.

لقد تناهت إلى سمعي في أوروبا أقوال صادرة عن رحالة نصارى زاروا البلاد الإسلامية مفادها أنهم سافروا بأمان وسلامة لأنهم تنكروا بلباس أهل البلد بيد أني اعتبرت هذا القول ضربا من المستحيل نظرا لمكانة الختان عندهم فأول سؤال يبادرون به المسافر الأجنبي هو هل ختن أم لا. أنا سئلت مرارا هذا السؤال وكذلك أصحابي.

وصف طنجة:

تشكل مدينة طنجة منظرا منتظما متناسقا إذا اقتحمها الوافد من جهة البحر، فمنازلها البيضاء وبيوت القناصل ذات الرونق الهندسي وكذلك السور المحيط بالمدينة والقصبة المبنية على نتوء والخليج المحفوف بالتلال تمثل كلها منظرا رائعا، إلا أن هذا الإعجاب يتبخر أول ما يجوب المسافر شوارعها ويقف على فقرها المدقع وبؤسها الشقي. وباستثناء الشارع الرئيسي العريض نوعا ما والذي ينطلق غربا من البوابة المسماة "باب البحر" الواقعة في الجزء الشرقي فإن سائر الشوارع ضيقة وملتوية بحيث يتعذر أن يعبرها ثلاثة أشخاص في آن واحد. إن معظم المنازل منخفضة جدا يلمس المرء بيده سقوفها المسطحة المغطاة بالجص، وتفتقر غالبا لنوافذ واسعة غير الطاقات الضيقة والكوات باستثناء مقرات القناصل الأوروبيين. وزد على ذلك أن الشارع الرئيسي لم يعبد إلا في جزء منه وبطريقة ناقصة، أما الأجزاء الأخرى فهي مكسوة بحجارة

كبير لم يأخذ أحد على عاتقه مهمة تبليطها. الأسوار التي تحيط بالمدينة مزرية الحالة هي الأخرى وتنتشر فيها الأبراج المدورة والمربعة وأمامها خندق كبير لم يعتن به أحد فبدأت أشجار الفواكه والمزارع تكتسحه. على يمين باب البحر يوجد صفان من المدافع يتألف أولهما من خمسة عشر مدفعا والثاني من أحد عشر. صف المدافع الأول منصوب في برج مرتفع يواجه البحر وتصوب قطعتان نحو المرسى وباب البحر، بينما يقع صف المدافع الثاني في برج منخفض يحاذي الساحل. وبالإضافة إلى ذلك توجد اثنتا عشر قطعة على موقع مرتفع جدا على السور. والمدافع مختلفة الأعيرة وصنعت في أوروبا غير أن عرباتها محلية الصنع ولكنها ضعيفة للغاية بحيث لا تقدر العربات التي تتحمل المدافع من عيار 12 إلى 24 على إطلاق النار بالتواصل لمدة تزيد عن ربع الساعة. والآلة مكونة في الأساس من جذعين وثلاثة أخشاب أو أربعة موضوعة بصورة عرضية بالإضافة إلى هيكل واهن وعجلتين. والعربات مصبوغة بالأسود وبدا لي أن خشبها من شجر السنديان الأخضر. ويحتضن القسم الشرقي من الخليج ثلاثة صفوف أخرى من المدافع.

أكبر السفن التي شاهدتها تدخل المرسى وزنها 250 طنا، ويتمتع هذا المرسى بموقع ممتاز مع تعرضه للرياح الشرقية، وأعتقد أنه يمكن تطويره إلى ميناء كبير بكلفة لا تثقل الكاهل. أما ميدان طنجة فليس هناك ما يحميه من جهة البر غير السور والخندق الخربين المجردين من المدافع. يمتد هذا السور شمالا إلى أن يلتحق بسور القصبة النائية التي يوجد في داخلها مسجد وربض (arrabal). وبما أن المغاربة لا يعرفون الخدمة الإلزامية فإن مواقعهم المحصنة لا يحرسها أحد، وهناك حراسة صغيرة مرابطة أمام باب العامل أو مندوب السلطان وكذلك بجوار بوابة البحر حيث تقع منصة عليها قطع من الأسلحة، وتوهم هذه المنصة أن هناك موضعا عسكريا بيد أنه سرعان ما يتبين للعيان أنها نقطة مجردة،

فيها جنديان أو ثلاثة جنود على الأغلب. وتزامنا مع خروج العامل للنزهة لدى حلول المغرب، ينخرط بعض الجنود في مناورة تتكرر يوما بعد يوم ويقدمون فيها على التناوب في الحراسة، والمسألة لا تتعدى استعراضا بسيطا يتوجه كل من يشارك فيه إلى بيته عْى إثره. وبإطلاق رصاصة عند العاشرة يعلن عن انسحاب الجنود المنوبين واستبدالهم بحارس يصيح كل خمس دقائق في اتجاه حارس آخر يقف أمام بوابة البحر قائلا "عسس" ويجاب عليه "على بال"، ويألف الجنود المغاربة القعود أثناء مثل هذه المهمات وغالبا ما تراهم في غنى عن أسلحتهم، ولا بد أن يقال إن هذه الطريقة في التأدية مريحة للغاية.

الجيش وعتاده:

في الحروب والمعارك الدائرة في إفريقيا لا وزن لقوات المشاة، فأمراء الحرب لا يقدرون جيشهم إلا بعدد الفرسان، وبناء على هذه القاعدة يحرص المغاربة على تحسين الفروسية والبراعة فيها. في طنجة، تراهم يتدربون في الشاطئ أوقات الجزر، وبحكم هذه التمرينات الدءوبة يصيرون فرسانا ماهرين. وسرجهم ثقيل جدا وحنوه عال، ويربطون السرج بحزامين يلف أحدهما ببطن الخيل ويصل الآخر بجانبي المطية، ويستخدمون ركابا قصيرا. أما المهماز فقوامه نصلان من الحديد طولهما ثماني بوصات. إنهم يعذبون مطيتهم المسكينة بمثل هذا العتاد وكذلك بالشكيمة القاسية مما يؤدي عادة إلى سيلان الدم من خصرها وفمها. وتنحصر تدريبات هؤلاء الفرسان في مناورة واحدة ألا وهي الجري وإطلاق النار عشوائيا قبل الوصول إلى حيث المجموعة الثانية، وغالبا ما يشارك في كل من المجموعتين أربعة أو ما يزيد ويطلقون الصيحات خلالها. وأحيانا يطارد بعضهم بعضا دون أن يكفوا عن صراخ وإذا به

على وشك الالتحاق بمن يتقدمه يطلق النار ما بين رجلي الحصان. ويعاني الحصان من المعاملة القاسية من طرف أصحابه بل يحرم من المأوى ساعات الليل فالمعهود أن يطلق سارحا في البراري أو في فناء وظلفاه الأماميان مشدودان إلى وتدين. ويرمون التبن على الأرض ولكنهم يضعون الشعير في كيس صغير يعلقونه برأس الحصان، ولا يعلفونه سوى مرتين أو ثلاث أما الشعير فيقدم له مرة وأثناء الليل. هذا إذا كان مرابطا لأنه لا يقتات عند الرحيل إلا في أعقاب المغرب ويركض نهارا كاملا دون هوادة سواء كان الجو ممطرا باردا أو يابسا حارا، ومع ذلك تراه سمينا وقويا وبالعافية مما يدفعني إلى تفضيل نمط التربية هذا على نمطنا الأوروبي الذي يوهن الحصان ويصعب عليه تحمل مشقة المناورات العسكرية، إلا إننا لا بد أن نأخذ بالحسبان أن الطقس في المغرب يختلف عنه عندنا. وتسهل رؤية عديد من الخيل على اختلاف أحجامها والبغال وبعض الحمير ومعظمها صغيرة الحجم. ويتميز معظم الخيل بمواصفات طبيعية عالية غير أنها ينقصها التدريب والتربية حيث أن أصحابها لا يتقنون فن ترويضها ولون غالبيتها أبيض أو رمادي والخيل الرمادية اللون أقوى من غيرها بيد أن الحصان الأسود والكميت أجملها إطلاقا.

يقدر عدد سكان طنجة بعشرة آلاف نسمة معظمهم من العساكر وتجار المفرد وصناع الخرق غير البارعين يضاف إليهم قلة من الميسرين واليهود. وسمتهم المشتركة هي الكسل إذ تراهم في أي ساعة كانت قاعدين أو متمددين على الأرصفة أو يحومون في الأماكن العامة، وبما أنهم يعشقون الإكثار من الكلام وزيارة بعضهم البعض فتعذر عليّ في أول المطاف التملص منهم، إلا أنهم أخذوا يعاملونني معاملة محترمة بعد فترة من الزمن فينصرفون عني إذا لمحت إليهم تلميحا. ولباسهم

التقليدي قميص أبيض ذو أكمام عريضة جدا وصدرية من الصوف وطاقية حمراء مدببة (puntiagudo) يلفها جلهم بنسيج أبيض على شاكلة عمامة ويغطون جسدهم بالحائك وأحيانا يسترون الرأس بقلنسوة البرنس الأبيض وينتعلون البلغة ذات اللون الأصفر. والمعهود أن يلبس "الطلاب" (هكذا في الأصل) أو الكُتاب والأئمة والفقهاء البرنس فوق الحائك في المناسبات الرسمية. ولا يندر من يرتدي، عوض البرنس، القفطان الطويل المزود بالأزرار والأكمام العريضة التي يقل طولها مع ذلك عن أكمام القفطان التركي، ويلبس جميعهم أحزمة من الصوف أو الحرير. أما النساء فيلتحفن بالحائك التحافا كاملا لا يمكنك التمييز فيه سوى شيئا يشبه عينين قابعتين في أطواء ردائهن، ونعالهن بلغة حمراء ولا يكتسين بالجوارب كالرجال، وإذا حملن وليدا أو عبئا آخر وضعنه دائما على ظهورهن من أجل ألا يرى أحد أيديهن. ويتمثل لباس الأطفال في جلباب وحزام.

3
محاكمات الحاكم أو القائد/ محاكمات القاضي/ المؤونة/ مراسيم الزفاف/ الجنائز/الحمام

يترأس القائد (الحاكم) يوميا محاكمات علنية ينطق على إثرها شفويا بأحكام المظالم في قضايا يحضرها أحيانا الطرفان معا أو المدعى على حدة. وإن مَثُل المدعي دون المدعى عليه طلب منه القاضي إحضار الطرف الخصم وينفذ هذا الأمر تنفيذا حاسما لأن عدم الامتثال لأمر القائد يتسبب في عقوبة شديدة. وستجد القائد مستلقيا على سجادة ومجموعة من الوسائد ويستمع إلى أقوال الطرفين اللذين يجلسان القرفصاء بجوار الباب، وقد يجري حوار صاخب يتبادل فيه الجميع، بمن فيهم الحاكم نفسه، الصراخ لمدة ربع ساعة مما يثير جلبة لا يُفهم منها أي شيء، إلى أن يتدخل الجنود فيتكالبون باللكمات على كل من الشاكي والمشكو منه لإسكاتهما، وعندئذ ينطق القائد بالحكم ثم يطرد الجنود الطرفين بالضرب، ودائما يطبق الحكم بصرامة. ومن اللافت للنظر أن كل من يمثل بين يدي الحاكم يُعامل مثل هذه المعاملة الخشنة من قبل الجنود الذين يحثون عليهم بالخروج وهم يصيحون في وجهوهم "سر"، "سر" أي تعجل واخرج فورا. وفي بعض الأحيان يستقبل الحاكم أصحاب الدعاوى أمام باب مقره قاعدا على كرسي ومن حوله جمع حاشد من الجمهور.

تسنى لي بعيد وصولي إلى طنجة حضور إحدى هذه الجلسات: حضر أمام الحاكمَ شابٌ على وجهه خدوش طفيفة وراح يشكو من رجل فأحضروا الأخير على الفور وحُكم عليه بواحد وثلاثين جلدة، وأجبر أربعة من الجنود المدعى عليه على الانبطاح أرضا وجلبوا عودا يتصل

به حبلان (الفلقة) تمسك بهما قدما المحكوم عليه، وأقدم جندي على جلد باطن قدميه بحبل غليظ مبلل بالقطران أو القار، ونال كذلك الشاكي نصيبه من الضرب فانهالوا عليه ضربا إلى أن أخرجوه من المكان، وكنت أنا أرغب رغبة شديدة في التوسط لصالح المدان غير أني تورعت عن ذلك مخافة رد فعل الحاكم إن فعلت، وقيل لي لاحقا أنه يمكن التماس العفو بعد أن يجلد المحكوم عليه عشر جلدات أو جلدتين. والمعتاد أن يُكبّر المدان لدى تلقيه كل جلدة إلا أن هناك من يجرؤ على تعداد الضربات بتكبر وخيلاء.

نادرا جدا ما تُقدم إلى الحاكم دعاوى من أكثر من أربعة أو ستة أسطر ولذلك فإن عتاد الكاتب بسيط جدا لا يتضمن سوى محبرة وريشة وقصاصات من الورق مثنية عند وسطها وجاهزة للكتابة عليها، وهذا أمر غريب فعلا، وبما أن الكاتب المذكور ليس لديه مكتب أو سجلات فسرعان ما تضيع الأوراق المسلمة إليه إذ ليس هناك من يسجل الأحكام ويرقمها. أما الحاكم فلا يأخذ بالحسبان لدى إصدار الأحكام غير آرائه وأهوائه وتارة يستوحي القرآن، وفي حالات معدودة فقط تراه يستشير الفقهاء أو يحيل القضية إلى القاضي (الحاكم المدني). واسم حاكم طنجة هو سيدي عبد الرحمن أشعاش وكان في السابق بغّالا، ويجهل الكتابة والقراءة وليس قادرا على التوقيع باسمه، ومع ذلك فإنه ينعم بموهبة فطرية وحيوية تمنحه قدرا من الجرأة والدهاء. ولأنه يظن العلم خاليا من أي جدوى فيحظره على أبنائه الذين لا يعرفون الكتابة ولا القراءة. ومهما يكن من أمر فهو يمتلك ثروة هائلة في مدينة تطوان الخاضعة كطنجة لسلطته، وتقيم عائلته في تطوان. وبحكم مهامه ينتقل باستمرار من مدينة إلى أخرى وهناك نائب ينوب عنه إذا غاب عن إحداها.

فيما يتعلق بالقاضي وجلساته فتقل جلبة وصخبا عن جلسات القائد، غير أنها تجري جريانا مماثلا. إنه يسند أحكامه إلى مبادئ القرآن والسنة

شريطة ألا تنقض إرادة السلطان. ولا يمكن استئناف الأحكام الصادرة عن القاضي، فلا وجود لمحاكم عليا، ولذا فلا سبيل أمام الأطراف غير اللجوء إلى السلطان نفسه.

صفة طنجة وسكانها:

المواد الغذائية متوفرة ورخيصة الثمن في مدينة طنجة، لا سيما اللحم الغني بالدسم. الخبز ممتاز وحتى الأنواع الأقل جودة منه فلا يمكن نعته بالسيئ، والقول نفسه ينسحب على الماء على الرغم من أن المجاري والقناطر مهملة. ولا أثر للخمارات أو محلات بيع الخمر، مما يضطر القناصل إلى استقدام الخمور من أوروبا. الفواكه طيبة هي الأخرى، خصوصا التين والشمّام والعنب والبرتقال المزروع في تطوان. ويعد الكسكس الوجبة الرئيسية عند سكان المملكة المغربية، وهو طعام يتخذ من طحين القمح المفروك يضاف إليه الماء فيطحن إلى أن يصبح مادة صلبة ثم يقطعونها قطعا مخروطية بحجم إصبع اليد ويحول إلى بذور صغيرة باليد. ثم يجففون هذه الحبوب عن طريق وضعها على الأقمشة تحت الشمس. وينضج الكسكس بالسمن على البخار داخل وعاء مثقوب يضعونه فوق وعاء آخر أكبر حجما يملؤه الفقراء بالماء والميسرون باللحم والدجاج اللذين يضافان إلى الحبوب وقت تقديم الكسكس، ويجب أن تكون حبوب الكسكس منفصلة بعضها عن بعض وتصنع بطرق مختلفة، فهناك أنواع رقيقة جدا تشبه السميذ وأخرى سميكة كالأرز. وعندي أنه خير طعام للشعب لأنه متوفر ويمكن نقله بسهولة بالإضافة إلى أنه مغذ ولذيذ وصحي للغاية.

يأكل المسلمون باليد اليمنى ودون اللجوء إلى الشوك أو السكاكين وذلك على سنة نبيهم. ومع أن هذه العادة تثير استغراب النصارى فإنها على عكس ذلك لا هي بغيضة ولا معقدة، إذ أن المسلم يغسل يديه

باستمرار أثناء النهار سواء كان لدى التوضؤ أو ساعة الغذاء وبعده، ولذلك يداه نظيفتان دائما، وزد على ذلك أن أخذ قطع اللحم باليد لا يشكل أي صعوبة. والكسكس نفسه يتناولونه بهذه الطريقة، أي يأخذونه ويكورون كرة صغيرة يودعونها فمهم. ويكثر الطباخون المهرة في المغرب ويحسنون إعداد طبيخ اللحم وطيور الصيد والسمك والبقول والخضار، وبما أن القرآن يحرم الدم فيجب ذبح جميع الحيوانات ما عدا المصطادة والسمك وإفراغها من الدم. ويستخدم غالبا الأغنياء طباخات زنجيات بضعهن على مستوى عال من البراعة.

طريقة تناول الطعام:

أما طريقة تناول الطعام فتقدم الأطباق على خوان مستدير بدون قوائم قطره من عشرين إلى ثلاثين بوصة وكل طرف نحو خمس أو ست بوصات. وتغطى المائدة بغطاء مخروطي الشكل مصنوع من جريد النخل أو صفصاف السلال، وتتخذ الأطباق شكلا مخروطيا أيضا بحيث يصبح قاعها ضيقا جدا. ويوزع أحيانا على المائدة الخبز الطري وتقدم كل وجبة على خوان خاص بها ولذلك فإن عدد الموائد كعدد الأواني. تارة يرفقون الطعام بقصعة فيها حليب مخثر (عيران) ويغرفونها بملاعق طويلة فظة الصنع بين لقمة وأخرى. ويجلسون على الأرض أو على بساط حول المائدة ويأكلون من طبق واحد. وإذا كثر الضيوف جُهزت موائد عدة يجلس إليها ما بين أربعة إلى ستة أشخاص. ويستهل المسلمون طعامهم بالبسملة ويختمونه بالحمدلة، ويفعلون الفعل نفسه قبل الشرب وبعده وعند القيام بمهمة ما، وإذا كان اسم الله واردا باستمرار على لسنتهم فإن بعضا ممن يذكرون الله لا يبطنون أي احترام له. في أعقاب الطعام يغسلون الأيدي وأيضا الفم واللحية ويساعدهم في ذلك مملوك يحمل طستا في اليد اليمنى وجرة في اليسرى ومنشفة على كتفه فيمر

على كل من في المكان ويسكب عليه الماء ويعرض عليه المنشفة، وستجد في منازل الأثرياء خادمين يتولى أحدهما سكب الماء ويقدم الآخر المنشفة، وقلة قليلة هي التي تجفف الوجه واليدين بالفوطة أثناء الأكل.

من المعتاد أن يختتم الطعام بفنجان من القهوة التي كان الجميع يتناولها هنا بكثرة على شاكلة أهل المشرق، ولكن الإنكليز أخذوا يهبون السلاطين المغاربة كميات هائلة من الشاي فراح الحكام يوزعونه بدورهم على رعاياهم، وما لبث أن انتشرت عادة شرب الشاي لدى السكان كافة انتشارا يفوق انتشاره في انكلترا نفسها، وليس ثمة مسلم فقيرا كان أم غنيا يخلو مسكنه من الأدوات اللازمة لصنع الشاي وتقديمه لكل من يزوره. ويفضلون الشاي ثقيلا ولا يخلطونه عادة بالحليب، ويضعون السكر داخل الإبريق. ويتكلف الانكليز تزويد المغاربة بالحليب والسكر من قواعدهم في جبل طارق.

عادات الزواج:

فيما يتعلق بالزواج، يحق للمسلمين عقد القران على أربع زوجات ومعاشرة كل الجواري اللواتي يمكنهم الإنفاق عليهن، ويمكن شراء الجواري أو امتلاكهن بالسبي أو الهبة. أما الزوجة فترتبط بالرجل بمقتضى عقد يجمع بين العريس أو أوليائه وأولياء العروس ويجري الاتفاق بحضور القاضي والشهود ويتم الزواج دون مراسم دينية فبالتالي فإن العقد مدني محض. ولا بد من الإشارة إلى أن حقوق العفة والمعاشرة الطيبة تُطبق في الزيجات الإسلامية تطبيقا أحسن منه في النكاح غير الإسلامي. ويعتبر حق الطلاق رادعا يردع النساء، فيما يساعد تعدد الزوجات في تلبية الحاجات الغريزية في مثل هذه الأقاليم الحارة ويلبي حاجات الرجل الثائر الشهوة.

بعد القران، يوصل أهالي العريس الهدايا إلى بيت العريس ثم يسيّر

الزوج والزوجة في موكب في المصابيح والمشاعل والقناديل وبصحبة فرقة من العازفين يؤدون موسيقاهم بالطريقة السيئة المذكورة في مشاهد أخرى ومجموعة من النساء الصائحات. وتؤخذ العروس إلى منزل العريس في موكب مشابه لموكب الأطفال الخاص بمراسم الختان.

وأتيحت لي فرصة مشاهدة أول حفل زفاف بطنجة يوما عند الساعة السادسة صباحا فرأيت أربعة رجال يحملون على أكتافهم عروسا داخل سلة تشبه القفص وتستر بقماش أبيض وغطاء مخروطي الشكل مزين بألوان مختلفة يشبه الغطاء الذي قلنا إنه يستخدم لستر موائد السفرة. ونظرا لصغر هذه السلة فيصعب تصور كيفية إدخال العروس فيها، والحق يقال إن السلة كانت أشبه بوعاء يحتوى على طعام يهدى إلى العريس. وأخيرا يتسلم العريس السلة ويفتحها فيرى لأول مرة ملامح خطيبته.

الجنائز:

أما الجنائز فيوضع الفقيد على المحمل ويسترونه بحائكه وأحيانا بأغصان الشجر ويحمله أربعة رجال برفقة جمهور غفير، ويسير الكل بطريقة غير منتظمة وبخطوات مستحثة صوب باب أحد المساجد وقت أذان الظهر، وعند ختام الصلاة يعلن الإمام أن هناك مرحوما عند الباب فينهض جميع من المسجد لأداء صلاة قصيرة ترحما على روح الفقيد الذي تبقى جثته خارج المسجد دون أن تُدخل إليه. بعيد هذه الصلاة يستأنف الموكب مسيرته دون أن يكف عن التسرع في السير لأن ملاك موت ينتظر الفقيد في قبره لاستجوابه وإصدار الحكم في حقه. ويتناوب جميع المشاركين في الجنازة في حمل الجثمان فالكل راغب في الإسهام في مثل هذا العمل الطيب، ويجري السير وسط تلاوة الآيات القرآنية.

لدى الوصول إلى المقبرة وتلاوة سورة قصيرة يوضع الجثمان في القبر دون نعش يحويه وموجها إلى مكة على جنبه الأيمن ثم يُحثا التراب عليه، ويعود الموكب إلى منزل الميت ليحي أهله، وتجتمع إناث العائلة خلال ثمانية أيام متتالية يطلقن عويلا مروعا يمتد لمعظم ساعات النهار.

الحمّام:

إن حمّام مدينة طنجة موحش و قبيح المنظر ويُدخل إليه من خلال باب صغير يؤدي إلى درج ضيق يقود يمينا إلى بئر يستخرج منها الماء اللازم للحمّام. ويوجد من جهة اليسار قاعة تشبه غرفة الاستقبال إلى جانبها غرفة أخرى صغيرة وتستخدم الصالتان لإخلاء الملابس وارتدائها. وتقع على يمين الدهليز حجرة، قل إنها سرداب لأنه تنقصه الإنارة فيبدو مظلما لا تكاد ترى شيئا فيه وبلاطه مبلل بالماء. ومعظم الرواد يستحمون هناك مزودين بسطلين واحد منهما مليء بالماء البارد والثاني بالساخن، ويجمعون بينهما من أجل تبريد أو تسخين الماء حسب رغبتهم، وبعد طقوس الوضوء يسكبون الماء باليدين على جسدهم قليلا قليلا.

من ينوي الاستحمام بالبخور يتوجه إلى حجرة تقع على اليسار أرضيتها مفروشة ببلاط من المرمر الأسود والأبيض على شاكلة رقعة للشطرنج. والسقف له قباب وثلاث كوات مدورة قطرها ثلاث بوصات مكسوة بقطع من البلور مختلفة الألوان، مما يثير ظاهرة ضوئية جميلة جدا. باب هذه الحجرة الأخيرة مغلق باستمرار وفي محاذاته حوض صغير يصله الماء الساخن عبر ماسورة في حين أن الماء البارد موضوع في الدلاء. وأول ما يدخل المرء هذه القاعة يحس بالحر الخانق فيتعذر عليه التنفس، وفي غضون ما يقل عن دقيقة واحدة يجد الواحد نفسه يتصبب عرقا من رأسه حتى قدميه، وإذا توخى الجلوس على البلاط

الساخن اشتدت عليه موجة من الحر الذي لا يطاق، بيد أن الإحساس بهذا الصهد لا يلبث أن يزول فيظلون جالسين إلى أن يفرغوا من اغتسالهم ويغادرون إلى الدهليز دون أن يتاح لهم المكوث برهة في حجرة أخرى متوسطة الحرارة تخولهم تفتير جسدهم. أنا نفسي اشتدت عليّ حرارة الحجرة المرتفعة لدى إيغالي فيها إلا أني تأقلمت عليها بعد مدة قصيرة وأدركت فائدته عليّ، ولكني كنت أتمنى مع ذلك لو كان المكان أكثر فتورا وإراحة. وكلما عدت إليها صادفت فيها ثمانية أو عشرة أشخاص أو ربما أكثر كلهم عراة بالكامل وهو منظر لم أعده لائقا وذا عفة. أما سعر الحمّام فهو مزونة واحدة أي ما يعادل ما يسميه الأوَروبيون "بلانكيا" أو اثنتين من السولدو وهي العملة الرائجة في فرنسا. ويوجد تحت الحمّام أتون يسخن البلاط ويستحدث البخار والحرارة المرتفعة في قسم منه، بالإضافة إلى قدر ضخم يخرج منه الماء بفعل أنبوبة تفتح أو تسد بحنفية، كما أن هناك أنبوبة أخرى توصل بخار القد، ويزداد هذا البخار شدة وكثافة إذا سُكب الماء على البلاط فسرعان ما يتبخر السائل وتملأ الحجرة بخارا فيتأثر الوافد إليها التأثر الذي وصفناه أعلاه.

4
المعمار/ المساجد/ الموسيقى/ وسائل الترفيه/ زغاريد النساء/ العلوم/ الأولياء

المعمار:

شتان ما بين الهندسة المعمارية العربية المغربية ومثيلتها الشرقية قديما وحديثا، فلا أثر فيها لرشاقة النموذج الشرقي القديم ورصانته ولذلك تجدها موسومة بالجهل والغلظة. الأبنية المغربية مشيدة بدون تخطيط أو تنظيم وكأنها أقيمت اعتباطا في منأى عن مبادئ البناء الأساسية. وقد لاحظت ما يشوب النظام المعماري حتى في دور الوجهاء كإنشاء الدرج دون كوات (جمع كوة) تضيئها مما يستلزم إنارة المصابيح ليل نهار. وغالبا ما تكون الدهاليز ومداخل المنازل ضيقة ضيق الدرج نفسه على الرغم من أن المنازل واسعة جدا. وتتألف الأخيرة من فناء مربع يطوِّق اثنين أو ثلاثة أو ربما أربعة من جوانبه رواق يُكتَنفُ به، وتوجد في موازاة هذا الرواق حجرات خالية من أي فتحة غير باب يتوسطها ويطل على الرواق وهذا ما يفسر سبب عدم تهوية الحجرات. أما سقفها فهو مسطح ومكسو كالأرضية بطبقة من الجص، في حين أن الحيطان مصنوعة من الجير والحجر والجص إلا أن التراب الغني بالصلصال الممزوج بالماء هي المادة الأكثر استخداما. وتتمثل طريقة البناء في وضع قطعتين محاذيتين من الخشب لإسناد الحائطين ثم يضعون في وسطها خليط التراب والماء ويضغطونه بإحكام بواسطة مدقين كبيرين، ويألف لدى العمال اثناء مهمتهم هذه، الغناء على أيقاع ضربات آلاتهم.

وبما انه يصعب الحصول على روافد كبيرة من الخشب بسبب رقة أشجار البلاد وهشاشتها فيضطرون لإنشاء حجرات صغيرة وتصنيع هيكل السقف من الجذوع الرفيعة، إذ يوضع عليها القصب ثم طبقة من التراب والجص سماكتها بوصة واحدة، إلا أن مثل هذه السقوف لا تدوم طويلا فسرعان ما تنهار. الأبواب كذلك شنيعة الشكل والإنشاء وأقفالها من الخشب، وسيأتي وصفها بالتفصيل في تقرير أعده خصيصا لهذا الشأن. كما أنهم لا يعتادون استخدام الحفر أو المراحيض بل يقضون حاجتهم في الحوش أو في أصيص.

المساجد:

فيما يخص المساجد فلا تقلّ ثقلا وبدائية عن المساكن، وتتصف غالبا بالبساطة وشحة مواد البناء والأدوات. على سبيل المثال، تجد في جامع طنجة فناء محاطا بالأقواس وتوجد في الناحية المقابلة للباب الرئيسي صفوف من العقود وتلتصق الواجهة بمئذنة تقع عند الركن الأيسر. الأقواس والسقوف منخفضة جدا ويمكن رؤية الهيكل البدائي الصنع. ولاحظت أثناء تفقدي للجامع عدم توفر الماء الصالح للشرب داخل الحرم فأوصيت بإلصاق دلو كبير بالحائط المجاور للباب وتثبيته بالقير والحصى ثم أودعته كأسا للشرب، وهكذا ساهمت في تجهيز المسجد وصيانته. وينزل أحد أبناء القائد في غرفة مبنية فوق المسجد ويتكلف بتحريك بندولين كبيرين وآخر صغيرا تستعمل للتدليل على توقيت الصلاة إلا أنه كان يعتمد للتوفيق بينها ودوران الشمس على مزولة قديمة جدا لا تسمح له بتعيين الوقت بدقة وإنما بالتقريب. لذلك وطوال إقامتي في طنجة أخذت على عاتقي تحديد مواعيد الأذان بالاعتماد على ساعتي.

يطلق على المسجد اسم "الجامع" باللغة العربية أي مكان الاجتماع،

ويلاحظ في آخرها المحراب وهو مقام الإمام الذي يؤم الصلاة وهو متجه إلى القبلة، ويقع على اليسار درج صغير يعتليه الإمام قبيل صلاة الجمعة لإلقاء الخطبة. وتوجد أيضا خزانة ضخمة مقفلة تتضمن مصاحف وأصنافا أخرى من الأسفار الدينية، ومنبران صغيران من الخشب يجلس عليهما الفقهاء من حين لآخر ليتلوا تلاواتهم على الناس. ويتدلى من أعلى بعض الأقواس ثريات ومصابيح من البلور الأخضر الرديء أودعت هناك دون نظام ولا هندام. و الأرضية مكسوة بالحصر، وتوجد خلف البناء بئر يخرجون منها ماء مج لا يستخدم سوى للوضوء. وسوف أتطرق للدين (الإسلامي) وطقوسه لاحقا لدى معرض حديثي عن فاس.

الموسيقى:

إن الآذان الرقيقة المرهفة لن تجد شيئا ذا قيمة في الألوان الموسيقية السائدة في طنجة، تخيلوا عازفين فظين مجهزين بمزماري قربة أكثر فظاظة وخشونة منهما يصدر عنهما نشاز لا تناغم فيه على الرغم من نيتهما عزف المقطوعة نفسها، وليس عندهم نظام موحد ولا أسلوب مرسوم لأنهم لا يسجلون ألحانهم وإنما يحفظونها عن ظهر قلب. وكثيرا ما يحدث أن يجرّ أحدهما الآخر لإيقاعه فيُكره الأخير على متابعته كما اتفق له والنتيجة نشاز يشبه صوت الآلة إثناء دوزنتها وضبطها. وعلى الرغم من الضجيج المزعج المثار في الحفلات الموسيقية فإني أنست بها في آخر المطاف بحكم عادة التكرار، بل أفلحت في تدوين عدد من ألحانهم الأكثر ذيوعا وفقاً لنظام النوتة الأوروبي، ومعظم هذه الألحان أساسها سلم الـ"ري". ومن المستحيل أن يحظى هؤلاء العازفون بطول العمر لأنهم يبذلون جهدا جهيدا لدى نفخهم في أبواقهم مما يجعل وجناتهم تنتفخ إلى أقصاها فيما ريقهم سائل بغزارة وبطونهم متوترة لكثرة الرياح

التي يدخلونها فيها عنوة، ويكفي الانتباه إلى حركات بطونهم العنيفة لحساب مبلغ إعيائهم. وقلت في مقال آنف إن هناك طبلا يصاحب هذه الآلات ويحدث صوتا أجش كل أربع دقائق أو خمس، وهذا أكثر حدوثا، أو كل دقيقة، وأحيان يُضرب ضربا منتظما غير متفاوت فيسمع باستمرار. ويُعتمد على هؤلاء العازفين لإحياء حفلات الزفاف والختان وأعياد الميلاد ومناسبات شتى، ولكن لا يُسمح لهم بحضور المساجد والمساهمة في الطقوس والشرائع الدينية وربما يعود السبب في ذلك، كما قال أحد الرحالة، إلى عدم رغبتهم في إيقاظ البارئ الخالد وإزعاجه!

وسائل الترفيه:

مدينة طنجة خالية من وسائل لترويح النفس فتنحصر تسلية المغربي في الخروج من بيته صباحا والجلوس على الأرض في أحد الميادين أو الأماكن العامة في انتظار وافد يرغب إجراء حوار معه، وهكذا يشكلون حلقات يدور فيها الحديث طوال ساعات النهار. إن مسكني أصبح أثناء مكوثي في المدينة ملتقى يختلف إليه فقهاء المدينة لتبادل أطراف الحديث وشرب الشاي. أما القناصل وسائر الأوروبيين فإنهم يشكلون نوعا من الجمهورية الخاصة بهم المنفصلة عن المسلمين إذ يلتقون ليلا في سهرات لا يحضرها غيرهم. أما النساء المجبرات على الاعتزال عن مجتمع الذكور فلا يناط بهن سوى إطلاق الصيحات الحادة والنافذة من تحت ملاحفهن.

إذا فرغ أحد الأولاد من الدراسة وتقتصر عندهم على إجادة القراءة والكتابة اللتين تشكلان في نظرهم منتهى العلم والثقافة، طافوا به في الشوارع مثلما يفعلون مع الأطفال يوم ختانهم. وينظم أهاليهم حفلات عدة لا تخلو من تهليل النساء المعهود فيهتفن فيه للسلطان ولا بد أن أسجل أني

حظيت أيضا بهتافهن عندما كبر شأني عند سكان المدينة. ويعتبر هذا التهليل فناً بل موهبة ولذا فإنهن لا يتركن مناسبة دون أن يصرخن بأعلى صوتهن في ما يشبه نوعا من المبارزة تسعى كل واحدة منهن إلى إحداث العويل الأكثر طولا وحدّة. وكنت أسمعهن يمرقن جماعات أمام منزلي في الليل وهن يصرخن صراخا ثاقبا.

العلوم:

القراءة عندهم ليست متاحة للكل إذ تنقصهم المطابع، وزد على ذلك أن أبجديتهم غير منظمة وأنها تفتقر إلى حركات وعلامات الترقيم. عليه فإن سكان طنجة قابعون في غياهب الجهل، ولم أتمكن أثناء تجوالي في هذه الأقاليم من الالتقاء بأكثر من شخص واحد سبق أن سمع عن دوران الأرض. ويكثرون في كلامهم من الهذر والهذيان في شأن الكواكب والأجرام والسماوات ولا يفقهون شيئا عن الفيزياء. وقال لي واحد ممن يدّعون في العلم فلسفة يوما صادفني فيه أستعمل جهازا مركبا من الزئبق لمراقبة السماء، إن الزئبق مادة صالحة لإبادة الحشرات والجراثيم، ثم علمني كيفية رشه على ثنايا الثياب فها هي في نظره قصوى فائدة الزئبق. ولا يفرق المغاربة بين التنجيم وعلم الفلك فيكثر عندهم المنجمون. ويجهلون الكيمياء جهلا كاملا وإن لم يندر من يزعم خبرته فيها. أما الطب فلا إلمام لهم به في حين تُعد معرفتهم بعلم الحساب والهندسة ضحلة جدا. ويفتقرون إلى الشعراء بل إلى المؤرخين ولذا فإنهم لا يعرفون شيئا عن تاريخهم في حين تبقى الفنون الجميلة ضربا من المجهول بالنسبة لهم. ويعتبر القرآن وتفسيره القراءة الوحيدة المتوفرة لدى أهالي طنجة، والمؤسف أن التشخيص السابق صادق للغاية فلا مناص من وصف أحوال هذه البلاد بالهمجية.

الأولياء الصالحين:

صفة الولاية أو القداسة منزلة عند المسلمين، أو قل إنها مهنة تُتخذ أو تُهمل اعتباطا. وقد تورث هذه الحالة كما يدل على ذلك انتقال ولاية أو سيادة سيدي محمد الحاج، وهو والي حظي بتبجيل أهالي طنجة له لدرجة أنهم كرسوا له الزاوية التي تحدثنا عنها سابقا بمناسبة حفل الختان، إلى شقيقه الأكبر، وهذا الأخير ليس في الواقع سوى داهية مكّار وكان يزورني بين الفينة والأخرى لمسح جوخي وخطب وديّ في حين حسبت العامة هذه الزيارات فضيلة كبرى خصني بها وليهم دون غيري. وقد أصبحت زاويته والبستان الملحق بها مأوى (حرما) آمنا لأي مجرم يبتغي التملص من القضاء، ولن تجد مسلما واحدا يجرؤ على خوضها دون أن يتوضأ سابقا من بئر تقع بجوار الباب، إلا أني دخلت الزاوية بعض المرات ممتطيا حصاني وغير متوضئ بحكم نسبي السامي ومنزلتي الراقية.

تنعم طنجة بنعمة والي ثان محترم للغاية بات هو الآخر صديقا حميما لي. إنه رجل صادق مع نفسه فانتهى به المطاف بعد أن أكثرت من النقد والتوبيخ إلى الإقرار بأنه يستغل طيبة مواطنيه للاستفادة منهم. إني كنت أضاحكه سرا بساطة البشر وسذاجته، وكان يردد مرارا أن وظيفة الأغبياء في هذه الدنيا هي تسلية الأذكياء. وكان ثمة والي صالح آخر يجوب الشوارع كالمجنون بصحبة جماعة غفيرة ورأسه مكشوف وشعره طويل أشعث، وكان يحمل باليد حبلا من الحلفاء، وهو نبات ينبت بكثافة في هذه البلاد، وكان الرجل يوزع عند الطلب قطعا صغيرة من الحلفاء وكأنها نذور أو تحف. واتفق يوما أن التقينا في شارع من الشوارع ووضع في يدي حفنة من خيوط هذا النبات علامة لاعتزازه بي فلم يكن مني إلا أن ضممتها إلى صدري محاولا إظهار أكبر قدر ممكن

من التبجيل وجزيل الشكر على هذه الهبة النفيسة. وفي مناسبة أخرى كنت أسير فيها بمفردي في أحد الأزقة أتاني غلام و طلب مني عملتين لشراء برنس مضيفا: "إني والي صالح ويمكنك أن تسأل خدمك أو أصدقاءك فسيتأكد لك خبري". ولم أكذبه وإنما ساومته وأعطيته عملة واحدة فقط. ويضاف إلى هؤلاء والي أهبل أو قل إنه يتظاهر بالهبل تجده دائما في الساحة الرئيسية معلنا عن نفسه بنعيب يشبه صوت البط، ويرتدي لباسا وسخا جدا وهو قادر على أن يرجع وقتما يشاء أطعمة ظلت طويلا في أمعائه. والعجيب في الأمر كله أن هناك مؤمنين غلاة يهرعون لابتلاع هذه الأستفراغات القميئة. وحكوا لي مرة أن هذا الرجل المقدس قد ارتكب أمام الملأ أعمالا لا تليق بالآداب والنظام العام... إن غباء الأهالي وغلوها في تقديس أوليائهم أشبه ما يكون بحكايات ألف ليلة وليلة. ويتناول الفقهاء والعلماء هذه المسألة بكثير من الغموض والتردد مما يؤدي إلى إبقاء الأهالي في ضلالهم المبين وذلك على الرغم من أنهم يعرفون حق المعرفة تداعيات هذه المعتقدات التي تعكس انحراف النفس البشرية.

5
اليهود/ الأوزان والمقاييس والسكك/ التجارة/ التاريخ الطبيعي/ الموقع الجغرافي

يعيش يهود المغرب في ظل أبغض أنواع العبودية. ولكن أوضاعهم متميزة في طنجة لأنهم يعاشرون المسلمين دون أن يُفرض عليهم الإقامة في حي منفصل خاص بهم كما هو الحال في مدن أخرى يحكمها المسلمون. على كل حال، ليس هذا الاختلاط في صالح اليهود وإنما يجلب لهم مآسي لا تحصى حيث أن المسلم يميل إلى فرض العدالة بيده إن شعر بالظلم على أيدي اليهود، وإذا طلب اليهود القاضي فإن الأخير سيحكم دائما لصالح المسلم. إن هضم حقوقهم والحيف عليهم يعانيه اليهود منذ طفولتهم إذ يسمح للصبيان المسلمين بإساءة معاملة صغار اليهود وكبارهم بصرف النظر عن سنهم وعاهاتهم الجسدية ولا يحق لهم الشكوى أو حتى الدفاع عن النفس. وشاهدت ألف مرة مجموعة من الفتية المسلمين يتمادون في إهانة اليهود دون أن يجرؤ أحد على التصدي لهم. ويرتدون بأمر من الحكومة لباسا يميزهم عن غيرهم يتألف من سراويل طويلة وجلباب يبلغ الركبتين ونوع من البرنس أو الجوخ إضافة إلى البلغة أو البابوج وعرقية صغيرة جدا، والمطلوب أن تكون كل هذه الثياب سوداء اللون ما عدا القميص ذي الأكمام العريضة المكشوفة المتدلية. ويكرهون على خلع حذائهم عند المرور بأحد المساجد أو بمسكن القائد والقاضي والوجهاء المسلمين، وفي بعض المدن كفاس وغيرها لا يرخص لهم السير إلا حفاة. وإذا وجدوا في طريقهم مسلما رفيع المنصب اضطروا للتوجه إلى يسار المسلم ونزع الحذاء ووضعه على الأرض والانحناء إلى الأمام دليلا على الخشوع وعدم الحراك حتى ابتعاد المسلم عنهم. وإن لم

يمتثلوا لهذه العادة أو غيرها كالترجل حال التقائهم أحد أتباع محمد أخضعوا لعقوبة شديدة. ولم تندر المناسبات التي أُجبرت فيها على كبح جماح حاشيتي من الجنود والخدم الغاضبين على يهودي صادفوه متلكئا في تطبيق الشروط المفروضة عليه بحكم الشرائع الإسلامية الاستبدادية. مع ذلك كله، ينخرط يهود المغرب في أنشطة تجارية مربحة للغاية ووصل بهم الأمر إلى الإشراف على خدمة الجمارك بعد دفع الأجر المرسوم للسلطان. ولكن المعتاد أن يتعرضوا للسرقة والاختلاس سواء على أيدي المواطنين أو السلطان نفسه. ومرة سألت يهوديين استخدمتهما في طنجة لم لا يهاجران إلى بلاد أخرى للتخلص من هذا القهر فأجابا أن هذا الاحتمال مستحيل الحدوث لأن اليهود مماليك للسلطان.

يعد اليهود أكثر الصناع مهارة في طنجة ومع ذلك فإن إنتاجهم أسوأ بكثير من إنتاج أقل الصناع الأوروبيين براعة، وإذا كانت هذه حال اليهود فما بالكم بنظرائهم من المسلمين. ولكنهم في المقابل خبراء في الغش والسرقة مما يخولهم الانتقام من تجاوزات المسلمين. ولهم معابد في طنجة وأيضا أولياء ورجال صالحين وحكماء يأكلون ويعيشون عيشا رغيدا على حساب أبناء طائفتهم. أما نساؤهم فهن حسان المنظر، وثمة يهوديات حسناوات في منتهى الجمال يتخذهن المغاربة جواري لهم وهو الأمر الذي يؤدي أحيانا إلى ترابط الطائفتين اللدودتين، وتبدو بشرتهن مفعمة بالحيوية وطازجة على خلاف بشرة المسلمات المائلة إلى البياض وكأنهن تماثيل من الرخام وذلك لأنهن قابعات في منازلهن وإن خرجن فإنهن يلتحفن التحافا كاملا فلا يكاد الهواء يلمسهن.

الأوزان والمقاييس:

مقياس الطول الوحيد المعروف في المغرب هو الذراع وتقسم إلى ثمانية أجزاء تسمى أثمانا. ولأنه ليس هناك معيار موحد لتحديد الذراع فمن الصعوبة بمكان العثور على مقياسين متطابقين إلا أني خلصت في

آخر المطاف وإثر المقارنة مع المقاييس الأوروبية المماثلة إلى أن ما يسمون ذراعا في المغرب يساوي 0,55126 مترا. أما مقياس السعة لحساب الحبوب فيدعا المُدّ وله نوعان (كبير وصغير)، وهذا المكيال يعاني كالذراع من عدم الدقة في مقداره ولكني قدرته بما يعادل 856 بوصة ونصف البوصة المكعبة من التويسا وهي مقياس معمول به في فرنسا. أما الأوزان فلا تختلف من حيث عدم دقتها عما سبق إلا أنني قستها إلى المقاييس المستخدمة في أوروبا فحسبت الرطل وهو اسم المعيار المعتمد عندهم يساوي 16 أوقية و347 غراما و40 جزءا من المائة من الغرام حسب معيار باريس.فيما يتعلق بالمسكوكات فهي متعددة أصغرها القيراط وأكبرها البندقي وإليكم تصنيفها:

المسكوكات النحاسية: القيراط والفلوس

المسكوكات الفضية: الموزونة والدرهم.

المسكوكات الذهبية: المثقال أو المطبوعة أو الدوكادو وقيمتها 10 أوقية، والبندقي وتساوي 25 بوصة.

جميع العملات الإسبانية جارية في المغرب، وبدا لي أن الدورو الإسباني ويسمونه الريال هو النوع الأكثر انتشارا غير أنه ليست له قيمة ثابتة فالدورو الإسباني يساوي عادة 12 أوقية محلية بينما تعادل البسيتة ثلاث أوقيات (علما بأن الدورو يساوي خمس بسيتات في إسبانيا) فهناك فارق نسبته 25% بينهما إذ الطبيعي أن يساوي الدورو 15 أوقية وليس 12 . وهناك من يصرف الدورو بأربع بسيتات ونصف البسيتة مما يخفض من قيمتها ويمهد الطريق أمام تهريب العملة حيث أن جل السفن والقوارب الوافدة من أوروبا تأتي بالبسيتة لتحويلها إلى الدورو. وذاعت مؤخرا قطع معدنية مزيفة مستوردة من الخارج وتفيد معلومات جمعتها أنها ربما تصنع في بريطانيا.

إن تجارة المؤونة مربحة على نقيض المعاملات في مجال المنتجات الصناعية، فرغم الموقع الممتاز الذي يتمتع به مرسى طنجة فإن نشاطه التجاري ينحصر في تصدير كميات صغيرة من المؤن والمواد الغذائية وعمليات تهريب محدودة ومبادلات آخذة في الاضمحلال مع تطوان وفاس اللتين ترسل إليهما شحنات لا تذكر من السلع الأوروبية. إن الدكاكين صغيرة جدا بحيث يستطيع البائع الإمساك بأي من البضائع المعروضة فيها وتقديمها إلى المشترى دون النهوض من مقعده.

موقع طنجة:

تتكون التربة التي يتأسس عليها ساحل طنجة من أصناف مختلفة من الغرانيت الثانوي الرقيق وتميل هذه الشرائح نحو الشرق ميلا قدره ما بين 50 و 70 درجة وتتراوح كثافة كل واحدة منها من قدم ونصف إلى قدمين، أما المسافة الفاصلة بين شريحة وأخرى فهي قدمان. وهناك شرائح متوسطة من الصلصال وتعلو جميع هذه الشرائح قليلا جدا على سطح البحر (لا أكثر من 30 إلى 40 قدما) ولكن مساحتها كبيرة إذ تصل إلى نهر تطوان (مرتيل) الواقع على بعد ثمانية أميال. ولاحظت كذلك أن بعض الشرائح من الغرانيت توغل في البحر في الاتجاه نفسه إيغالا طويلا. وإذا كان جائزا استخراج الاستنتاجات العظيمة من الأشياء الصغيرة فإني أجزم بأن الكارثة الطبيعية التي أفضت إلى انشطار مضيق جبل طارق نجمت عن انهيار مفاجئ ليس للأراضي المؤسسة لقاع المضيق وإنما لتلك الواقعة من جهة الشرق، ونتيجة لهذا الانشقاق أُحدث فراغاً امتلأ بالمياه وهكذا تشكل لسان الماء الذي نعرفه اليوم ببوغاز جبل طارق، وكذلك اتخذت شرائح الغرانيت منحاها الحالي. وتراكمت بفعل المياه والرياح طبقات أخرى من الصلصال الهش والرمال التي أفرزت التلال والجبال العالية المحيطة بطريق تطوان. وتشكلت طبقة التراب

النباتي بفضل بقايا النبات والحيوان وهي طبقة تغطي كل شيء وهي خصبة للغاية. وفي الجانب الجنوبي من الفرضة على شاطئ البحر كونت رياح الشرق تراكمات من الرمال لم تلبث أن تحولت إلى تلال متحركة أخذت تطوق الفرضة، وليس من المستبعد أن تغلقها بالكامل في يوم من الأيام. هذه الرمال لا تحتوي على أي مادة قادرة على تجميعها بعضها ببعض.

الطقس لطيف في طنجة ولم يسجل مقياس الحرارة الذي استخدمته باستمرار وحرصت على عدم تعرضه لأشعة الشمس إلا 24,6 درجة مئوية كحد أقصى، وذلك في الواحد والثلاثين من أغسطس وكان الحر قد اشتد علينا بصورة استثنائية ساعة الظهر. وكنت قد وضعت مقياساً آخر تحت الشمس للتعرض لكامل قوتها فسجلت 39,5 درجة مئوية في الثاني والعشرين من أغسطس الساعة الثانية عصرا. وسجل البارومتر أو مقياس الضغط الجوي 28 أوقية وسطرا واحدا وتسعة أعشار من السطر من قدم باريس كحد أقصى و27 أوقية وثلاثة أسطر كحد أدنى. أقل درجات الرطوبة الجوية وبلغت 38 درجة مئوية حسب مقياس الرطوبة الجوية لسوسور تم تسجيلها في الخامس عشر من يوليو وهي الفترة التي يزداد الجو رطوبة في هذه المنطقة، ويمكن التحقق من ارتفاع الضغط الجوي في طنجة في تأكسد المعادن السريع.

الفصول الأربعة متفاوتة جدا في طنجة. وكان الصيف معتدلا، ثم عند الاعتدال الخريفي، بدأت الأمطار الغزيرة التي دامت فترة من الزمن وجاءت مرفقة بعواصف رعدية أودت بحياة رجل واحد. وعلى الرغم من خصوبة الأرض فإن الأنواع النباتية محدودة في ضواحي طنجة، والأمر نفسه يقال عن الحشرات أو على الأقل عن الحشرات أثناء الموسم الذي تزامن مع مكوثي في طنجة، أي الصيف، وعندي أن الموسم الأكثر مناسبة لتصنيفها هو الربيع.

تعشش أعداد كبيرة من اللقالق في أسوار المدينة إلا أنها تغادرها في أواخر سبتمبر باتجاه الجنوب. وتبقى أوكارها كما هي إلى أن تعود في الموسم القادم ويجثم كل واحد منها على مكانه القديم، وقيل لي إنه إذا اتفق أن وقع لقلق على عش ليس بعشه اندلع صراع شرس بينه وبين صاحبه الأصلي إذا رجع إليه، وكثيرا ما تحدث هذه المناوشات إبان الربيع.

التحليلات الفلكية والجغرافية:

يصعب على الرجل أن يصعد سطوح البيوت دون إثارة حفيظة النساء من جيرانه، ولذلك لم يتسن لي مراقبة الأفلاك في المنزلين اللذين نزلت فيهما أثناء إقامتي في طنجة. وزد على ذلك إني قد تركت عدتي داخل حقيبتي في مدينة قادش، ولما أحضروها لي كان موسم الأمطار قد حل فتلبدت السماء ولم أقدر على متابعة سريان الكواكب والنجوم. وبعد أن شاهدت آخر كسوف في اليوم الفلكي الموافق لـ17 أغسطس، حدد السيد لالاند من مرصد باريس طولي في طنجة عند الدرجة صفر وثلاث دقائق و15 ثانية من الدرجة، أي عند ثماني درجات وأربع عشرة دقيقة وصفر درجات غرب المرصد المذكور. بما أني ما زلت أفتقر إلى معداتي وآلاتي عند وقوع الخسوف فاكتفيت بمنظار أكروماتي من نوع دولوند وهو الأداة الوحيدة المتوفرة لديّ مما اضطرني إلى تقديم توقيت الخسوف الافتراضي بمقدار ثوان بالقياس إلى الخسوف الحقيقي. أما مقياس الوقت فدققته تدقيقا كاملا لأني استعملت ساعة تحققت من دقتها إثر تجارب عدة أجريتها قبل ذلك اليوم وبعده. وأعددت خريطة جغرافية لمملكة المغرب استنادا إلى نتائج متابعاتي الفلكية والتقديرات التي سجلتها أثناء رحلاتي، وكذلك مجموعة من المعلومات التي جمعتها في البلاد. وبعد أن قست زوايا سَمَتية عدة تحدد الميل الزاوي عند 21 درجة و13 دقيقة و24 ثانية غربا.

رغم العراقيل الكثيرة التي واجهتها فإني تمكنت من جمع عدد لا بأس به من الأنواع الطبيعية في طنجة وساحلها من ضمنها أعشاب الفوقس البحرية واقتلعت أنا بيدي جميع هذه النباتات من قاع البحر. نحن المسلمون يجب علينا أن نواجه عقبات منيعة في حالة رغبنا في الحصول على مجموعة من الحشرات وذلك لسببين، أولهما أن مساس مثل هذه الكائنات الكريهة تعد ضربا من ضروب النجاسة والرجس وثانيهما أننا يمنع علينا منعا باتا إحراق كائن حي. إن العقبة الأولى تجعل من المعقد جدا الحصول على مجموعة من مغمدات الأجنحة في حين تحول الثانية حيلولة تامة دون جمع الفراشات وألوانها إذ أننا لا تموت فورا عند غرز الإبرة فيها بل تظل لحظة تحرك الجناحين محاولة الهروب، علما بأن النار يقضي عليها فورا. وحدث لي مرة أني قد وضعت خنفساء كبيرا قويا في صندوق وقد اكتفيت بغرزه فقط ولكنه انتفض وتخلص من الإبرة وأنقض على جميع الحشرات التي كنت قد أودعتها الصندوق بما فيها عنكبوت كبير ومثير للاهتمام من نوع يشبه الرتيلى.

6
وصف وسط إفريقيا/ المثول أمام سلطان المغرب/ زيارة السلطان وبلاطه/ وصف السلطان ورحيله

بعد فترة قصيرة من حلولي في طنجة أصبحت آلف المدينة وأحس بالراحة فيها. وكنت قد أصبت شهرة واسعة وحظيت باحترام الكل بعد سلسلة من الأحداث أفادتني كثيرا في مقدمها زيارة القاضي سيدي عبد الرحمن المفرش ونجاحي في التنبؤ بالخسوف الذي وقع في السابع عشر من أغسطس كما توقعت، واستعادتي أمتعتي ومعداتي بواسطة سفينة قدمت من أوروبا وإفراغها في المرسى أمام الملأ إضافة إلى الهدايا والهبات التي خصصت بها كلا من القائد والقاضي ووجهاء المدينة. وساعدت كل هذه العوامل في اجتذاب الأنظار إلى شخصي بحيث لم ألبث أن أنعم بحظوة لم ينلها غيري من الأجانب أو وجهاء المدينة. من جهة أخرى، أثّر تغير الجو ومتاعب السفر ونمط الحياة الجديدة في طنجة تأثيرا في وضعي الصحي فارتأيت متابعة نظام تمريني للإنعاش البدني يعتمد أساسا على الاستحمام في البحر. وسرعان ما أعادت هذه النشاطات العافية إلى جسدي بفضل الغطس في المياه المالحة، كما أنها أتاحت لي فرصة إثراء مجموعتي من النباتات البحرية. وذات مرة كنت أسبح فيها على مبعدة ما من الساحل رأيت سمكة كبيرة تتوجه إلي على سطح الماء وطولها ما بين خمس وعشرين وثلاثين قدماً، فعدت أدراجي على جناح السرعة ولجأت إلى البر حيث كان أعواني يحثونني على الرجوع ويهتفون بأعلى صوتهم، وغطست السمكة بعد برهة ثم عادت للظهور في المكان الذي كنت أنا أسبح فيه لما شاهدتها.

وصف وسط إفريقيا:

ذات يوم زارني طالب[2] اسمه سيدي أمكشيت تناول في حديثه المناطق الإفريقية الداخلية فقال: "إن قوافل عدة تنطلق من مقاطعة سوسة وتفلت إلى غانا وتمبكتو في رحلة تجوب الصحراء وتدوم شهرين، ويوجد في داخل إفريقيا نهران يحملان اسم النيل ويعبر الأول القاهرة والإسكندرية والثاني تمبكتو وينبع الاثنان من بحيرة تقع في جبل يدعى جبل القمر لأنه، مع كل وجه من وجوه القمر، يتخذ لونا كلمعان التاج أو قوس القزح القمري. ويصب نهر تمبكتو في بحيرة أخرى والطريق من المغرب إلى الضفة الغربية لنيل تمبكتو آمن وهادئ وإن كان المرء محملا بالذهب، ولكن لا أمان ولا قانون فيما وراء الضفة المقابلة لأنها مأهولة بأقوام مختلفة كل الاختلاف عن الأقوام القاطنة هنا. ويكثر في هذا النهر حيوان مفترس يدعى التمساح. ثم أومأ بيده في اتجاه كل من النيلين قائلا إن نيل القاهرة يزحف نحو الشرق ولكني قاطعته سائلا هل نيل تمبكتو مجراه الغرب؟ فأجاب دون أي تردد: "إي، نعم".

هذا مقال الرجل ولكن لا بد أن نطرح سؤالا: كيف لا نلاحظ تناقض الأقوال الخاصة بمنحى النيل؟ المعروف أن هناك حركة تجارية مستمرة بين المغرب وتمبكتو والبلدان الواقعة جنوبهما وبالتالي فمن المستحيل أن يجهل المغاربة مجرى النيل الصحيح فالآلاف يروونه بشكل شبه يومي، ويؤكد هؤلاء أن النهر جار صوب الغرب بينما الرحالة الأوروبي مونغو بارك يقول إنه شاهده زاحفا إلى الشرق. إذا، ما الاستنتاج؟ إذا سلمنا وصف مونغو بارك كل المصداقية التي يستحقها فإننا لزاماً علينا الاستنتاج بأن ما يمر بتمبكتو هو نهر آخر لا نعرفه وليس ما يظنونه هنا خطأ النيل الغربي أو جُليبة وهو النهر الذي اكتشفه مونغو بارك نفسه

---

[2] هكذا (talbe) في الأصل.

وقال عنه إنه لا يجتاز تمبكتو وإنما يلتف حول المدينة ملتويا بشكل غريب جدا مما أثار قدرا من الالتباس لدى المغاربة. وفي حال استبعدنا هذا الاحتمال فلا مناص من الاعتقاد بأنهم لم يشهدوه قط وإنما يذكرون وصف علماء الجغرافيا القدماء. مهما يكن من أمر فإن الأحاديث السائرة عن النيل ومجراه وبصرف النظر عن كل ما يكتنفها من مغالطات تدلان على أمرين مثيرين للاستغراب: اتصال النيلين عند منبعهما في بحرية واحدة ومصب النيل الغربي في نهر آخر... على كل حال، سنعود إلى هذه المسألة لاحقا.

المثول أمام سلطان المغرب الأقصى:

في الخامس من اكتوبر دوت مدافع طنجة معلنة عن وصول مولاي سليمان سلطان المغرب الأقصى. ونزل الملك في القصبة فيما امتنعت أنا عن حضور حفل الاستقبال ولزمت منزلي في انتظار استدعائه لي وفقا لنصيحة القائد والقاضي، وذلك لأني لم أكن قد قُدمت إليه بعد. في اليوم التالي، أعلمني القائد بأني أستطيع تجهيز الهدايا لإعطائها إلى السلطان في اليوم المقبل، وجمعني في اليوم نفسه لقاء مع كل من القائد والقاضي لتهيئة حفل تقديمي إلى السلطان. إن القائد طلب مني قائمة الهدايا المخصصة للعاهل ففعلت ثم اتفقنا على الترتيبات.

في اليوم المعلوم ووافق يوم الجمعة قصدت الجامع لأداء صلاة الظهر باعتبارها فريضة من فرائض المسلمين طالت أيضا السلطان. وهناك جاءني شخص مغربي وأخبرني بأن السلطان قد أوفد أحد خدمه لإعلامي بأنه سيكون في انتظاري في القصبة عند الساعة الرابعة. وقبل دخول السلطان في الجامع داهمه نفر من الجنود الزنوج المسلحين وتفرقوا في جميع أنحاء الجامع بصورة غير منظمة. ولم يلبث أن تلاهم السلطان على رأس وفد صغير من الخواص والضباط الكبار وهم في

أزياء بسيطة متواضعة بحيث تعذر تمييزهم عن سائر حاشية السلطان. وكان الجامع غاصا بالمصلين ربما بلغ عددهم الألفين، وحرصت أنا على عدم الاختلاط بموكب السلطان. وأُلقيت الخطبة بالطريقة المعتادة عند صلاة الجمعة إلا أنها جرت تلاوتها هذه المرة على لسان فقيه من فقهاء السلطان، شدّد فيها على أنه "من الكبائر الاتجار مع المسيحيين فلا يجوز تزويدهم بأي نوع من أنواع المؤونة والأطعمة". لما فرغنا من الصلاة شقّت طريقي عبر خدم السلطان فخرجت إلى الباب حيث ألفيت مولاي سليمان محاطا بزهاء مائة جندي زنجي وجمهور غفير. عدت إلى البيت ولكني لم أمكث فيه طويلا إذ جاءني مندوب من السلطان ليؤكد لي شخصيا موعد اللقاء. وفي الساعة الثالثة أوفد القائد تسعة رجال ليساعدوني في حمل الهدايا وهي: عشرون بندقية انكليزية وحرابها، بندقيتان كبيرتان من العيار الثقيل، خمسة عشر زوجا من المسدسات الانكليزية وبضعة آلاف قطعة من سقط الزند، وكيسان من الرصاص الصغير للصيد، وجهاز صيد، وبرميل من البارود الانكليزي، وألوان مختلفة من قماش الموصلين الحريري المطرز، وبعض الجواه، ومظلة حسنة الشكل، ومربى وتوابل. وضعت الأسلحة في صناديق مقفلة، أما سائر الأغراض فأودعت في أسفاط مكسوة بأقمشة حمراء دمشقية بخيوط من الذهب، ورتبت المفاتيح كلها في صحن.

صعدت القصبة متقدما مجموعة الخدم والرجال المحملين بالهدايا. كان القائد في استقبالي عند الباب ورحب بي بحفاوة ثم قادني إلى رواق تجمع فيه عدد كثير من جنود البلاط ومن هناك إلى مسجد صغير حيث أدينا صلاة العصر التي شارك فيها السلطان أيضا. بعد ذلك، خرجنا من المسجد وكانوا قد جهزوا بغلة ليركبها السلطان ومن حولها عدد لا يحصى من الخدم وكبار ضباط الجيش. وكان رجلان يحملان رمحين يقارب طولهما أربع عشر قدما، وتوقف خلف الموكب دون أي نظام أو

تنسيق سبعمائة جندي زنجي مدججين بالبنادق يلتف حولهم خلق كثير. وحللنا القائد وأنا محلا بجوار الجنديين صاحبي الرمحين ووقف خلفنا الخدم المحملين على أكتافهم بالهدايا. لم يطل انتظارنا حتى خرج السلطان فامتطى بغلته وعندئذ اقتربنا أنا والقائد منه. وقدمني له القائد وأطرقت ويدي على صدري فرد عليّ السلطان بالمثل وقال: "أهلا وسهلا بك". واستدار نحو الحشد وحثه على تحيتي قائلا: "قولوا له إننا نرحب به". فهتفوا على الفور: "أهلا وسهلا". ثم همز السلطان بغلته وتوجه إلى ساحة فيها مدافع لم تبعد أكثر من مائتي خطوة عن باب المسجد ونحن من ورائه، وتقدمني القائد وسلمه الهدايا ثم حل صمت مطبق بالساحة على الرغم من وجود أكثر من عشرين شخصا في المكان. بعد وقت قصير استدعاني القائد ورافقني إلى ناحية مطلة على البحر وفيها تسع قطع من العيار الثقيل ورأيت منها ما شابه بيتا صغيرا من الخشب يعتلي السور وله درج من ثمانية أدراج. وكان السلطان مستلقيا داخل هذا البيت الصغير على فرش وبعض الوسائد. وخلعت أنا والقائد واثنان من كبار الضباط أحذيتنا عند الباب وأوغلنا في الحجرة حفاة كما يقتضي التقليد، والتحق بي ضابطان يمسكان بذراعيّ في حين انتحى القائد يسارا وكأننا نشكل سياجا. وقدمنا أنفسنا للسلطان ونحن نميل ميلا طويلا نحو منتصف أجسادنا واضعين أيدينا اليمنى على الصدور. طلب مني السلطان الجلوس على الدرج بعد الترحيب بي مجددا. حينئذ انسحب الضباط وقال لي السلطان بنبرة مفعمة بالصداقة إنه مسرور برؤيتي، وأغدق عليّ بتعبيرات المودة والائتناس، وهو يضع اليد على صدره وكأنه يريد أن يطلعني على ما في نفسه من مشاعر وأحاسيس. وتبين لي أنه مائل إلى شخصي وإن لم أكن قد فعلت أي شيء لاستحقاق هذه الميول. وسألني أي البلدان زرت وكم لغة تعلمت وأي علوم درست في مدارس النصارى وهل مكثت طويلا في بلاد الفرنجة، وبعد أن شكر الله على دفعي إلى الخروج من أصقاع الكفار تأسف على تأخري في التوجه إلى المغرب.

وعبر كذلك عن ارتياحه لإيثاري المغرب على الجزائر وتونس وطرابلس، مؤكدا على حمايته لي وصداقته. ثم سألني هل توفر لدي ما يلزم من المعدات لمراقبة النجوم وعند إجابتي بنعم استحضر اسطرلاباً معدنيا قطره ثلاث بوصات يستخدمونه لضبط الساعات وتحديد توقيت الأذان، وسألني هل لدي جهاز مماثل. أجبته بالنفي مشيرا إلى أن هذه الآلة أسوأ بكثير من الآلات الحديثة الصنع. ثم أضاف إنه راغب بالإطلاع عليها مشيرا إلى "أني يمكنني إحضارها". عندئذ دنا مني القائد وأمسك بيدي بغرض قيادتي إلى المنزل غير أني شددت للسلطان على ضرورة التريث لغاية اليوم التالي فلم يتبق من الوقت متسع لتجهيزها. ألقى القائد عليّ نظرة متعجبة فلا أحد في المغرب يجرؤ على مخالفة السلطان. مع ذلك، طلب مني الإتيان به في اليوم التالي عند الساعة الثامنة ثم ودعني فعدت إلى البيت برفقة القائد. ولم أكد أخوض المنزل حتى حضر خدم القصر طالبين مكافأة مالية كما هو المعتاد في مثل هذه الحالات وتخلص منهم أعواني بعد إعطائهم مبلغا أقل مما كنت أتصور.

أصبحت فتوجهت إلى القصر في الساعة المتفق عليها وكان السلطان في انتظاري في المحل نفسه وبجواره رئيس فقهائه وغيره من مساعديه المقربين، وكانوا قد حضّروا له طقما كاملا من الشاي. اجلسني بجانبه وأخذ الإبريق وسكب لي الشاي في فنجان وأضاف إليه الحليب ثم قدمه لي بنفسه. طلب قلما ودواة وورقة وخطّ ما يشبه الصلاة في أربع جمل وسلمه الفقيه الذي ردها عليه قائلا إن هناك كلمة ناقصة فاستعاد السلطان الورقة وسطر الكلمة. عقب ما شربنا الشاي مدني السلطان بمكتوب طلب مني تلاوته، وراح يصحح أخطائي اللفظية وهو يشير بإصبعه إلى كل كلمة كما يفعل الأستاذ مع تلميذه[3]. ولما فرغت من قراءتها أعطاني إياها

[3] كما أشرنا في هامش سابق فإن الرواية تتضمن مشاهد تثبت عدم إتقان علي باي للغة العربية وهذا المشهد تأكيد لذلك، إلا أن المؤلف كان يفتخر أحيانا في رسائله الخاصة بأنه استطاع إفحام الفقهاء والعلماء المسلمين في بعض المجالس لدى التطرق إلى مسائل دينية خلافية وهذا الافتخار ربما هو ضرب من ضروب الزهو

طالبا مني الاحتفاظ بها. ثم أمر بسحب طقم الشاي المتألف من سكرية من الذهب وإناء صغير للحليب وثلاثة فناجين من الخزف الصيني وطبق كبير من الذهب، أما نوعية الشاي فإن الملك قد وضع السكر في الإبريق على الطريقة المتبعة هنا، إنه أسلوب غير نافع بالمرة إذ يكتسب السائل تارة سكرا كثيرا ولا يكتسب إلا القليل تارة أخرى.

أخيرا تناول السلطان معداتي ودقق فيها واحدة واحدة مستوضحا عن تلك التي لا يعرف وظيفتها أو طريقة استعمالها، وبدر منه حماس مفرط وطلب مني أن أجري بعض التجارب الفلكية؟

أريته عددا من الجداول الفلكية والخوارزمية من باب إفهامه بأن الآلات والأدوات لا طائل فيها بدون هذه الكتب وغيرها كثيرة، وفوجئ ببعض مما قدمت له من أرقام وحسابات. ثم عرضت عليه معداتي ولكنه فضل أن أحتفظ أنا بها قائلا إني الوحيد القادر على استخدامها وأن في الوقت متسع لتأمل السماء أثناء الليالي والنهارات القادمة. حينئذ أيقنت بأنه راغب في بقائي إلى جانبه وضمي إلى حاشيته وهي نية كان قد ألمح إليها بصورة أو أخرى إبان حديثنا السابق. قبل انفضاض الجلسة أشار إلى رغبته في فحص سائر معداتي فالتزمت بإحضارها في اليوم الآتي.

في الصباح التالي عدت إليه فوجدته في غرفته متمددا على فرش صغير وبضعة وسائد وكان برفقته رئيس الفقهاء واثنان من مساعديه المفضلين. حين رآني تربع وأمر بجلب فراش آخر من المخمل الأزرق وطلب مني الجلوس بجواره. بعد تبادل المجاملات طلبت أن يحضروا آلة كهربائية وكاميرا داكنة وعرضتهما عليه قائلا إنهما للترفيه فقط لا وظيفة علمية لهما. نصبت آلة التصوير

بالنفس والمبالغة فبصرف النظر عن قدرة هؤلاء الفقهاء والعلماء على المناظرة فلا نعرف كيف تمكن علي باي من إسكاتهم دون أن يجيد العربية وأصول الفصاحة والبلاغة (راجع الفصل الثامن ومجالسه مع فقهاء فاس).

الداكنة مقابل إحدى النوافذ ودخل السلطان مرتين في الكاميرا وتكلفت أنا بتغطيته بالقماش وهو في الداخل يتفحص إنتاج تصوير الآلة وهو ما أكد لي مرة أخرى مكانتي عنده. وتسلى الرجل بمشاهدة انشطار الزجاجة الكهربائية عدة مرات غير أنه تعجب كل التعجب من تجربة الاهتزاز الكهربائي فالتمس مني إعادتها كثيرا ونحن متشابكي الأيدي لإيصال التيار، واستفهم بإسهاب عن الآلات ومفعول الكهرباء. ثم أخذت منظارا طويل المدى كنت قد بعثت له به في اليوم السابق وضبطته وقست عدسته لكي يراقب السماء.

سألني السلطان لماذا لا أشذب شاربي الطويل على طريقة المغاربة وأفدت له أن أهالي المشرق يطولون الشاربين، ولكنه علق قائلا: "عظيم، إلا إنه ليس رائجا عندنا" وأمر بالإتيان بمقص واقتطع قليلا من الشارب وأشار إلي بالاحتذاء بطريقته وربما كان يعتزم القيام بالعملية هو نفسه ولكنه ترك المقص عندما رآني لا أبدر إلى الأمر. قبل الافتراق سألني هل لدي جهاز لقياس الحرارة وقلت له نعم فطلب مني أن أبعث إليه به ثم ودعني، وعندما رجعت إلى البيت أوصلته ميزان حرارة.

تلك الليلة، كنت مجتمعا مع بعض الأصدقاء دخل علينا خادم من خدم السلطان بهدية تمثلت في لفة مكسوة بالذهب والفضة. كنت متلهفا على اكتشاف ما في داخلها فلم أصبر وفتحتها بسرعة وإذا بها رغيفان طويلان من الخبز أسود اللون. فوجئت بالهدية ولم أعرف ماذا أقول، غير أن الحضور هرعوا إلى تحيتي وتهنئتي قائلين: "ما أسعدك، لقد أصبحت أخا للسلطان". عندئذ تذكرت أن العرب يدلون عن الصداقة الحميمة والأخوة الوثيقة بتبادل الخبز الأسود والمشاركة في أكله، أي أن السلطان يعتبرني الآن أخا له. وقيل لي إن سواد الخبز عائد إلى استخدام خبازي السلطان لأفران متنقلة من الحديد (والحديد هو ما يصبغ غلاف الخبز باللون الأسود) غير أنه أبيض طري من الداخل.

في اليوم التالي وبعد استقبال عدد من أقرباء السلطان وأبناء عمومته، توجهت بصحبة القائد إلى مقر شقيق السلطان الأصغر المدعى مولاي عبد السلام المصاب بعاهة العمى ودار بيني وبينه حوار ودي للغاية. يوم الثلاثاء الموافق للحادي عشر من أكتوبر أحال إليّ القائد أمرا من السلطان يقضي باستعدادي للانضمام إلى موكبه المغادر في اليوم التالي إلى مكناس. وأضاف السلطان أني أستطيع أن أطلب أي شيء منه، ولكني توجهت على الفور إلى دار القائد وقلت له إنه يستحيل عليّ الخروج من المدينة بمثل هذه العجلة مشددا على ضرورة البقاء في طنجة عشرة أيام على الأقل، فاستأذن السلطان ووافق على طلبي. تلك الليلة بالذات عرجت وصديقي القائد على الرئيس الأول سيدي محمد السلاوي فاستقبلنا وهو يجلس القرفصاء على الأرض بدون حصيرة أو سجاد في إحدى زوايا بيت الخشب الصغير الذي سبق أن لاقاني السلطان فيه، وكان المكان مضاء بمصباح صغير من الصفيح بأربع قطع من الزجاج. وبمثل هذا العتاد كان قد قابل للتو القنصل الفرنسي الذي صادفته عند المدخل، وقعدت بجواره وأجزينا حوارا مدته ربع الساعة اقتصر على التحيات والتهاني. بعد ذلك، انطلقت برفقة القائد إلى مقر مولاي عبد الملك ابن عم السلطان، وهو رجل موقر يقود الحرس الملكي، ولما دخلنا خيمته وجدناه مضطجعا على فرشته وبجواره أحد أبنائه الصغار وفقيه. ونهض الأخير عند دخولنا وطلب منا مولاي عبد الملك الجلوس جنبه وانخرطنا في حوار ودي استغرق زهاء ساعة واحدة سلمته خلاله بعضا من الهدايا التي كنت أحملها دائما في مثل هذه الزيارات التي أقوم بها على صهوة حصاني يرافقني القائد على بغلته والخدم من ورائنا يرفعون القناديل. ووزعت كذلك الهدايا على عدد من كبار ضباط السلطان ومساعديه المقربين.

وصف السلطان ورحيله:

غادر السلطان صباح الأربعاء الثاني عشر إلى مكناس فانتهت مرحلتي الأولى عند البلاط. إنه ربما في الأربعين من عمره وهو طويل ومتين وأسمر الوجه وذو عينين واسعتين حافلتين بالحيوية. إنه سريع الحديث والإدراك وبسيط جدا في لباسه إن لم نقل إنه يلبس ثيابا مبتذلة كالحائك الخشن الذي يلازمه باستمرار، وهو خفيف الحركة وفقيه في الدين الإسلامي وقد تلقى تربية إسلامية بالكامل.

إن بلاط السلطان خلا من التألق ومظاهر الأبهة أثناء إقامته في طنجة فنصب مخيمه غرب المدينة بطريقة غير منسقة أو منظمة في حين وضعت خيمة السلطان في وسط الفراغ يطوقها قماش مصبوغ ضخم. أما خيمة مولايْ عبد الملك وكانت رحبة فلم تحتوي على غير فرشين وسجاد كبير وشمعدان من الفضة، وكان أفراد الموكب يربطون خيلهم وبغالهم حول الخيام. ولم أرى في المخيم كله سوى جملين، وعلى الرغم من الترتيب العشوائي والاختلاط فإني قدرت عدد الرجال الموجودين في المخيم بحدود ستة آلاف رجل.

يوم رحيله، رافق القائد سلطانه مرحلة كاملة ثم عاد إليّ وحثني على المطالبة بكل ما أحتاج إليه فالتمست منه إيفاد سفينة إلى جبل طارق للإتيان بالخيام وغيرها من الأدوات اللازمة لتنفيذ مشاريعي.

7
الخروج من طنجة/ من مكناس إلى فاس

يوم الثلاثاء 25 أكتوبر، بعد أن شددت رحالي، أمرت بإخراج أمتعتي من المدينة. وسبقتني حاشيتي وأغراضي وضربت حاشيتي الخيام في محل على بعد مائة فرسخ غرب أسوار المدينة، ثم اقتفيت أثرهم عقب أداء الصلاة في المسجد ومعانقة أصدقائي ورافقني القائد وكلانا على حصانه. وتألف موكب الوداع هذا من بعض الخدم وفقهاء المدينة وعلمائها وجميعهم سائر على الأقدام، ولازموني طول طريقي إلى أن بلغتُ حاشيتي ولجأتُ إلى خيمتي طلبا للراحة. وكان أحد الفقهاء قد أمسك بيدي اليمنى قبل مغادرتي الدار وجعلني أرسم بها رسوما غامضة على حائط الحجرة طلبا للبركة وسلامة العودة. أطبق الظلام فعاد القائد والفقهاء إلى خيمتي حيث شربنا الشاي وأكرموني بعشاء وفير، وانضم إلينا لاحقا الأولياء الأكابر وظلوا معي إلى ساعة إغلاق أبواب المدينة.

كانت حاشيتي قد نصبت الخيام على ربوة، وكان قُطر خيمتي 18 قدما وطولها 13 قدما. كانت الليلة هادئة ومقمرة وأشار ميزان الحرارة إلى 15,1 درجة مئوية عند الساعة التاسعة، أما مقياس الرطوبة الجوية فسجل 85 درجة مئوية.

يوم 26 أكتوبر:

رفعنا الخيام في الصباح وحين امتطينا مطايانا عاد القائد والفقهاء عودتهم الأخيرة. تحلقوا حولنا وصلينا صلاتين سائلين العلي القدير أن ترافقني السلامة، ثم تعانقنا بودٍّ وشوق والدموع تراق من عيوننا، وفي تمام الساعة السابعة والنصف شرعنا في المسير.

عندما انفردت بنفسي استغرقت في تأملاتي، وخطر ببالي أنـــي وإن كنتُ قد تربيتُ في دول أوروبية متحضرة أراني الآن علـــى رأس قافلـــة تقطع برا مقفرا في مهمة غير آمنة لا سند لي فيها سوى قواي الخاصـــة. وكنت أتساءل في نفسي وأنا أولي ظهري إلى الساحل الأطلسي الإفريقي متجها نحو الجنوب "أي نوائب ستنزل بي؟ هل يرحب بي الكل يا تـــرى؟ إلى أي مآل ستؤول مشاريعي؟ هل سأروح ضحية طاغية أو مســـتبد؟ لا، حاشاه الله الذي يعلم كل شيء من على كرسيه، إنه يعرف نزاهـــة نيتـــي فسوف يمدني إمدادا" واختلجت في سريرتي الهواجس والمخاوف إلـــى أن اطمأننت إلى الاستنتاج التالي: "وإن كان الله قد قادني إلى هنا بيده القادرة على كل شيء وعبر كل هذه العقبات فإنه سيهديني بالطريقة نفسها إلـــى حسن الختام".

قافلتي قوامها 17 رجلا و30 دابة وموكب حراسة من أربعة جنود، أما خيمتي الخاصة فمحتوياتها سرير وسجاد ووسائد ومكتب وصـــندوقان صغيران وفيهما أدواتي وكتبي وثيابي اليومية، في حين خصصت ثلاثـــة خيام أخرى للمتاع والحامية والمطبخ. فـــي اليـــوم الأول ســـرنا باتجـــاه الجنوب الشرقي حتى الساعة الحادية عشرة ثم تحولنا نحو جنوب الغرب. وعند الواحدة بعد الظهر قصدنا الجنوب إلى أن أمرت بالتوقف عند الثالثة والنصف. وكنا قد مررنا أثناء هذه المرحلة الأولى بخمـــس دوّارات، أي مضارب البدو، تكون اثنان منها من بيوت مصنوعة من الطين والحجـــر بينما اقتصرت الثلاثة الأخرى على الخيام. خيّمنا على بعد مائة فرسخ من دوّار كبير فيه أكثر من ستين خيمة متجمعة في أربع مجموعـــات. هـــذه الخيام مصنوعة من وبر الجمال وينحصر نشاط سكانها الأشقياء في سوق المواشي وتربيتها. تصادف قدومنا مع حفل زفاف جاء لاختـــراق رتابـــة العيش هنا، فعلت أصوات إطلاق النار والطبول والمزامير إلا إننـــا لـــم

سمع زغاريد النساء وذلك لأنهن لا يتحجبن وينخرطن في الحياة الاجتماعية أسوة بالرجال، ولا أعرف سبب هذا الانتهاك السافر لسنة النبي التي تنهى عن مثل هذا الاختلاط، وروى لي نُصّافي أنهم قد شهدوا بعضا منهن شبه عاريات لا يرتدين سوى ثيابا شفافة.

كانت الأرض في هذا المحل خصبة يكسوها كلأ ممتاز للمواشي إلا إنها لا تنتج ما يفيد للنحل وعلماء النبات لأنها خالية من الزهور، ولم أستطع اقتطاف سوى ثلاثة أنواع نباتية أو أربعة. تحد هذه البلاد هضابٌ من كل الجهات، وإن نظرت صوب الشرق رأيت جبال تطوان (سلسلة جبال) الممتدة نحو الشمال والتي تبدو من موقعي الراهن أنها زاحفة نحو ساحل إفريقيا الغربي. في الساعة الواحدة والنصف عبرنا ذيلا من هذه الجبال الممتدة حتى البحر وعثرت في الطريق على عينات من الغرانيت الصلب أحمر اللون فيه قليل من الفلسبار. وتسهل مشاهدة رأس اسباربيل من أعلى هذه الجبال وكذلك جزء كبير من الساحل. وأبصرنا أيضا في الآفاق من السفن ربما بلغ عددها الإجمالي الأربعين. امتدادا لسفح الجبل الجنوبي تقع مروج رحبة خصبة يجري فيها النهر المسمى مسرع الخاشف الغزير الماء على الرغم من تفرعه إلى فرعين، وكنا قد خضناهما. وظلت السماء غائمة طول النهار وبدأت الرياح تهب باردة عند منتصفه فأزعجتنا كثيرا لأننا كنا قد خيمنا على تل مشرف على السهل. ووجدت كثيرا من عيون الماء تقع واحدة منها على مقربة من المخيم. أما الطقس فسجل ميزان الحرارة 14 درجة مئوية في الهواء الطلق في حين أشار مقياس الرطوبة الجوية إلى 85 درجة مئوية، وكانت الرياح تهب عاتية باتجاه الشمال الشرقي. ولاحظت كذلك عددا غفيرا من المواشي التي تعد مصدر الرزق الوحيد لسكان هذه المناطق ولكني لم ألمح مزارع أو ما يشابهها.

يوم 27 أكتوبر:

ارتحلنا في السابعة والربع قصد جنوب الشرق ثم درنا نحو الجنوب الغربي إلى أن واجهنا رأس اسبارتيل شمالا على مسافة ستة أميال تقريبا. ورأينا البحر على بعد ميلين ونصف الميل نحو الغرب تقريبا، وأصبحت سلسلة الجبال الممتدة نحو الجنوب تقع شرقنا. واصلنا طريقنا جنوبا فاختفى عن أنظارنا البحر، ولكن الجبال ظلت راسخة على اليسار حتى الساعة الرابعة التي أمرت فيها بتطنيب الخيام. لم تختلف الأرض هنا عما ألفناه في المرحلة السابقة فهي سهول تتخللها هضاب ويكسوها كلأ رغيد ولو كانت هذه الأراضي مزروعة لشبهناها بمروج انكلترا. إن قلبي تألم لرؤية هذا التراب الخصب المهمل بشكل شبه كامل، وأنا استحضر مشاهد الاكتظاظ والازدحام في أوروبا وآسيا حيث يضطر الإنسان إلى الإقامة في مناطق ضيقة لا تسع لهم فيعيشون فيها عيشا شقيا.

لقد وجدت في الطريق بعض المنابع المتقاربة بعضها من بعض ومعظمها غزير المياه، وخضنا كذلك نهرين صغيرين وتراءت لنا بعض المضارب على كلا جانبي الطريق، ولاحظت أيضا نفرا من العرب يحرثون الأرض بالجاموس لغرس البذور فيها، كما أني لمحت اعداد هائلة من العجول والأكباش والماعز ولا سيما الأبقار. أما النبات فهو نفس ما كان في المرحلة السابقة باستثناء غزارة من أعشاب المروحة والسرخس.

في الصباح برد الطقس نتيجة لهبوب الرياح العاتية غير أنها هدأت حوالي العاشرة فزالت الغيوم وحل حر شديد خانق، وانهالت على رأسي المغطى بالعمامة والقلنسوة أشعة الشمس الحامية، ولا أعرف كيف يقدر بعض النصارى على تحمل أشعة الشمس اللافحة هذه وهم يلبسون القبعات الخفيفة الرقيقة. انتبهت عند التوقف أننا

جاورنا دوّارا قدم لنا أصحابه الحليب والشعير. وأطبق الليل هادئا رائع الجمال.

تلك الليلة الساعة التاسعة وعشرين دقيقة بلغت الحرارة 13 درجة والرطوبة 64 درجة. إن المحل الذي حللنا فيه يستضيف أيام الثلاثاء سوقا عاما، إلا إنه ليس سوى بمساحة مفتوحة لا تميزها أي علامة ، ويدعى المكان المجاور دوّار الرسانة وتسكنه قبيلة ساحل. وأفادني بعض القاطنين في هذا الإقليم أن العرائش تقع غربا وإن كان هذا صحيحا فإن عرضه عال جدا بالقياس إلى ما حدده كل من شينير (Chenier) وأروزميث (Arrowsmith) في خرائطهما.

يوم 28 أكتوبر:

في الساعة السابعة والربع توغلنا في غابة من السنديان يطلقون عليها غابة دوّار الريسانة، وفي التاسعة عبرنا نهر واد المخازن وتحولنا إلى جنوب الشرق، وفي العاشرة شاهدت زاوية وضيعة قيل لي إنها قريبة من العرائش، وحسبت بعدها عنا بأربعة أميال ونصف الميل في اتجاه شمال الغرب. ثم وصلنا إلى القصر الكبير بعدما قصدنا جنوب جنوب الغرب. وتتألف هذه البلاد من مروج حسنى تتاخمها تلال صغيرة في الناحية الغربية وسلسلة من الجبال في الناحية الشرقية، وعنّ لي أن فرعا من هذه الجبال أوغل غربا في البحر. وعبرت أربعة فجاج غير عميقة. والتربة كسابقتها إلا أنها تحتوي على مزيد من الرمل.

مررنا بثلاثة أو أربعة مضارب قوامها خيام وأخصاص وربما كان أكبرها لا يضم أكثر من عشرين خيمة أو خصا. نزلنا على مسافة ستين فرسخا من القصر الكبير فدخلت المسجد لأداء صلاة الجمعة. المسجد صغير وفقير المنظر إلا أن الواجهة مزدانة بالخط العربي.

إن مدينة القصر الكبير تفوق طنجة من حيث عدد السكان والمساحة. دورها مصنوعة من الآجر والأسقف يغطيها القرميد كما في أوروبا، وفيها دكاكين كثيرة يديرها المغاربة ومعامل يعمل فيها اليهود. مع غناها بدت لي المدينة كئيبة ورتيبة، وألفيت فيها أشخاصا في أزياء حسنة بينما ترتدي النساء كافة الجوارب ويلتحفن بالرداء شأنهن شأن نساء طنجة. وكان الجو يوم حلولنا فيها حارا خانقا وقد غزت الغيوم السماء.

في الساعة الثامنة والنصف أرسل إلي حاكم المدينة عشاء سخيا وضُمّ ستة جنود إلى موكبي في حين بعث لي أحد الوجهاء وجبة عشاء ثانية. ولم يتسن لي إجراء فحوصي الفلكية بسبب تلبد السماء. وارتفعت درجة الحرارة عند الثامنة والنصف إلى 16,3 درجة وزادت الرطوبة الجوية إلى 40 درجة. ثم أمطرت السماء إلا أن الجهاز أثبت أن الهواء الملتصق بالأرض لم يكن رطبا. ولم تلبث أن اندلعت عاصفة رعدية دامت طول الليل.

يوم 29 أكتوبر:

نتيجة للأمطار والأرض الصلصالية المبللة التي تتزحلق عليها بغالنا لم يتسن لنا الخروج قبل العاشرة صباحا. قطعنا بساتين عديدة ثم خضنا نهر لوكس الواقع جنوب القصر الكبير وليس شماله كما تدعي الخرائط، وإن صح ما أكدوا لي بشأن مصبه في البحر بالقرب من العرائش فإنه لا بد أن ينعطف نحو شمال شمال الغرب. وعندما عبرناه لم تكن مياهه كثيرة ولكنهم قالوا لي إنه يفيض أحيانا فيضانا مرعبا. وواصلنا طريقنا في عدة جهات إلا إن جهة جنوب جنوب الشرق كانت الغالبة، ومن الساعة الثانية إلى أن توقفنا الساعة الخامسة، سرنا جنوبا. بعد تجاوزنا النهر لاحت لنا جبال حالت دون رؤيتنا السماء المفتوحة غير أننا انحدرنا إلى سهل رحب تحده الجبال تفرقت فيه بعض المضارب. كانت الأراضي رملية بل غنية بالصلصال ولم ينمُ عليها غير الشوك الناصع البياض

الشبيه بالثلج، ولاحظت كذلك نواحي مليئة بالحصى المخروطي الشكل. في هذه المرحلة رأينا فوق رؤوسنا وعلى ارتفاع عال جدا أسرابا لا تحصى من الطيور لم أنجح في تحديد نوعها تطير نحو شمال الشرق، وبدا لي أن السرب يربو على أربعة آلاف طير، كأنه جيش متهيئ لخوض القتال. في الساعة الثالثة بعد الظهر غامت السماء فتساقط مطر خفيف واستمر الطقس على هذه الحال مما منعني مجددا من مراقبة النجوم. وتحددت الحرارة عند 13,6 درجة والرطوبة عند 85 درجة.

يوم 30 أكتوبر:

الساعة السابعة صباحا أمرت بالانطلاق فرحلنا نحو جنوب الشرق ثم عبرنا نهر السبو بالزوارق فنزلنا عند ضفته اليسرى حيث خيمنا. السبو نهر غزير الماء ينضم إليه في تلك النقطة نهر آخر يسمى الورقة، وهو قادم من الشرق بينما السبو مقدمه الجنوب. أما المكان الذي ركبنا فيه القوارب فهو عند مصب رافد اسمه رضات. ويبلغ السبو مائة وثمانين قدما عرضا وهو عميق جدا وسريع التيار. ضفتاه من الصلصال الزلق. إن جميع الأنهر والروافد التي خضتها أثناء رحلتي هذه تتشابه في مواصفات قيعانها ومكوناتها، وبما أنها تعبر البلاد من الشرق إلى الغرب أي من المناطق الجبلية إلى المناطق الساحلية فإنها قد تُتخذ خنادق طبيعية تصلح للاستحكام والدفاع عن الأراضي المحيطة بها.

كانت الجبال تغلب على التضاريس حتى الساعة الحادية عشرة والنصف التي أشرفنا فيها على سماء رحبة مفتوحة. وأصبحت سلسلة الجبال على بعد ثمانية أميال أو تسعة من جهة الشرق، وتبين لي جبل منفصل يسمو على غيره حسبته على بعد اثني عشر ميلا وقيل لي إن مدينة فاس تقع على سفحه. وكانت السماء تحيق بها غربا بهضاب

صغيرة تقدمتها أراض منبسطة. في الساعة العاشرة مررت ببصـ بحيرات امتلأت بالسلاحف. الأراضي في هذه المناطق صلصالية في الجبال وبعض السهول أما الباقي فهو ممزوج بالرمل والتراب القيري.

عند الساعة الحادية عشرة والربع قاربنا جبلا منفردا من الحجر القيري الأصلي. ولا بد من الملاحظة بأن شرائح الصلصال التي تغطي أراضي البلاد سميكة جدا كما يتبين في الشقوق والوهاد وقيعان الأنهر وتتشكل من طبقات أفقية، وبرأيي فإن هذه الطبقات الضخمة نجمت عن ثوران براكين واقعة تحت البحر ظلت نشطة إبان آلاف من القرون. جل الأتربة الغنية بالصلصال ينبت عليها نبات الشوك اليابس فيما نرى المروحة والحلف ونباتات أخرى في الأتربة الرملية، إلا أنني لم أجد زهورا تنبت فيها.

هذه المرحلة شاهدت فيها كثيرا من المضارب أقيم في إحداها حفل زفاف. وفقا لما درجت عليه العادة، خرج العريس مرتديا السلهام أو البرنس الأبيض ومغطيا رأسه بالقلنسوة، واقترب بعض الأعراب من ناسي وطلبوا منها الإكرام المالي ثم أغدقوا عليهم بالزبيب، ويجب التنبيه إلى أن مثل هذه التقاليد لا تؤدي إلى تجاوزات وذلك بفضل طيبة الأخلاق لدى هذه الأقوام. ولاحظت سذاجة هؤلاء الأناس وبساطتهم موسومتين على وجوههم.وحتى ملابسهم.

لما وصلنا النهر أمضينا ثلاث ساعات ونصف الساعة في خوضه لأننا اضطررنا، علاوة على شحن البغال وإفراغنا، إلى دفع المطايا وجرها بقوة إلى القوارب وإخراجها بالطريقة نفسها لأن المراكب لم تكن مزودة بخشب أو صفيح يساعد في دخولها أو الخروج منها. وزد على ذلك أن إعياء حاشيتي تضاعف عندما قامت عاصفة مروعة أرفقتها أمطار هطلت علينا بشدة. فيما بعد، نصبنا المخيم بجوار دوّار أهداني رئيسه كبشا وقدرا كبيرا من الشعير والحليب. تلك الليلة بقيت السماء على

حالها من التحجب فلم أتمكن من مراقبة النجوم، وبلغت الحرارة الساعه الثامنة والنصف 12,5 درجة والرطوبة 100 درجة، وكان الهواء والأرض تعجان بالماء.

يوم 31 أكتوبر:

استأنفنا السير الساعة السابعة والربع صباحا متجهين إلى جنوب الغرب حتى الرابعة إلا ربعا إذ تحولنا إلى جنوب الشرق ثم إلى جنوب جنوب الشرق فوصلنا الضفة الغربية لنهر ردم. وجارينا هذا النهر فترة من الزمن وخضناه مرتين ثم أمرت بالتوقف عند الخامسة والربع عصرا. وكان المنظر هو سهل واسع يؤدي إلى هضاب صغيرة، ولاحت فوق الهضاب الواقعة على اليسار قمم الجبال الشرقية التي حسبتها تبعد عشرة أميال أو ربما اثني عشر ميلاً. أما نهر ردم الذي سرنا موازين له لمدة طويلة فهو عريض وعميق، وعلى الرغم من أنه يمكن خوضه في أكثر من ناحية إلا أن تياره القوي لا يسهل المهمة، وضفتاها غنيتان بالصلصال وعلى الشكل الذي وصفنا به الأنهر السابقة. وعند تجاوز الجبل الذي يحد الآفاق جنوبا يتسع أفق جديد تحده الجبال مرة أخرى من جهة الشرق والجنوب والتلال من جهة الغرب. أما التراب فهو صلصالي ومكسو بالشوك اليابس وتظهر هنا وهناك ملامح قيرية ورملية تنبت فيها الشجيرات الشائكة اليابسة وكذلك مجموعات متفرقة من البساتين والأراضي المزروعة.

أوعزت بالنزول في منزل قريب من إحدى المحلات المتعددة الموجودة في هذه المنطقة الغنية، كذلك قرب زوايا توقفنا عند بعضها لأداء الصلاة. وظل النهار غائما وتساقطت بعض الأمطار الخفيفة واستمرت الأحوال على هذه الصورة أثناء الليل، وسجل ميزان الحرارة 12,5 درجة عند الساعة الثالثة فيما أشار مقياس الرطوبة الجوية إلى 34 درجة.

يوم 1 نوفمبر:

انطلقنا الساعة السابعة والربع وأجبرتنا الأراضي المقفرة على الانعراج نحو جنوب جنوب الشرق أو جنوب جنوب الغرب. وفي الساعة الثامنة خضنا نهر الردم الزاحف غربا لآخر مرة، وفي الساعة الثانية عشرة إلا ربعا اتخذنا خطا موازيا لموقع مدينة فاس التي بعدت ستة أو سبعة أميال من جهة الشرق وفقا لحساباتي الخاصة التي تفند ما أوتيت من معلومات في الأيام السابقة، والساعة الواحدة بعد الظهر عبرنا نهيرا مجراه نحو الشرق، واعتليت ربوة أبصرت منها مدينة مكناس الواقعة قاب قوسين. وواصلنا الرحيل فخضنا نهر مكناس، وبعدما خلفنا هضبة صغيرة بلغنا مزارا مجاورا لبوابة المدينة.

المنظر الذي كنت قد أبصرته في اليوم السابق والذي بدا لي سهلا قفراً وجدته اليوم غنيا بالتلال المتساوية الارتفاع يقطعها نهر الردم، ومجار كثيرة ملتوية. وما زالت سلسلة الجبال الشرقية تبدو راسخة في الأفق على مسافة طويلة. أما مدينة مكناس فهي متربعة على ربوة صغيرة ويحيط بها سور منيع يستطيع به سكانه ردع جيش جرار، وطول هذا السور خمسة عشر قدما وعرضه ثلاثة أقدام وله فتحات متفرقة. تظهر هذه المدينة مظهرا حسنا تتوجها أبراج، إذا أشرف المرء عليها من على نتوء على الطريق. ومما يزيدها جمالا البساتين ومزارع أشجار الزيتون التي تطوقها على شكل مدرج.

هذه المرحلة تخللتها بعض الأمطار ولم يخل الطريق من مضارب البدو. وكنت قد أوفدت في الثانية صباحا خادما إلى سيدي محمد السلوي لإخباره بقدومنا، وصادفنا قبل بلوغ مكناس بنصف ميل ضابطا تكفل استقبالي بأمر من السلطان، وقادني الضابط إلى المزار الآنف الذكر للاستراحة برهة ثم أخذني ومتاعي إلى المنزل الذي كان قد جُهز لي. وبعيد نزولنا فيه دخل عليّ رئيس بيت المال وسلم عليّ وحياني التحيات

المألوفة ثم سألني عن حاجتي وحاشيتي ومطاياي مؤكدا على استعداده لتلبية أي طلب وتغطية أي نفقة مهما كانت. وزيادة على ذلك، بعث لي سيدي محمد السلوي عشاء ممتازا.

يوم 2 نوفمبر:

في الصباح قصدت مقر الوزير للقيام بواجب زيارته، وبعث إلي لاحقا في الساعة الرابعة بغداء فاخر. سائر النهار قضيته في الدار في انتظار دعوة السلطان للمثول بين يديه وتعذر علي التفرغ لحساباتي الفلكية لأن حيطان الدار العالية لم تسمح لي بمشاهدة السماء ولم أستطع صعود السطح.

يوم 3 نوفمبر:

لا جديد يستحق الذكر سوى تسلمي أمرا من السلطان يقضي بالحضور أمامه في اليوم التالي.

يوم 4 نوفمبر:

عند الظهر جاء وفد لاصطحابي من الدار فقادني إلى مسجد القصر حيث انتظرت مجيء السلطان. ولأنه كان يوم الجمعة، فقد حضرت خطبة الجمعة والصلاة المتعاقبة، ثم تقدمت إلى السلطان ودار بيننا حوار ودي أفادني فيه برغبته في المغادرة عما قريب إلى فاس، وطلب مني أن أبحث في سبل مرافقتي له مع وزيره السلوي. وقد فعلت، فزرته بعد المسجد وحثني على التماس كل ما أحتاج إليه للإعداد للسفر إلى فاس في اليوم التالي، ومن المتوقع أن أنزل في دار مولاي إدريس وهو من الأولياء الأكابر المبجلين. وعملا بكل ذلك، ما كدت أبلغ الدار حتى عكفت على تهيئة أمتعتي استعدادا للرحيل.

يوم 5 نوفمبر:

بأمر من السلوي أحضر لي ما كنت أحتاجه من البغال وخمسة جنود ركاب ضممتهم إلى موكبي. وفي التاسعة صباحا خرجنا من مكناس باتجاه شرق شمال الشرق، وبعد ساعة عبرنا نهر مكناس ثم خضنا أحد فرعي نهر الردم. بعد ساعتين خضنا نهر امكاس أو مهدومة وهو عريض جدا، وأخيرا دخلنا فاس حوالي السابعة مساء. ويتشكل المنظر هنا من سهول رحبة يمتد فيها البصر إلى جهة الشرق في حين تلوح في اتجاه الشمال جبال شاهقة كنا قد مررنا بسفوحها. وتحد هذه السهول سلسلة من الجبال شرقا ومجموعة من المرتفعات غربا. ويغلب على التراب هنا الرمال وشيء من الطين. والنبات المنتشر هنا هو المروحة ولم أجد أثرا للزرع غير مجموعات متفرقة من أشجار الزيتون في ظاهر مكناس. ورأيت كذلك دور على اليسار بجوار الجبال. ذلك النهار غامت السماء معظم الوقت إلى أن أمطرت في آخره وأنا أنقاد إلى منزل داخل المدنية، وكنت قد أوفدت عصرا جنديين إلى الوزير وفي حوزتهما رسالة أطلب فيها عدم إغلاق بوابة مدينة فاس ما دمت في طريقي إليها وقد أحسنوا الفعل.

بدخولي مدينة فاس اختتمت أول رحلة لي في القارة الإفريقية، واستنادا إلى تقديراتي فإن قافلتي قد قطعت منذ مغادرتنا طنجة معدل ألف وخمس وعشرين تويسا (حوالي ألفين وأربعين قدما) في الساعة، إلا إننا قطعنا المسافة ما بين مكناس وفاس بمعدل يقارب الفرسخ الواحد خلال المدة الزمنية نفسها.

8
وصف فاس/ الحكومة/ رجال الدين/ العلوم/ المصانع/ النبات المخدر/ المؤن/ الطقس/ الزلزال

تقع مدينة فاس على خط عرض 34 درجة و6 دقائق وثلاث ثوان شمالا، أما طولها فهو7 درجات و18 ثانية و30 دقيقة غربا حسب مرصد باريس. إن كثرة الحسابات الفلكية التي أجريتها في فاس بمساعدة معدات ممتازة تخولني القول بأن نتائجها دقيقة جدا على الرغم من العقبات التي واجهتها نتيجة للأجواء الممطرة والمتلبدة، علما بأن خرائط أروزميث والميجور رينيل ودي ليل وغولبيري وشينيا مليئة بالأخطاء. وقد اتخذت من منزل بوسط المدينة مرصدا لي، ويمكن القارئ الاطلاع على استنتاجاتي في الجزء المخصص للمسائل العلمية المسجلة أثناء رحلاتي. وتقع فاس على عدد من المرتفعات تحيط بها من كل صوب ما عدا الشمال وشرق الشمال، وليس هناك وسيلة تسمح بتقدير عدد سكان فاس بدقة ولكني أُفدت بأنها تضم حوالي مائة ألف نسمة وأن عددهم ربما كان ضعفه قبل وباء الطاعون الأخير. شوارعها مظلمة والسبب في ذلك لا يعود فقط إلى ضيقها بحيث يتعذر على اثنين يركبان المطية المرور بها معا وإنما إلى دأب الأهالي على توسيع الطابق الأول لمنازلهم العالية نحو الفراغ مما يمنع النور من الوصول إلى الأرض، وزد على ذلك أنه كثيرا ما يضاف إلى الأدوار العليا نوع من الممر أو الدهليز يربط بين أقسام المنازل المختلفة كما أنهم اعتادوا إنشاء الأسوار على شكل اقواس لدعم المباني عند أول الزقاق، علما بأن هذا السور له باب كبير يُقفل عند حلول الليل مما يحوّل المدينة إلى حارات منفصلة بعضها عن بعض،

ولاحظت هذا التقليد أيضا في مدينتي تطوان والقصر الكبير. عليه، فإن الإقامة في هذه المدينة لا تبعث على الراحة أيضا، نظرا لانحدار شوارعها وعدم تعبيدها ولذلك فلا غرابة أن تغرق الشوارع بالماء والوحل إذا أمطرت السماء. وإن لم تسقط المياه كانت الشوارع نظيفة بفضل حرص المواطنين على عدم تلويثها، إلا أن المدينة وشوارعها لا تشذ عن سائر مدن إفريقيا من حيث الإهمال والانحطاط فمعظم بناياتها آيلة للسقوط وتجدها مدعومة بسواند ومفتقرة إلى النوافذ فلا تدخل الضياء إليها إلا من خلال كوات بحجم ورقة صغيرة. وما أبوابها إلا قطعا غليظة خشنة من الخشب. على كل حال فقد تجد وراء هذه الحيطان المرتفعة مغاني لا تخلو من الجمال إلا أن التقليد السائد في هذه البلاد يقضي بإنشاء فناء عند المدخل يحيط به رواق يؤدي بدوره إلى الحجرات وهي طويلة ومظلمة لا ينفذ إليها الضوء إلا من عرض الباب نفسه الذي يحرصون على ضخامته. الحجرات طويلة وضيقة كمثيلاتها في طنجة في حين يتكون السقف من الأخشاب ويخلو من الزخارف في أغلبية المساكن إذ أنها قليلة، وهي مزدانة بالحيطان أو ذات أقواس منقوشة على الطريقة العربية المصبوغة بشتى الألوان والمطلية أحيانا بالذهب والفضة. أما أرض الفناء والحجرات كافة فهي مغطاة بطبقة من اللبن وقد تجدها مكسوة بالبلاط الملون المصنوع من الزليج أو الرخام في منازل الأغنياء. والسُلَم ضيق والدرجات عالية، والسقوف كثيرا ما تشبه نظيراتها في طنجة، مغطاة بالرمل المقبوض الذي يزيد عرضه عن قدم واحد ويشكل وزرا ثقيلا على الحيطان. وبما أن الأهالي لا يحسنون صناعة القير فإنهم يستخدمون نوعية سيئة لدى بنائهم الحيطان مما يؤدي إلى انهيارها بسرعة، وبالتالي تندر المباني الطويلة الأمد بل تغلب عليها الشقوق والتصدعات وجلها آيل للسقوط كما تقدم.

مساجد فاس:

تحتضن فاس ما يزيد عن مائتي مسجد، أهمها ذلك المسمى القرويين، ويتعدى عدد أعمدته الثلاثمائة عمود ولكنه بليد الإنشاء سيء التخطيط ولا يختلف كثيرا من حيث الشكل والنظام عن جامع طنجة وإن كان يتغلب عليه في عدد الأعمدة. إذ بني بالآجر والقير والحصى وينقصه الرونق المعماري والزخارف، وله أبواب عديدة وتوجد في وسط الساحة نافورتان. إنه مبنى مشهور ولكنه لا يمكن أن يُضاهي جامع قرطبة الذي شاهدته في إسبانيا الذي يفوقه جاها وفخامة. المئذنة صغيرة وبسيطة. إجمالا، كل المساجد التي رأيتها في المغرب متشابهة فكلها مؤلفة من باحة يطوقها الرواق والأقواس وقطعة مربعة مغطاة ومقوسة في ناحيتها الشرقية، ويقع المحراب في القسم الجنوبي أو جنوب الشرقي ويقف فيه الإمام ليؤم المصلين، ويوجد على يسار المحراب المنبر المخصص لخطبة الجمعة. إن كل هذه المواصفات يتسم بها أيضا جامع قرطبة، وهو ما يثبت أنه معبد أنشأه العرب لأغراض دينية وليس ما تبقى من سوق أقامه الرومان كما يدعي عدد من سكان المدينة، وإن كانت الأعمدة قد استخرجت من أنقاض ما شيده أرباب العالم القديم الرومان. زد على ذلك أن أقواس الساحة المربعة التي تحيط بالكنيسة الحالية قد سدت بعد رحيل العرب عن المدينة، ويجب التنبيه إلى أن المساجد المغربية ما زالت تحتفظ بها مفتوحة ولذلك أعود وأكرر أن جامع قرطبة وخلافا لما يزعم نفر من الكتاب الأسبان يمثل إبداعا عربيا لا يمت بصلة إلى الهندسة المعمارية الرومانية. ويخلو جامع القرويين شأنه شأن سائر المساجد هنا من الرسوم المزخرفة ولكنه مفروش البلاط بالحصران كالأخرى. إن القيمين عليه يحتفظون عند المئذنة بثلاث ساعات رديئة لضبط توقيت الأذان وعلى الرواق مزولتان صغيرتان لتحديد الظهر وكانتا خربتين

عندما عاينتهما إلى درجة أنهما تقدمتا في الإشارة إلى الظهيرة أربع أو خمس دقائق، فنبهت أولي الأمر إلى هذا الخلل ورسمت خطا لضبط إرشادها ومن ذلك الوقت أطلق الأذان في وقته المناسب. ويوجد عند البرج كرة أرضية وآلة فلكية مزودة بكُرة وحَلَق وكرة سماوية وصنعت كلها في أوروبا قبل ما يزيد عن قرن من الزمن، ولكن عفّى عليها الزمن وتُركت للغبار والفئران والرطوبة لأن المسلمين يجهلون طريقة استعمالها، ولذلك استحال عليّ فك رموزها وأرقامها. ووجدت في قاعة أخرى مجموعة من الكتب القديمة البالية أهملت إهمال الأدوات الفلكية، وبحثت طويلا عن مجموعة مؤلفات تيتوس ليفيوس التي يُقال إنها قابعة هنا، ولكني لم أفلح ولم ألق أحدا يقدر على تأكيد وجودها هنا. ولم أكن لأتوقف عن البحث والسؤال عنها لو لا خوفي من إثارة الشكوك وحفيظة الناس. ويتميز جامع فاس بميزة تعدم في المساجد الأخرى وهي حجرة مسدودة مخصصة للنساء الراغبات اللاتي يرغبن بصلاة الجماعة. إنها ميزة استثنائية فعلا، فمثلما لم يحدد نبينا للنساء مكانا في الجنة امتنعنا نحن المسلمين عن تحديد لهن مجالا في المساجد فأعفيناهن من الصلاة العلنية[4].

بالإضافة إلى القرويين ثمة جامع جديد (جامع الرصيف) أنهاه السلطان الراهن مولاي سليمان وهو أكثر رشاقة من غيره لأن أقواسه أطول وأعمدته أكثر ترتيبا، غير أن هيكل الصرح لا يشذ عن القاعدة. أما أكثر مساجد فاس إقبالا عليها وأقلها تطابقا مع غيره في آن، فهو ذلك المكرس للسلطان مولاي إدريس مؤسس فاس، والذي يعتبر وليا صالحا يتبارك به الناس في مسجده. ويضم الصرح ساحة محاطة بالرواق كما

[4] مرة أخرى يبرهن دومينغو باديا على سطحية معلوماته عن الدين الإسلامي وشرائعه فالمساجد التي تخصص مكانا للمصليات كثيرة، كما أن النصوص الدينية لا تقول شيئا عن حرمان النساء من الجنة.

هو الحال في كافة المساجد، إلا أن القسم المغطى فيه هي قاعة مربعة واسعة عديمة الأقواس والأعمدة. سقفها عال جدا ومصنوع من الخشب ومزخرف ويكوّن هرما مثمن الأضلاع يتأسس على حيطان الصالة الأربعة. ويقع ضريح مولاي إدريس على يمين المحراب ويستره قماش موشى، أصبح متسخا نتيجة لتعبد المؤمنين. وتتدلى من سقف الصالة عدة أسراج وثريات، ويحف بالضريح صندوقان كبيران يضعون فيهما النذور والهبات النقدية وهي مورد مالي أكثر إثمارا من أي من المناجم التي يشغلها النصارى وذلك بفضل نعمة رب المؤمنين. المئذنة أطول وأجمل واحدة في فاس إلا أنها لا تبرز بروزا شامخا لأن المسجد مبني على منحدر، وتوجد عند أساس المئذنة قاعة جميلة من بضعة حجرات اكتشفت في إحداها مجموعة معتبرة من الساعات تبلغ اثنتان منها مبلغا من الروعة، ومن نافلة القول أنها أوروبية الصنع إذ أن المغاربة لا يفقهون شيئا عن فن تصنيعها أو طرق تنظيفها وتركيبها، وعرضوا علي واحدة قديمة جدا مصنوعة من المعدن كانت قد تفككت وادعوا أنها من صنع مغربي إلا أني لم ألبث أن أكتشف بطلان هذا القول. ويمكن القول بأن هذا الضريح هو أكثر الأضرحة قداسة في المملكة ويستحيل اقتحامه ولو كان بحثا عمن يتهم بارتكاب أسوأ الجرائم بما فيها الخيانة العظمى، فهو يعد مأوى حراما. أما المساجد الأخرى فهي صغيرة وقبيحة المظهر عدا ذلك القابع في قصر السلطان وهو يفوق معظم المساجد الأخرى حجما ولكنه لا ينأى عنها من حيث الشكل والترتيب.

قصر السلطان:

يتألف قصر السلطان من باحات عديدة لم يكتمل بناء عدد منها فيما أصبحت نسبة أخرى شبه مهملة، وتنفتح كلها على حجرات لم أتفحصها. وصادفت في الساحة الأولى جمعا من الجنود يحرسون صالات مقفلة لا

تُفتح إلا للمستخدمين والوصفاء أو الزوار الذين يحظون بحظوة خاصة. ورأيت في الساحة الثالثة بيتا صغيرا من الخشب ذكرني بتلك البيوت المنشأة عند أقسام خدمة الجمارك في أوروبا، وكان في داخله قماش موشى يكسو حيطانها وسجاد يغطي بلاطه ومن أثاثه أفرشة بالستائر وأريكة وفرش صغيرة. ولا تتجاوز مساحة هذه الغرفة خمسة عشر قدما مربعا ويستغلها السلطان لاستقبال الأشخاص الذين أذن لهم بمقابلته، ولكنه لا يُسمح لهم تعدي الباب، فلا يحق ذلك إلا لأقرب مساعديه وأصدقائه وكنت أنا واحدا منهم. وتضم الساحة نفسها مسجدا صغيرا يؤدي فيه السلطان صلواته اليومية عدا صلاة الجمعة حيث ينتقل إلى الجامع الواقع في القصر نفسه والذي يمكن الناس النفوذ إليه عن طريق باب يطل على الشارع. وتوجد مكاتب الوزارة في الساحة الثانية وهي في الواقع قاعة طولها ثمانية أقدام وعرضها خمسة أقدام وجدرانها مثلومة سوداء اللون ولا تحتوي سوى على سجاد يفرش أرضها، ويتربع الكاتب في زاوية من زوايا هذه القاعة الشقية وإلى جانبه مداد وقلم ومنديل من الحرير ودفتر ضخم يدون فيه تدوينا، وإذا فرغ من مهامه اليومية لمّ المداد والقلم والدفتر وغادر بها. وأنشئ القصر على نتوء في حي يقع في ربض المدينة يدعى فاس الجديدة ويجبر اليهود على الإقامة في هذا الحي ويمنع عليهم الخروج منه ليلا.

دُور فاس وأسواقها:

لا يتميز ظاهر مسكن مولاي عبد السلام وغيره من الخواص عن سائر المساكن، أما باطنها فليس أحسن بكثير باستثناء البساتين. على كل حال، حديقة السلطان نفسها المجاورة للقصر ما هي إلا جنينة صغيرة تنبت فيها بعض الأشجار وتتخللها مبان صغيرة لا وظيفة لها، ويطلقون عليها "بوجلود"، أي أبو الجنود.

نهر فاس وهو يعبر أراضي القصر ينقسم إلى قسمين لدى دخوله المدينة ويمدان البيوت والمساجد بمياه وفيرة مما يخول الكل بإنشاء نافورة أو أكثر داخل داره، وتزخر فاس كذلك بعدد كبير من الطواحين.

دكاكينها كثيرة جدا تدفع بك إلى الظن بأن المدينة يقطنها ثلاثمائة أو أربعمائة ألف قاطن، إلا أنها تمد في الأساس سكان جميع أنحاء البلد بما فيها المناطق الجبلية التي يفتقر سكانها إلى الحوانيت والمصانع مما يضطرهم إلى التزود في المدينة. وتحفل الأسواق بالمؤن والمنتجات بحيث يمكن مقارنتها مع الأسواق الأوروبية، وتتوفر كذلك الأماكن التي تقدم الوجبات والطعام المطبوخ شأنها شأن المطاعم الأوروبية. وتتوزع الصناعات والبضائع المختلفة حسب نوعيتها فيتجمع أصحاب المهنة الواحدة في شارع واحد، إلا المكان الذي يسمونه القيصرية تختلط فيه المحلات والدكاكين ومعظمها متخصصة في الأقمشة والحرير ومواد غذائية، ويكثر في القيصرية البضائع المستوردة من أوروبا والمشرق عن طريق البحر أو من جنوب إفريقيا بواسطة القوافل. وعلى غرار الشوارع المليئة بالدكاكين، أقيم فوق شارع القيصرية سقف من الخشب المزخرف والمثقوب بثقب وكوات متعددة الأشكال والأحجام تسمح للضوء بالنفاذ إليها. وتتميز هذه الشوارع بالنظافة على الرغم من اكتظاظها اليومي بجمهور غفير، ويمكن تشبيه المشهد هنا بجادات بلاي رويال في باريس وإن كان التشبيه فظا. ولا تندر فيها الحسناوات من النساء اللواتي يتسنى الانتباه إلى مفاتنهن عندما يوارين حوائكهن.

الحمّامات:

تحتضن فاس عددا كبيرا من الحمّامات، ويحتوي بعضها على غرف متفاوتة الحرارة، وفيها أحواض بالماء الساخن الصادر عن مراجل تقع في الجانب الخلفي. وتوجد كذلك في هذه القاعات أوان وقلل لسكب الماء

والتوضؤ. وقد لاحظت مرارا أن الجسد يكسوه غطاء من الندى الذي يصعب الإحساس به عند الدخول في هذه الحجرات، والسبب أن الهواء يعج بالبخار الناتج عن الماء الساخن. ومرة ذهبت إلى أحسن حمّامات فاس بميزان الحرارة واختليت في الحجرة الأكثر سخونة فسجلت ثلاثين درجة ريامور، ثم انتقلت إلى حجرة أخرى ارتديت فيها ملابسي فبلغت 22 درجة ريامور، فيما كانت الحرارة في الخارج تسع درجات. ويوجد عند المدخل سبيل كبير غزير الماء له حوض جميل من الرخام. كل القاعات مقببة وتخلو من النوافذ وإنما لها ثقب صغيرة مغطاة بالزجاج يتسرب منها الضوء، أما البلاط فهو ملون. وتتوفر في الحمّامات غرف كثيرة للاختلاء فيها والاستراحة والوضوء، وهي مفتوحة طوال النهار يرتادها الرجال في الصباح والنساء في المساء. كنت أختلف إليها عادة في الليل فأكتري المكان لي وحدي للحيلولة دون دخولها الأجانب، وكان يرافقني في معظم الأحيان صديق أو خادم. وفي المناسبة الأولى انتبهت إلى دلاء مليئة بالماء الساخن ومصفوفة بعناية في زوايا جميع الغرف وسألت عن وظيفتها فأجاب لي مستخدمو الحمّامات: "لا تلمسها يا سيدي، لا تلمسها". سألتهم لماذا وقالوا إن هذه الدلاء مخصصة للذين "يعيشون تحت"، أي "الجن الوافدين للاستحمام هنا ليلا". وراحوا يسترسلون في مثل هذه التخاريف إلا أني لم آبه لتحذيراتهم فمددت يدي إلى عدد من تلك الدلاء وحرمت الجن منها.

المارستان:

في فاس مستشفى له جهاز جيد يعتني بالمجانين فقط، والغريب في الأمر أن جزءا كبيرا من ميزانية هذا المارستان ترد إلى تبرعات بعض المحسنين الذين أوصوا بـ "معالجة وإسعاف وشفاء ودفن طيور اللقلق و

الكركي المريضة أو الميتة" ظنا منهم أن هذه الطيور رجال يقطنون في جزر نائية يتخذون صورة الطير للطيران إلى هنا والمكوث ردحا من الزمن ثم العودة إلى بلادهم، ولذلك فمن يمسها بأذى يعد مجرما في نظرهم ويحكون حكايات سخيفة لا تحصى عن هذا الموضوع. مما لا شك فيه أن فائدة هذه الطيور ونجاعتها في إزالة الزواحف الموجودة بكثرة في هذه الأقاليم الدافئة قد دفعت البشر إلى الاعتزاز بها وتعظيم شأنها، إلا أن ميل الإنسان إلى الخرافة والخيال أدى هنا، وفي غيره من الأماكن، إلى إنشاء مثل هذه التخاريف لتحقيق الغرض نفسه، أي الحفاظ على حيوان مفيد.

نظام الحكم:

نظام الحكم في فاس كالسائد في جميع مدن المملكة فيعتبر القائد أو الحاكم مندوبا للسلطان، ويتمتع بالسلطة التنفيذية في حين يتكلف القاضي السلطة القضائية، ويضطلع موظف يسمونه المعتصم بتسعير البضائع وإدارة التجارة والبيع في المدينة. وهناك مجموعة من الجنود تحت إمرة الحاكم إلا أني لم أر حراسا سوى عند بوابة المدينة وبوابات أخرى داخلها.

استحكمت فاس بأسوار واسعة ما زالت قائمة وإن كانت قديمة وأصابتها أضرار بليغة، وتضم هذه الأسوار المدينة القديمة وكذلك فاس الجديدة وعددا من الحدائق الكبيرة. شُيّدت المدينة على نتوءين يقع أحدهما في جهة الغرب والآخر في الشرق، حصنان ليسا سوى مربعين مسوّرين تبلغ واجهتهما ستين قدما، ويقال إن هناك سراديب تصل الحصنين بالمدينة وتنصب فيهما مدافع يحرسها مائة جندي إذا انتفض السكان على السلطان، والحق يقال إن مثل هذا التحصين ضعيف للغاية.

المدارس:

لفاس مدراس كثيرة أهمها في جامعي القرويين ومولاي إدريس وفي مسجد يسمونه المدرسة. ونموذج التدريس هنا يتلخص في مشهد يبعث على الاستغراب والشفقة في آن: رجل متربع على الأرض يصرخ في وجوه خمسة عشر أو عشرين تلميذا يشكلون حلقة حوله ويرددون صيحاته الحادة أو تراتيله الشاكية بدون أي ترتيب أو نظام مما يثير ضجة مدوية. أما المواد الملقنة فتنحصر في مادة واحدة هي الأخلاق الإسلامية والشريعة والفرائض الدينية، أي إن جل هذه الدراسات أساسها القرآن وكتب التفسير ويضاف إليها مبادئ النحو والبلاغة اللازمة لقراءة النص الإلهي وفهمه. بدا لي أن معظم الذين رأيتهم يفقهون في تفسير القرآن لا يعرفون ما يقولون، إذ يكثرون في خطابهم من السفسطة والإطناب والتعقيد بحيث يختلط عندهم الحابل بالنابل فلا يميزون الغث من السمين فيضعون أنفسهم في طريق مسدود لا يعرفون كيف يخرجون منه إلا بالإشارة إلى قدرة الله القادر على كل شيء وإرادته المطلقة. ويتنافس هؤلاء العلماء على الاستشهاد بأقوال الأساتذة الكبار والتشبث بحججهم وبراهينهم وكأنهم عاجزون على الانفراد برأيهم وعقلهم والتفكير المستقل، ولذلك يستحيل إجراء نقاش منطقي معهم فتجدهم متمسكين بأقوال أساتذتهم وما جاء في كتبهم، حيث أنهم يعتبرونها أدلة قاطعة لا تدحض وإن حاولت أن تقدم لهم آراء أخرى للبحث فيها.

رجال الدين:

ولما كان خيرة علماء المدينة يختلفون إلى منزلي فأتيح لي متابعة مناظراتهم العقيمة المزعجة التي لا تنتهي أبدا. وكنت في أول الأمر ألجأ إلى مكانتي المرتفعة عندهم لإجبارهم على وضع حد لمناقشاتهم العقيمة ولكني اعتزمت فيما بعد إثارة الشكوك في سريرتهم ودفعهم إلى إعادة

النظر في أسفار أساتذتهم، ولم تصعب علي المهمة فسرعان ما فتحت لهم آفاقا جديدة كانت مسدودة في السابق نتيجة لانغلاقهم الفكري. ورسمت خطة لتحقيق مآربي تمثلت في مناقشتهم والإغداق عليهم بالعلل المفحمة وعندما كانوا يجدون أنفسهم واجمين لا يعرفون ما يردون يخرجون كتبهم ويقرؤون علي المقاطع التي يقولون إنها تدعم حججهم. عندئذ أسألهم أنا:

"من كتب هذا؟

فلان بن علان.

ومن فلان هذا؟

رجل كسائر الرجال.

فمن الآن فصاعدا وعملا بإقراركم ذاته فإني لن أتمسك به إذا بدا لي أن كلامه غير مبرر، بل سأعرض عنه إن رأيته ينحرف عن الحق والمنطق ويستفيض في السفسطة".

وقعت عليهم طريقتي الجديدة في الجدال وقع الصاعقة في أول الأمر ثم غدوا يتعجبون من أمري يمعنون النظر فيّ، ولم يمض وقت طويل حتى عودتهم على التفكير والتعقل، وهما دعامتان خلت تربيتهم عنهما، فأصبحوا يكفون بالتدريج عن تكرار حججهم البالية الغبية، إلا أني لاحظت في آخر المطاف أنهم دأبوا على تقليد جديد لم يقل سوءا عن عاداتهم السابقة، وهو أنهم بدؤوا يعولون على آرائي والتعلل بها وكما أنهم قد بدلوا القالب وليس القلب، أي إنهم اتخذوني مرجعا مكان مراجعهم السابقة! وبذلت جهدي من أجل إقناعهم بعدم التعلل "بأن علي باي قد رأى مثل هذا الرأي" وإنما ألححت على ضرورة التمسك بالمنطق والرأي الشخصي والاجتهاد الفكري من أجل تبيان الحق. أخيرا أصبت قدرا كبيرا من النجاح في مهامي هذه وأفتخر بأن إنجازي يمثل بذرة قد تثمر ثمارها الكثيرة في عقول هؤلاء الناس، سواء أكان في الأمد القريب أو الطويل.

العلوم:

إن دراسات الهندسة عندهم معتمدة على كتابات اقليديس، وقد أروني مجلدات عثاء ذات صفحات كبيرة لا أخال أحدا قادرا على قراءتها ولا نسخها. أما علم التكوين- الخلق فمأخوذ عن النظريات الواردة في القرآن وهي مأخوذة بدورها عن الأسفار الخمسة في الكتاب المقدس. الكوزموغرافيا تعود إلى طولوميوس في حين يقتصر علم الفلك على بعض المعلومات الضحلة المتعلقة بكيفية توقيت الساعة الشمسية بقطع اسطرلاب بدائية جدا. من الرياضيات لا يفقهون سوى حل عدد يسير من المسائل ولا يدرسون الجغرافيا إطلاقا وتوقفت الفيزياء عند كتابات أرسطو ولا يلقون لها بالا، بينما تعد الميتافيزيا المعترك الرئيسي الذي يتدربون فيه فيكترث لها علماؤهم اكتراثا كبيرا. ولا أثر عندهم لعلم الكيمياء الحديث، وإن كانوا يعرفون شيئا عن الكيمياء القديمة كما يدل على ذلك وجود رهط من الخيمائيين. إن الدين الإسلامي وتعليماته بشأن النجاسة واختلاط الجنسين والتعامل مع الجثث يمنع علم التشريح بتاتا، أما الطب فيدرسون فقط عددا من المسائل التجريبية ويجهلون وجود مشاهير العلماء القدماء في حين تتميز الجراحة بالقسوة والفظاظة والشعوذة. التاريخ الطبيعي معرض للشوائب نفسها التي تحول دون تطور علم التشريح، ومن المعروف أن الإسلام يحرم التماثيل والرسوم التي تصور الكائنات. ومن المعروف أيضا أن الرزانة الإسلامية تحصر الموسيقى في النساء والطبقات الاجتماعية الأكثر دناءة، أي لا مبرر لاعتبارها من الفنون الجميلة ولا وسيلة من وسائل الترفيه والتسلية الرفيعة.

ويختلط عندهم علم الفلك بالتنجيم وإذا صادفوا واحدا يحدق في السماء لمعرفة الساعة أو اكتشاف الهلال عدوه منجما يستطيع التكهن بأقدار السلطان وأعوانه ومستقبل السلطنة بأسرها. ولديهم كتب كثيرة تبحث في التنجيم إذ يحظى الأخير في نظرهم بمزايا عدة كالنفوذ إلى البلاط والتقرب إلى أولي الأمر، وذلك نظرا لتأثير المنجمين في شؤون

البلاط والخواص والعوام. وبما أني قد أشهرت الحرب على التنجيم والممارسات الكيماوية القديمة الأسطورية حاولت أثناء حواراتي مع المعارف أن أظهر قلة شأنها وبلادتها، وكتب لي التوفيق جزئيا، فزرعت في البعض بذور التشكيك فيما أقنعت البعض الآخر بعدم فائدة المنجمين والخيمائيين المشعوذين.

لقد تبين لي بوضوح التباس الأمر عندهم وعدم تفريقهم بين علم الفلك والتنجيم. في مناسبة طلب مني رئيس الفلكيين في المدينة أن أخبره بطول وعرض جميع الكواكب في اليوم الأول من السنة بغية التكهن بالأحداث التي ستقع خلالها وهل ستكون سنة خير أم شر، ولكني رفضت هذا الطلب قائلا ألا سبيل لاختلاط علم الفلك الإلهي بشعوذة المنجمين الحقيرة، وأثبت له أن طرق تحديد بداية السنة بشكل اعتباطي لا علاقة لها بالطبيعة، ثم أنهيت خطابي متحججا بأن القرآن نفسه يحرم التنجيم، واتفق أن ساند هذا التحريم كثير من علماء فاس مما جعلهم يعلنونني عدوا لهم. حيث أن هذا الجدال حضره الكثير ولم يعقبه تكهن المنجمين المعتاد فتكلفت أنا بتحديد الأيام التي سيظهر فيها الهلال وأوقات الكسوف والخسوف وغيرهما من الظواهر المستحيلة على هؤلاء المنجمين الدجالين، ومثل هذا الإجراء له أهمية قصوى لإعداد التقويم الإسلامي وتحديد أوقات الصلاة وبداية الأشهر القمرية والأعياد. وحملت دقتي في حساب هذه الأمور المواطنين على استصغار هؤلاء المنجمين والاستخفاف بهم ولم يخل معسكر المنجمين ذاته من المرتدين والمعلنين عن التوبة، إلا أن هناك قسما آخر تمسك بعقيدته السقيمة البالية وإن كتموها وسكتوا عنها مؤقتا على أمل أن يحل الفرج بعد الشدة ويعيدهم الشعب الساذج إلى مكانتهم السامية السابقة.

لا تخلو السلطنة من مؤرخين وكُتاب يبحثون في أحداث البلاد ولكن كتاباتهم لا يقرؤها سوى قلة قليلة، ولا علم لهم بتاريخ الشعوب الأخرى. اللغة ودراساتها متدهورة نتيجة لافتقارهم إلى المطابع وشوائب أبجديتهم

التي تدفعهم باستمرار إلى ارتكاب الأخطاء الكتابية وتشبيه بعض الأحرف بالبعض الآخر، ويساعد هذا الخلل في القضاء على ما تبقى لهم من معرفة إذ يصعب عليهم قراءة ما كتبه الآخرون فالوحيد القادر على تأويل هذا المستند أو ذلك الكتاب هو مؤلفه نفسه. إن هذا الواقع يبين لنا سبب إخفاق المستشرق المسيحي الهولندي الشهير يعقوب غوليو في فهم اللغة العربية الشائعة هنا وهو ما أجبره على استخدام ترجمان. إن نقصان لغتهم وأبجديتهم يكرههم على التلاوة بالتجويد أو الغناء مما يشوش عليهم معنى الجمل التي لا تتمايز فيما بينها بالقواعد الإنشائية أو علامات الترقيم وإنما بالنوطة والانغام حيث أن استخدام هذه الطريقة يسمح للقارئ إدراك معنى الكلمات المكتوبة. وإن صادفت واحدا يتلو القرآن أو غيره بسرعة فائقة فلأنه حفظه عن ظهر قلب. لا تظنوني ألقي كلامي هذا على عواهنه فقد بينت الأمر مرات عديدة، إذ طلبت فيها من القارئ التوقف ورفع البصر عن النص ثم الاستئناف وإذا به عاجز لا يعرف أين وقفته. وهذا دليل قاطع على أنهم يقرؤون كالببغاء ولا يستخدمون الكتاب الذي نصب عيونهم سوى للتبجح وادعاء ارتفاع الشأن.

ما تقدم نظرة عامة على أوضاع العلم والمعرفة في مدينة فاس، وإن جازت المقارنة فإني أعدها أثينا إفريقيا لاشتمالها على مثل هذا العدد الهائل من العلماء والدارسين ومن يدعي العلم والمدارس التي يتجمع في كثير منها ألفا طالب في آن واحد.

اليهود:

يقطن في المدينة زهاء ألفي عائلة يهودية تتمركز في الملاح الواقع في ضواحي فاس الجديدة. إن حالتهم تبعث على الرثاء، يعانون ازدراء السكان الآخرين ويمنع عليهم دخول المدينة إن لم يقصدوها حفاة. وإذا التقوا في حارتهم بأدنى الجنود أو أنذل مماليك الديوان الملكي فإنهم مجبرون على نزع نعالهم. ومع وضعهم السيئ والمعاملة الدنيئة التي

يحصهم بها المسلمون فإني رأيت يهوديات يلبسن ملابس فاخرة ويتجملن بالزينة، وكذلك يهودا يدل مظهرهم على وضعهم المالي اليسير. لم ألاحظ هذا الرخاء لدى يهود طنجة مما يؤكد على أن أحوالهم في فاس أحسن منها في طنجة. توجد في حارتهم بعض المعابد وأسواق، وجلهم إما حرفيون أو تجار.

المصانع والأطعمة:

تنتج مصانع فاس حوائك الصوف وأحزمة ومناديل من الحرير وأخفافا يبرعون في تطريزها بالجلد، وقلانس حمراء من اللبد، وأقمشة من الكتان وفخارا خشنا وأسلحة وأحزمة من الجلد، وسجادا جيد الصنع استحسنته على السجاد التركي لطراوته وإن كان دونه في الرسم. ويكثر صناع الفضة والذهب إلا أن المعتقدات التي تؤثم التجمل بهما واستبداد الحكام مما يحمل الناس على عدم إظهار بذخ زائد، ويترتب على ذلك ألا يكون لديهم حافز لرعاية الفنون، وبالتالي تتخلف صناعتهم عن الأوروبية إلا في مجالات محدودة كصناعة الجلد والسجاد والحائك الذي يصنعونه رقيقا رقة الشف، ويحسنون كذلك صناعة الشمع والأسلحة وبرادع الخيل.

الأطعمة كثيرة وجيدة في فاس، ويشكل الكسكس الوجبة الرئيسية عند العامة. يأكلون كذلك اللحوم بكثرة على خلاف البقول والخضار. ويفضلون اللحوم الدسمة الغنية بالشحم ويتناولونها مع جرعات كبيرة من الماء وهو ما يؤدي إلى أمراض شتى غير أن الجو النقي يخفف من آثارها ويساعد في الحفاظ على الصحة. وتنتج هذه البلاد كميات هائلة من نبات مخدر يدعونه "الكيف"، وينمو في فصل الربيع، ولذلك لم يتسن لي رؤيته إلا يابسا أو مسحوقا. ويضعونه في وعاء من الطين بكثير من السمن ويغلونه على النار لمدة اثنتي عشر ساعة ثم يصفون الخلاصة فتستعمل لتتبيل المأكولات أو لإعداد الحلويات، ويستخدمونه كذلك على شكل حبوب إذ أن مفعوله القوي لا يزول مهما اختلفت طرق استعماله،

وهناك من يدخن أوراق هذا النبات أيضا. وأكّد لي بعضهم أنه ليس مخدرا وإنما يثير الأفكار الجميلة والخيال السعيد. مع ذلك، لا بد من الإقرار بأني لم تغرني فكرة تذوقه. ولم أر أثناء مكوثي في فاس ووافق فصل الشتاء فاكهة تذكر غير البرتقال والليمون الحلو. إن التمور وأنواعها المختلفة تستورد من الجنوب أو تفلت، ويؤثرون لحم الخروف على لحم البقر والثور، وأسواقها مليئة بالدجاج بحيث أن دستة منها لا تكلف سوى أربعة أو خمسة فرنكات، أي ما يساوي عشرين رطلا من اللحم. الخبز ممتاز إلا أن الأهالي يفضلون أن يخبزوه في منازلهم، ويمكن المرء مشاهدة الأطفال الصغار المحملين بألواح عليها أرغفة يلتقطونها من المنازل ويتوجهون إلى الفرن ثم يعودون بها إلى الشارع فيوزعونها على أصحابها. ومن عادة سكان المدينة شرب اللبن إلا أني لم أستطع أن آلفه.

بدا لي الجو إبان إقامتي فيها لطيفا وشكا لي الأهالي من شدة الحرارة أيام الصيف. وذلك الشتاء أحسست بالبرد كأني في أوروبا إلا أن ميزان الحرارة لم يشر قط إلى ما دون أربع درجات على مقياس ريامور، أما الضغط الجوي فمعدله 27 بوصة تقريبا. بما أن المنطقة غنية بالعيون والمجاري فإن الجو رطب ومليء بالبخار مما حال دون أرصادي الفلكية حتى في أيام الصحو. وأحسسنا في فاس في 13 يناير بالزلزال الذي ضرب موتريل في الساحل الجنوبي الإسباني وخلف أضرار جسيمة ورُصد أيضا في مدريد. إذ بدأ في الساعة الخامسة وتسع وثلاثين دقيقة وطال عشرين ثانية وهزت ثلاثين هزة كانت أربعة قوية جدا. وعندي أن مركزه كان في مضيق جبل طارق وأن عرضه أربع درجات شمالا وجنوبا. وقبل النيزك وبعده، لم يسجل ميزان الحرارة ومقياسا الرطوبة والضغط الجوي سوى معدلات خفيفة فظل الجو مستقرا كالمعتاد. فيما يتعلق بالأثقال والمقاييس فهي كالسائرة في جميع أنحاء السلطنة وسبق وصفها عند الحديث عن مدينة تطوان.

9
الدين/ سيرة النبي/ الخلفاء الراشدون/ العبادة/ الوضوء/الصلاة

لقد كتب عن الدين الإسلامي وسيرة نبينا أدباء من جميع الأمم اتصفت مواقفهم تارة بالتقريظ وتارة أخرى بالتقريع، وكثيرا ما ترتبط نوعية استنتاجاتهم بصحة أو بطلان المصادر والمراجع المعتمد عليها. ولو كانت هذه السطور موجهة إلى المسلمين لحذفت هذا الفصل، إلا أني أردت دائما من خلال أعمالي ومؤلفاتي أن أسدي خدمة للبشرية وجميع الأمم والأديان، ولذلك ارتأيت أن أستعرض دينهم وإن بصورة لامحة، وكذلك سيرة مؤسسه الذي جر وراءه خُمسا من سكان المعمورة وربما تمثل الهدف الرئيسي لمقالي هذا في إعفاء القارئ من البحث عن هذه المعلومات في كتب التاريخ. فإليكم هذه اللمحة[5].

ولد محمد الرجل العظيم في مكة في العاشر من ربيع الأول السنة 6163 حسب تقويمنا المسلم أو السنة 578 بعد الميلاد. وحين توفي عنه والداه وهو صبي حديث العهد تكفل به عمه وسرعان ما أثار حسن سلوكه إعجاب مواطنيه ومحبتهم له، وسخرت له هذه السمعة الجيدة وظيفة عند الأرملة الغنية خديجة التي فتنت بوجهه الوسيم ولم تلبث أن تزوجته. وبما أن محمدا كان ينتقل بالقوافل من مكان لآخر بحكم مهنته على غرار سائر العرب فإنه تعرف على كل الأعراق والأقوام القاطنة قرب بلده، وبفضل هذه الأسفار والمعرفة التي توفرت عنده نتيجة لها وعلما بأنه كان رجلا

[5] يهم القارئ العربي أن يطالع لمحة دومينغو باديا عن الإسلام للاطلاع على الموقف العام السائد لدى المثقفين الأوروبيين إزاء الإسلام في القرن التاسع عشر.

ذكيا نبيها ذا موهبة فإنه أصبح مع مرور الزمن على أهبة الاستعداد لركوب أكبر المشاريع. وظهرت سورة القرآن الأولى عندما بلغت سنه الأربعين عاما، ويثير موضوع الإنزال عددا من الأسئلة. هل أبلغه إياها ملاك الرب؟ إن المسلمين يؤكدون ذلك إلا أن أصحاب الأديان الأخرى ينكرونه. هل جاء القرآن وليدا لمنطقه العبقري؟ هنا سيجيب المؤمنون الأوفياء بالإيجاب والكفار بالسلب. مهما يكن من أمر، ليس هذا المجال المناسب للإجابة عن مثل هذه المسائل.

المهم أن هذا الرجل العظيم الشأن المرفوع إلى مكانة الأنبياء أسرّ بآيات الوحي الأولى إلى أحبائه المقربين فآمنوا بكلماته. ثم أعلن عنها في اجتماع لأعيان قبيلته قريش، وهي أشرف قبائل مكة، ولكن ويا لسوء الحظ لم ينعم الكل بنعمة الإيمان فانقسم أكثر أقربائه قربا فيما بينهم. من جهة، رحبت به فرقة من المكيين لأنهم كانوا وثنيين فبالتالي أبهرتهم فكرة التوحيد السامية وقدرة الإله القادر على كل شيء، خالق الكون وصانع نظامه الرائع التنسيق. ولكن في الوقت ذاته كانت الكعبة حافلة بالأصنام المعبودة من الزوار الوافدين من المناطق القريبة، وكان هذا المعبد يدر بالمال الوفير على بني قريش المشرفين عليه، ولذلك خاف قسم منهم أن يؤدي انتشار الدين الجديد إلى انقطاع رزقهم وباعهم الطويل فسعوا جاهدين إلى الحفاظ على عبودية الأوثان والتصدي لأي نزعة جديدة تعارضها. وما إن راح النبي يبشر بالعقيدة الجديدة لدى الناس حتى تجمع حوله عدد كبير من الأتباع، وتألب بنو قريش عليه فتعهدوا تصفيته مما اضطر النبي إلى مغادرة مكة سرا في جنح الليل للافلات من مؤامرة دبروها لقتله، وخرج منها برفقة رجلين اثنين هما أبو بكر و شاب وثني اسمه عبد الله. وتتفتح بهذه الليلة الشهيرة تقويم المسلمين الذي يسميه العرب الهجرة، أي الفرار ويوافق العام 631 بعد ميلاد المسيح. وانتقل النبي إلى يثرب حيث كانت عقيدته قد استقبلت استقبالا حارا، وهناك

انضم إليه أخلص مريديه فاستقر به المقام وراح يعد جيشا لـدعم نبوتـه بالسلاح، ولم يمض وقت طويل حتى تكللت جهوده بالنجاح بعـون إلـه موسى ويسوع وشارلز التاسع واينوثينثيو الثالث واونيل وبيسارّو. وبعـد سلسلة من المعارك أخضع إله الجيوش العظيم مدينة مكة لسـيادة النبـي فدخلها منتصرا في يوم الجمعة الموافق للعشرين من شهر رمضان العـام ثمانية للهجرة (الموافق للثاني والعشرين من يناير من العام 639) وأسقط كل الأصنام المنصوبة فيها وطهرها وخلصها من هذه الممارسات الدنيئة، وأعاد إلى المعبد وظيفته الأصلية، أي عبادة إله واحد لا شريك له. فـي أعقاب استيلائه على مكة بسط محمد عقيدتـه وسـلطته علـى البلـدان المجاورة دون أن ينقطع عنه الوحي، إذ ظلت الآيـات تنـزل عليـه إذا استلزمت الظروف ذلك، وبهذه الطريقة توسع دين الإسلام بقيادة النبـي، وعلى هذا المنوال استمرت الأمور إلى تاريخ وفاته في المدينة في يـوم من أيام الاثنين من شهر صفر عن عمر يناهز ثلاثا وستين سنة ووقع في 641 للميلاد. ووري جثمانه الثرى في قبر حفر فـي سـاحة داره ولـم يوضع عليه لحد أو ضريح، وتحولت داره لاحقا إلى مزار.

الخلفاء الراشدون:

لأنه لم يخلف ولداً ذكرا ولم يحدد سبل خلافته فإنه أثير نقاش بـين أتباعه بشأن من يحل محله ويشغل عرشه الشاغر، وأطلق على من جـاء بعده في الحكم تسمية "خلفاء"، أي من خلف النبي، وبعد الخلفاء الراشدين الأربعة، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ويعدون أصحاب الخلافة الكونية الوحيدة، وكّلت السلطة إلى أسر وسلالات متعددة برزت منها دولة بنـي عباس وهم أشراف منحدرون من عم النبي العباس، وتعود شـهرة بنـي عباس إلى طول أمدهم في الحكم ورعاية عدد من خلفائهم للفنون والعلوم. وتوسعت رقعة الإسلام أثناء خلافتهم توسعا عجيبا فامتد من حدود الصين

شرقا حتى مضيق جبل طارق غربا بصورة لا مثيل لها في تاريخ انتشار الأديان الأخرى. مع هذه المسيرة البراقة فإن الدين الإسلام تضرر من جراء فتن أدت إلى انقسامات في صفوفه ما زالت تفرق بينهم. ونقض الفُرس شرعية الخلفاء الثلاثة الأوائل اعتقادا منهم أن هؤلاء الثلاثة لم يكونوا أهلا بالحكم، ولم يسلّم الفرس إلا بخلافة علي بن أبي طالب الذي يعدونه خليفة محمد الحقيقي، وقد مهد هذا الاختلاف الطريق أمام اقتتال دام، وتعتبر طائفة من المسلمين الفرس بمثابة الكفار. وتعرضت الأمة الإسلامية لاحقا لوابل من المتنبئين والخلفاء الدجالين العاكفين على تقطيع هذه العبادة السامية بالسيف وتكدير عيش المؤمنين. بالجملة، آل طمع أصحاب السيف إلى تشتت هذه الدولة العظيمة الجبارة فانقسمت إلى دويلات يحكمها شرذمة من القادة أشهروا استقلالهم عن الخلافة العباسية التي لم يطل بها الزمن حتى زالت عن الوجود.

العبادة:

إن الدين الإسلامي بسيط للغاية، وليس له طقوس دينية معقدة، ولا أسرار مقدسة أو وسطاء (قساوسة) بين الرب والمؤمن، ولا أثر في معابدهم للهياكل والتماثيل والزينة والصور. في نظر المسلمين فإن الله لا يُرى ويقع هيكله في قلب الإنسان ويُعد المؤمن حبرا أعظم بذاته. وقد صرح النبي بمقومات دينه الأساسية على النحو التالي: "بني الإسلام على خمس وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأداء الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام". مع هذه البساطة فليس من المرجح أن يكون في العالم معتقد يزخر بالمؤولين والمفسرين والباحثين كالمعتقد الإسلامي. وتنقسم مذاهبه إلى أربعة هي الحنفي والمالكي والحنبلي والشافعي، وأسماؤها كافة منسوبة إلى أسم الفقيه الذي أسسها. وينتهج الأتراك بالمذهب الأول فيما يتبع المغاربة وغيرهم من

سكان إفريقيا الغربية الثاني. أما المذهبين الباقيين فأصحابهما قبائل وأقوام شتى تقطن الجزيرة العربية والأصقاع الآسيوية. وتتوافق المذاهب الأربعة في أساسها العقائدي وينحصر الاختلاف فيما بينها في الطقوس وممارسة الشرائع الدينية، فعلى سبيل المثال فإن الحنفيين يشبكون الأذرع عند وقوفهم للصلاة في حين أن المالكيين يلصقونها بجنبهم. وفي ما يخص الوضوء، يبدأ الأوائل بأطراف الأصابع ثم ينتقلون إلى المرافق بينما يتمسك الآخرون بالترتيب المعاكس، أي أولا المرفقين ثم أصابع اليد.

الوضوء:

يؤمن المسلم بأن المثول أمام الله ونيل رضاه يتطلبان النظافة والطهارة الكاملتين وهو ما يفسر النص على الوضوء ويتمثل في غسل الأيدي ثلاث مرات على التوالي، وكذلك الفم والأنف والوجه والأذرع والرأس والآذان والقفا والأقدام. ولدينا أيضا الوضوء العام الذي يوجب غسل الجسد بالكامل من الرأس حتى أخمص القدمين ويتم قبيل صلاة الجمعة وبعد القيام ببعض الأعمال كمعاشرة المرأة وما شابه. وإن لم يتوفر الماء جاز التوضؤ بالتراب أو الرمل وهي الطريقة المفضلة في الصحراء. ويجوز كذلك أن توضع اليدان على حجر ثم تفُركا وهو الأسلوب المتبع عند البحارة أثناء رحلاتهم، وذلك لأن مياه البحر تعتبر غير طاهرة، وبالتالي فهي لا تلبي الغرض.

الصلاة:

أما الصلاة فيجب على كل مسلم إقامتها خمس مرات في اليوم: الأولى عند الفجر وتدعى الصبح، والثانية بعد الظهر وعلامتها أن تفرز عصا تنصب محاذيا للشمس ظلا يساوي ربع طولها، وتقع الثالثة عندما

يتوافق ظل العصا مع طولها وتدعى العصر، وتتم الرابعة بعد غروب الشمس مباشرة ويسمونها المغرب، في حين تجري الخامسة عند آخر لحظة الشفق الأحمر، أي إذا حلت الشمس محلا يعادل ثماني عشرة درجة تحت خط السماء من جهة الغرب واسمها العشاء. وتنقسم الصلاة إلى الدعاء وبضعة ركعات والسلام، وهناك سبع طرق لأداء الركعة لكل واحد منها موضع خاص[6]. وبعد هذه الصلوات الواجبة تؤخذ المسبحة وتدفع الخرزة الأولى ويقال سبحان الله، ثم تدفع الخرزة الثانية ويقال الحمد لله، ثم الثالثة ويقال الله أكبر، وهكذا إلى إتمام تسع وتسعين تسبيحا وهو عدد الخرزات المكونة للمسبحة الإسلامية. وإن كان من غير الجائز أن يطلب المؤمن من الله أيا من خيرات هذا العالم فالمألوف أن تُضم اليدان فرفعهما إلى الأعلى والابتهال ثم تمرير اليد على اللحية والقول "الحمد لله"، وبمثل هذا الدعاء تختتم الصلاة.

من المعهود أن يدخل المصلون المسجد يوم الجمعة قبل الإمام بنصف ساعة أو أكثر، ويؤدون صلاة قصيرة فيها ركعتان فقط ثم يجلسون ويقيمون صلوات أخرى يطلقونها عن ظهر قلب. ومناسبات معينة يقرأون كتابا من الكتب المقدسة خصوصا كتاب "دلائل الخيرات"[7]. ويلقي الإمام قبل صلاة الجمعة خطبته على الحضور.

يتألف القرآن من سور أو فصول تتجمع في ثلاثين حزبا، وخصصت بحكم العادة سور الحزب الأخير للإدلاء بها في الصلوات المفروضة بعد سورة الفاتحة مباشرة. وعلى المصلي أن يختار مكانا طاهرا وإن لم توفر لديه حصيرة أو سجاد فيمكنه الجلوس على الحائك أو

---

[6] أدرج المؤلف هنا الصلوات التي ترافق كل ركعة ولكننا استغنينا عنها لضمان سلاسة الحديث وأيضا لأنها لا تحتوي على ما يثير الاهتمام بالنسبة للقارئ العربي.

[7] من تأليف أبي بكر بن سليمان الجزولي.

الرداء أو العمامة. وإذا التقى بعض المسلمين للصلاة فاضطلع أحدهم بدور الإمام فتقدمهم ويؤم الصلاة ويتبعه المصلون في أفعاله وأقواله، وإذا كثر المصلون اصطفوا وراء الإمام كما يفعلون في المسجد. وهناك صلوات إضافية يؤديها جميع المسلمين كالفجر السابق للصبح، والشفع والوتر بعد العشاء، ويمكن المسلم أن يصلي الصلوات التي يريدها إلا في الفترة الممتدة من الشروق حتى الظهر ومن العصر لغاية المغرب، وتعتبر هذه الصلوات أجرا زائدا للمسلم إلا أنها لا تعفيه من إتمام الصلوات الخمس. وتتكون صلاة الفجر وكذلك الصبح من ركعتين، والظهر والعصر من أربع ركعات، والمغرب من ثلاث، والعشاء من أربع، والشفع والوتر من ثلاث. وتتلى الفاتحة والسور التي تليها بصوت عال في الركعتين الأوليين في الصبح والمغرب والعشاء والشفع والوتر، بينما تُقرأ بصوت خفيض في الظهر والعصر والصلوات الاختيارية الإضافية. أما الدعاء من نوع "الله أكبر" و"سمع الله" فيتلى دائما بصوت مرتفع. وهناك صلوات خاصة بالمرضى والموتى والرحلات والجفاف والخسوف والكسوف والقتال وليالي رمضان الثلاثين والأعياد الدينية والكعبة، وعندنا أخيرا الصلوات المفروضة والنافلة.

10
الزكاة/ الصوم/ الحج/ التقويم الإسلامي والأعياد/ المصلى/ رجال الدين المسلمون/ تقشف الإسلام/الخرافات

بعد الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأداء الصلوات الخمس وجب على المسلم إيتاء الزكاة إن قدر عليها. وللزكاة أشكال كالعشر وهو مقدار 2,5 في المائة سنويا من جميع الأملاك والأموال ما عدا الغنم الذي يشكل واحدا في المائة. ويجب توزيع هذه الصدقة على الفقراء والحق أن هذه النسبة يزاد عليها بالعادة لأن المؤمن المشفق على حالة المعدمين لا يتردد في تقديم مبلغ إضافي. وحرصت أنا على توزيع الحسنات بالدوام على جماعة معينة من الأشقياء والمشوهين، علاوة على إعطاء صدقات عرضية هنا وهناك، وأعتقد أني أديت واجبي تجاههم. وثم صدقة أخرى تعطى في أول شهر شوال الموافق للعيد الصغير، وهي نصف مقدار من الدقيق أو القمح أو مقدار كامل من الشعير والتمر، ويجري تسليمها قبل طلوع الشمس. وعلى أرباب العائلات التي لها بيت أن يعطي مبلغا مماثلا عن كل فرد ويمكن تسليمها نقدا أو سلعا. ويمنح في أول أيام العيد الكبير الموافق للعاشر من ذي الحجة جزء من ذبيحة العيد، وهذه الصدقة واجبة على كل مسلم ميسر. وبعد ذبح الكبش أو العجل أو الجمل بين طلوع الشمس والظهر وأكل قسم منه يقوم المسلم بتوزيع ما يزيد عن ثلث الذبيحة على المساكين. ويخصص جلد الحيوان لصاحبه أو يعطى أيضا للفقراء. وتجري هذه العادة كذلك في مناسبات مهمة كالدعاء لشفاء المريض أو قبيل القيام برحلة طويلة أو ما شابه.

زد على كل ذلك التبرعات أو الأعمال الحسنة والمكارم وتتمثل في

إنشاء أبنية ينتفع بها المجتمع كالمساجد والمستشفيات والنواعير والمدارس وما إلى ذلك. وإذا تبرع مسلم بمبلغ أو وقف مُلكْ فإن أسلافه لا ملكية لهم فيه إلا أنهم يحتفظون ببعض الحقوق. وسعيت عقب ما غادرت الديار المسيحية إلى اكتساب هذه النعمة فأمرت بإنشاء صهريج للماء الصالح للشرب في جامع طنجة الذي كان يفتقر إليه. تعد الصدقات والحسنات ملزمة لجميع المسلمين علما بأن سائر الأديان تدعو لها وتنصح بها ولكنها لا تفرضها. لذلك، يحظر على المسلم الجلوس إلى السفرة إن لم يكن قد دعا الحضور إليها، بصرف النظر عن ديانتهم وحالتهم، ولا يستطيع صرف السائل أو المتوسل دون إسعافه إن استطاع، والأمر نفسه ينسحب على ابن السبيل ومراعاتهم لأصول حسن الضيافة.

الصوم:

صوم شهر رمضان هو الركن الرابع، ويكف فيه المؤمن عن الطعام والشراب والتدخين وحتى شم رائحة العطور والفواكه بالإضافة إلى الإمساك عن أي شهوة وذلك ابتداء من طلوع الفجر إلى المغرب. إن الصيام واجب على الكل رجالا ونساء ما عدا المرضى والمسافرين والحوامل والحوائض والمرضعات والأحداث والشيوخ الضعاف ومن قد تتعرض صحته للخطر إن صام، والمجانين. وإذا انقطعت فترة الصيام بسبب النسيان أو الغفلة أو السفر وجب التعويض عن هذا الانقطاع أياما مماثلة يحددها الصائم في أي وقت يشاء. وفي حال أفطر الصائم نهارا في رمضان فعليه أن يصوم واحدا وسبعين يوما. ومن المغرب إلى صلاة الصبح أمكن الطعام والشرب والتدخين والتسلية أنى شاء أثناء الليل غير أن أهل الورع والتقوى يفضل الصلاة في البيت أو في المسجد وتلاوة القرآن والقيام بأعمال الحسنى والالتقاء بأمثالهم في مجالس تسودها العفة والخشوع. وتتوقف القطيعة والمماحكات إبان هذا الشهر، وتلم العائلات

شملها، ويتلقى المستجدي حسنات وصدقات لا ينعم بها في الأشهر الأخرى.

تفتح المساجد أبوابها طوال الليل حيث يقصدها الناس باستمرار، والأمر نفسه ينطبق على الدكاكين التي يدخلها الإناث والذكور في حين لا ترى في المقاهي غير الرجال وعلى إماراتهم سمات الرزانة التي تلازم المسلم. إن الصائم يتريث بنفاذ الصبر أذان المغرب، فعندما يسمع صوت المؤذن من مئذنته ينشط الجميع ويفتتح الإفطار بنوع من العصيدة المصنوعة من الدقيق والعسل أو السكر أو غيرهما من الأطعمة المغذية ثم يصلون وينامون. وهناك من يتناول الطعام ثلاث مرات أو أربع أثناء الليل إلا أني كنت أكتفي بشرب الشاي في الليل ثم تناول العصيدة أو قليلا من الكسكس. ولا يتأثر الأثرياء كثيرا بصيام رمضان، إذ يمضون نهارهم خالدين للنوم تعويضا عن سهراتهم الطويلة، والحق يقال إن التغيير الوحيد بالنسبة لهم يتمثل في تقلب توقيت ملذاتهم. ولكن الأمر يختلف اختلافا كبيرا بالنسبة للعامة التي تضطر للصيام والعمل الشاق في النهار لسد الرمق. ويتمسك المسلمون بالصيام إلى درجة أن من ينتهكه طواعية ودون مبرر وأمام نظرائه يعد كافرا تنفذ فيه عقوبة الإعدام.

حيث أن الأشهر العربية قمرية وبالتالي تحدد بدايتها عند رؤية الهلال المجردة فإن المسلمين يترصدون السماء باستمرار. إنهم يتمتعون بنفاذ البصر والحساسية المرهفة والقدرة على رصد الهلال وقد دلوني في أكثر من مرة على الموقع الذي يقولون إنه موقع الهلال، ومهما أصيخ النظر لا أستطيع تحديده إلا بواسطة المنظار وفعلا كان محله كما قالوا. ويكفي للإعلان عن الشهر الجديد أن يصرح شاهدان أمام القاضي بأنهما قد ثبت لديهما الهلال. وإذا حالت الغيوم دون رؤيتها أعلن عن بدايته بعد قضاء ثلاثين يوما من الشهر السابق. أخذت على عاتقي مهمة تحديد ظهور الهلال الشهري اعتمادا على منظاري فأعددت تقويما سلمتهم إياه،

وأكسبتني دقتي في الحساب كامل ثقتهم لحد أن السلطان أمر بأن لا تتأكد بداية رمضان وختامه إلا بإشرافي. ويعلن في فاس عن أول رمضان بإطلاق النار بالبندقية من على هضبة قريبة والنفخ في الأبواق من على المآذن كافة. وينبأ بآخره وانطلاق العيد بالطريقة نفسها ولكنهم يطلقون الرصاص هذه المرة من الأسطح... ويل لعشاق الهدوء والطمأنينة ولاسيما المرضى المساكين العزل أمام جلبة الأسلحة النارية وصياح الأهالي الفرحين! وعلى الرغم من سمة الاتزان والورع الملازمة لشهر رمضان فإن نسبة عالية من العامة يبدو وكأن مسا أصابها، فهناك من يفقد عقله من كثرة قراءة القرآن والأسفار المقدسة الأخرى أو من شدة الصوم والضعف الناتج عنه، كما أن كلهم يتأثر تأثرا بالغا بصوت الأبواق المزعج الجنائزي التي يطلقونها في ساعات مختلفة من النهار والليل مما يثير توترا لدى السكان يؤدي إلى مناوشات عدة.

ليلة السابع والعشرين من الشهر يتناوب العلماء قراءة القرآن كاملا في المساجد أمام الناس، وتتخلل هذه القراءة بين الفينة والأخرى صلوات عدة. وتنار أيضا في هذه الليلة الأضواء على الأسطح وفي الشوارع العاجة بالمارة. في ليلة كهذه ترى النساء ذاهبات أفواجا إلى المساجد التي تحدث فيها جماعة لا تحصى من الأطفال والصبيان والنساء والأولياء الصالحين والحمقى والمجانين ضوضاء جهنمية تزاحم أصوات تلاوة القرآن وقراءة الصلوات. ويتكلف عمال المساجد التجوال في الشوارع وطرق أبواب المنازل بسلك كبير لإيقاظ الأهالي ودعوتهم إلى السحور.

فريضة الحج:

أما الفريضة الإلهية الخامسة فهي الحج إلى مكة، وهو لزام على كل المسلمين مرة واحدة في حياتهم على الأقل وإن لم يقدروا لأسباب مشروعة فعليهم التفويض إلى حاج يؤدي باسمه بهذا الواجب المقدس.

والغاية هي زيارة الكعبة أو بيت الله في مكة على هضبتي الصفا والمروة الكائنتين في المدينة نفسها وجبل عرفات القريب منهما، وتجري مناسك الحج في شهر ذي الحجة، وثمة من الحجاج من يغتنم الفرصة للتنقل إلى المدينة المنورة لزيارة قبر النبي إلا أن هذه الزيارة لا تعد فريضة من الفرائض.

التقويم الإسلامي والأعياد:

حيث أن السنة العربية تتألف من اثني عشر شهرا قمريا فإنه يقل عن السنة الشمسية بمقدار أحد عشر يوما مما يعني أن تاريخ بداية شهر رمضان بالتوقيت الشمسي يتطابق كل إحدى وثلاثين سنة أو اثنتين وثلاثين سنة. وأيام الصيام هي الواحد والثاني والثالث والعاشر من محرم والخميس الأول والسابع والعشرين من رجب والسادس عشر من شعبان ورمضان بأسره وستة من أيام شوال، وفُرض كذلك الصيام في الأيام العشرة الأولى من ذي الحجة للمسلمين الذين ليسوا في الحج. أما الأعياد الرئيسية فهي المولد أو ولادة النبي في الثاني عشر من ربيع الأول، وتستغرق الاحتفالات فيها خمسة أيام وهي الفترة المفضلة لختان الصبيان، ثم الأول من شوال الموافق للعيد الصغير الذي تعطى فيه صدقة العيد الآنفة الذكر، وأخيرا العيد الكبير في العاشر من ذي الحجة ويدوم ثلاثة أيام يختلف في أولها المؤمنون إلى المصلى لأداء صلاة العيد ثم يعودون إلى الدار لذبح خروف تخليدا لتضحية إبراهيم، وتتزامن هذه المدة مع مناسك الحج في مكة. ويعتبر رمضان شهرا يفرض الصيام فيه، أما الأيام الأخرى المذكورة فهي ممارسة دينية مكتسبة.

إن الأشهر القمرية تتكون من تسعة وعشرين يوما أو ثلاثين يوما، وتضم السنة ثلاثمائة وأربعا وخمسين يوما فقط، ولذا فإنها تتقدم على الشمسية بأحد عشر يوما أو اثني عشر يوما، وقد انطلقت السنة الحالية المؤرخة في 1218 في الثالث والعشرين من أبريل من العام 1803

للميلاد. وهناك أربعة أشهر يُكره القتال فيها إلا في حالة الضرورة القصوى وهي محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة.

المصلى:

يوجد في ظاهر المدينة موقع خاص لأداء صلاة العيد يدعى المصلى، ويتجمع فيه الناس صباح أول أيام العيد قبل طلوع الشمس. وتوافق مكوثي في فاس بزيارة السلطان لحضور صلاة العيد الصغير، وفي هذا المصلى جاء العمال والقضاة والمشايخ الكبار والخواص على رأس فيالق من الخيالة فرابطوا خارج المدينة. وحُددت لغرض الصلاة مساحة مربعة في المكان المدعى المصلى، فقُصر بنسيج عريض طوله خمسة أو ستة أقدام ونصب منبر في الداخل. ودخلنا هذا المقصور زهاء ستمائة رجل فيما بقي سكان فاس وأناس وافدون من مناطق أخرى في الخارج، وأقدر عددهم بأكثر من مائتين وخمسين ألف نسمة. وبدأت الصلاة عند وصول السلطان وكلما كبّر الإمام والمؤذن كبّر معهما جمع غفير من المؤذنين كانوا منتشرين بين المصلين في الخارج فركع الجميع أمام الرب وفي مقدمتهم السلطان. إن هذه الصلاة الجماعية أجريت في أكثر المعابد بهاء وهي الطبيعة نفسها، ولا يمكن أن يشاهد المرء مئات الآلاف من المؤمنين الساجدين لربهم دون أن ينفعل. واعتلى بعد الصلاة أحد فقهاء السلطان المنبر وألقى الخطبة ثم اختتم اللقاء بصلاة قصيرة. وعندئذ خرج السلطان من المقصورة وركب خيله ومعه حاشيته وشرع بالطواف في الموقع لاستعراض جيوش الأقاليم ثم غادر المكان فانطلقت الاحتفالات وسباق الخيل والطلقات النارية وصيحات الفرح ودامت ثلاثة أيام. استرعى انتباهي طريقة الجنود الوافدين من الأقاليم في السلام على الملك إذ تقدموا من الملك على مطاياهم وهم يصطفون وفي أيديهم اليمنى بنادقهم الطويلة ثم انحنوا إلى الأمام على مقبض السرج صائحين: "الله يبارك عمر سيدنا". وكانوا بعد هذه الصيحة يعودون أدراجهم لإفساح

المجال لغيرهم. وكان رئيس كل فرقة يتقدم رجاله للاختلاء بالسلطان والتعريف بنفسه وهو من يأمر الفرسان بالتقدم أو التخلف. ورأيت على بعد مسافة قصيرة من السلطان كثيرا من فيالق الخيالة الكثيرة الرايات ومن ضمنها فرقة لعازفي القربة والطبل وصدر عنها صوت نشاز. وكان يتخلف السلطان ضباطه الكبار وعدد من الحُجاب الراجلين، وقد وقف اثنان منهم بجوار الملك لنش الذباب عنه بمنديلين من الحرير.

هذه المناسبة التي اتصفت بالبساطة وبرهنت على حسن إيمان شعب عظيم وتقواه وخشوعه، وتوّجتها عظمة هذا المعبد الطبيعي المسقوف بالسماء والكواكب تشكل مشهدا ساميا بطله مجتمع من الرجال العاكفين على إكرام إله الطبيعة المعظم.

رجال الدين المسلمون:

قلنا آنفا إن المسلمين ليس عندهم قساوسة بالمعنى الدقيق للكلمة، فهؤلاء الذين يشرفون على المساجد لا يلبسون شارات تميزهم ولا يتميزون عن عامة الناس فيتزوجون ويدفعون الضرائب. أو بقول آخر، لا أثر في الإسلام للكهنوت والرهبانية ووظيفة الوساطة بين الرب والمؤمن، ففي الدين الإسلامي كل البشر متساو أمام الباري. ولن تجد في المساجد أماكن خاصة أو ذات امتياز، والمعيار الوحيد لتقدير دنو المؤمن من الله أو بعده منه هو الفضيلة أو الرذيلة.

يترأس مستخدمي المساجد الأئمة الذين يؤمون الصلاة ويخطبون يوم الجمعة ويتلون أحيانا الأسفار المقدسة، ونلفي في المرتبة الثانية المؤذنين الذي يدعون الناس إلى الصلاة من على مآذنهم ويسعفون الإمام وقت الصلاة. ولا يتفرغ هؤلاء لهذه الوظائف التي ليست حكرا لهم وإنما يتعاطونها عندما ينتهون من عملهم اليومي، وإذا غاب الإمام أقدم المؤذن أو أي مواطن آخر على حل محله.

تقشف الإسلام:

أعياد المسلمين قليلة تقتصر على العيدين الصغير والكبير والمولد الشريف، وينشغل المسلم بمهامه المعتادة الجمعة كسائر أيام الأسبوع إلا أنه يتوقف عن العمل في الساعة الواحدة للذهاب إلى الجامع ثم يستأنفه دون أن يؤثر هذا الدوام سلبا في طباعهم وحسن عريكتهم. على النقيض تماما فإن هذا النشاط المتواصل مفيد جدا فيسمح لهم بعدم إهدار اثنين وخمسين يوما من العمل وهي المدة التي يبذرها أصحاب أديان معينة في أعيادهم الأسبوعية. ويستنبط مما سبق أن الإسلام أو ديانة محمد دين متقشف. ففعلا يعني مفرد إسلام "التخلي عن الذات من أجل الله" وعلى هذا الأساس أنشئت شعائرهم وطقوسهم. ومن سماته الرئيسية التوحيد والطهارة والصلاة والإحسان والتضحية بالصيام والحج، وهي سمات جديرة باحترام كافة الأمم والطبقات وحتى الفلاسفة المطلعين على حقيقتها عن طريق مصادر موثوق بها وليس أعمال روائيين ورحالة قليلي المعرفة. ومن شروطهم الرئيسية لاعتناق الدين الإسلامي الإيمان برسالة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء مما يعني أن اليهودي لا يمكن أن يُسلم إلا إذا اعترف برسالة عيسى المسمى روح الله وابن السيدة العذراء مريم، وهي رسالة ينص عليها القرآن. وفي نظرهم فإن الأناجيل الرائجة لدى المسيحيين تعرضت للتشويه والزيادة وينكرون استشهاد عيسى إذ يؤكد القرآن إنه ما صُلب بل رُفع إلى السماوات، ويرفضون كذلك التثليث وبالتالي وحدة الأقانيم وكون عيسى ابن الله، ولا يؤمنون بسر القربان المقدس اعتقادا منهم أن مبادئ النصارى هذه ما هي إلا ضرب من الشرك. وينفرون من عبادة التماثيل ولا يقرون بسر الاعتراف بالخطايا وغفران الذنوب.

الخرافات:

للأسف الشديد فإن الإسلام قد دخلت إليه خرافات يستنكرها المتنورون المسلمون في حين أن الطقوس وشرائع العبادة قد تغلبت على مبادئ العقيدة حيث أصبحت الأخلاق والسلوكيات تحتل مرتبة ثانوية بالقياس إلى عدد الركعات التي يركعها المؤمن يوميا، فإن زاد عليها اعتبره الكل مسلما صالحا بل وليا من الأولياء مَهما كان ضميره دنيئا وخلقه خسيسا. وسبق لي أن تعرفت على بعض الأمثلة. تعبد أضرحة الأولياء له فوائده عندما يتحول الضريح مأوى للإنسان الصالح من تجاوزات السلطة المستبدة بحكم هالة القدسية التي تنسب إلى هؤلاء الحمقى وتصون عيشهم الشقي، إلا أن هذه الأبنية تُتخذ أحيانا أخرى ملجأ لعدد كبير من المجرمين وجب تحرير المجتمع منهم في حين أن الاحترام الزائد الذي يحظى به الأولياء يتسبب في كثير من المخالفات المسيئة إلى الآداب العامة. عليه فإن التمائم والطلاسم والدجالين والمشعوذين وما شابه خير دليل على ما شاب دين محمد الطاهر من الانحرافات. مع ذلك فلا بد أن نتساءل هل هناك معتقد على وجه الأرض لم يتضرر من جراء طمع المحتالين وغباء العامة وسذاجتهم؟ على الأقل لا بد أن نسجل أننا لم نر في المغرب قطعان الرهبان الدراويش المنتشرة في تركيا.

11
شرفاء مولاي إدريس/حادثة الساعات/ السلطان ودخوله فاس/ رسالة من السلطان/ مقابلة رئيس المنجمين/ يوم في الريف/ دسائس المنجم/ انتصار علي باي/شراء جارية سوداء/التقويم/رحيل السلطان/الكسوف والخسوف

قلنا إنهم يكرمون رفات مولاي إدريس مؤسس السلطنة في زاويته في فاس حيث استقرت أيضا سلالته الملقبة بآل شرفاء مولاي إدريس، وذلك لأنها تُعد أكثر عائلات المملكة تبجيلا. ويحمل رئيس العائلة لقب المقدم أي "القديم". المقدم الحالي هو شيخ موقر اسمه الحاج إدريس، ويتولى صرف الأموال المودعة صناديق تحيط بقبر الولي مولاي إدريس، وكذلك التصرف في النذور والسلع والحبوب والمواشي التي يمنحها السكان كنوع من الضرائب، ويشرف بنفسه على توزيع هذه العطايا على شرفاء القبيلة الذين تعيش أغلبيتها على مثل هذه التبرعات، وإن كان ضمنهم من أصاب ثروة هائلة نتيجة لريع ممتلكاتهم أو معاملاتهم التجارية كما هو حال المقدم نفسه. ويبلغ تبجيل السكان لمولاي إدريس مبلغا بحيث يوجهون إليه الدعاوى بدلا من توجيهها إلى الرب القادر على كل شيء، وإن كان بصورة غير واعية ولا متعمدة. وكان الحاج إدريس قد علم بوصولي من مكناس إلى فاس بواسطة مراسل أوفده السلطان ونقل له أمرا باستضافتي وخدمتي في كل ما أحتاجه، وقد نفذه، إلا أنه وبحكم تقدمه في السن وعدم قدرته على الاعتماد على نفسه لم يستطع القيام على أموري الخاصة بل وُكلت المهمة إلى نجله الحاج إدريس رامي. لذلك ومن الآن فصاعدا، فكلما بدرت مني إشارة إلى

الحاج إدريس فإنها تقصد نجله، ما عدا تلك الحالات التي أود فيها أن أخص الوالد بالذكر. ويسكن الأب والابن مع عائلتيهما في دار واحدة، ويبلغ الحاج إدريس رامي سني تقريبا، وهو إنسان طيب صالح مخلص لم يلبث أن يغدو أحسن أصدقائي في المغرب، وليته دام سعيدا فطال عمره الفاضل.

في اليوم التالي لوصولي إلى فاس تلقيت زيارة وجهاء قبيلة الحاج إدريس وغيرها من قبائل المدينة، وتخللت الزيارات أسئلة لا تنتهي وتعليقات لا تحصى، وتعددت كذلك الأخبار والتقارير التي طلبوها من خدمي فعرضوهم لاستجوابات مُنهكة غايتها جمع المعلومات عني. وبعد يومين من الاستفتاء الملح بدا لي أن هؤلاء السائلين المباغتين رضوا بأجوبة رجالي فأخذوا يتهافتون على تقبيل لحيتي، في حين طلب مني أكثرهم مكانة أن أعتبرهم أصدقاء لي. وبما أن آل إدريس كانوا سعداء جدا بمكوثي لديهم فأكرموني إكراما كبيرا من أجل إسعادي ودفعي إلى البقاء، غير أني فضلت النزول في دار خاصة بي وهي الحالة الوحيدة التي أرضى بها، ولذلك اضطروا لتجهيز مسكن انتقلت إليه بعد أيام معدودة، وكانت دارا جميلة للغاية. واتفق أن الأمير مولاي عبد السلام كان موجودا في فاس يوم انتقالي إلى الدار الجديدة فمررت به، وأغدق عليَّ بالإكرام والإحسان، واستوعدني أن أزوره كل يوم وهكذا فعلت.

إن الاستبداد المهيمن منذ أمد طويل على أوضاع المملكة قد أجبر سكانها على إخفاء أموالهم والتقشف في الملبس والأثاث، فباستثناء السلطان وآل إدريس، فإن الباقي يمتنع امتناعا قاطعا عن التظاهر بالبذخ والأبّهة. ولاحظ أصدقائي نزعتي إلى مخالفة الأعراف السائدة في البلاد في هذا الأساس فبما أني كنت متعودا على الحياة المترفة على الطريقة الشرقية فلم أستطع التقشف، وأخذ هؤلاء يخافون عليَّ ويشددون على تعديل سلوكي، غير أني تمسكت بنمط حياتي، وأخيرا ألفوه بل لم يعدم

من احتذى بي. وكانت المجالس التي أنظمها في البيت تـزداد حضـورا يوما بعد يوم فأضحت المساهمة فيها شرفا بالنسـبة للأعيـان والشـرفاء والعلماء.

حادثة الساعة:

بعد نزولي في فاس بأيام قليلة أخذوني إلى مسجد مـولاي إدريـس حيث دخلت حجرة جميلة مجاورة للحرم ألفيت فيها طائفة من السـاعات المختلفة الأشكال. أُخبرت بأن السلطان قد أوعز بتجهيز الحجـرة لأزاول دراساتي فيها وإجراء اللقاءات مع العلماء. وقبلت بالعرض، ولكني أكدت في الوقت ذاته على عدم استعدادي للتردد إلى المكان يوميا وهو جـواب أدهشهم على ما بدا لي. والحق أني لم أذهب إليها سـوى مـرتين فـي غضون عشرة أيام، وتلقيت فيهما زيارات لجمهور من العلمـاء تخللتهـا حوارات لا أهمية له.

في هذه الأثناء عُلم في المدينة أن السلطان كان على وشـك القـدوم فقال لي مولاي إدريس إن والده قد تلقى بعد يومين من حلولي في المدينة رسالة من السلطان يأمر فيها بتوظيفي الأشراف على توقيـت سـاعات مولاي إدريس مقابل أجر مقتطع من رصيد المسـجد. ومـا إن سـمعت الطلب حتى استشطت غضبا محتجا على مثل هذا المطلب المجحف قائلا إني لم ألتمس شيئا من أحد، بالتالي لا سبيل إلى التفويض إليّ بما لا أريد، وأقسمت أن لا تطأ قدماي حجرة الساعات وألا أعود إلى المسجد إن لـم يلتمس العذر مني. وكان مولاي إدريس المسكين يختنق بالخجل لا يعرف ما يقول سوى أنه وكل من اطلع على الأمر يوافقني الرأي، ولـذلك لـم يرغب في الاهتمام به، إلا أنهم لم يجدوا في آخـر المطـاف بـدا مـن التصريح به للسلطان الموشك على الحضور إلى المدينة خوفا من غضبه إن لم يفعلوا. وبذل الرجل وجميع الأصحاب جهدهم من أجل طمـأنينتي

وتوسلوا إليّ أن أخفف من حدة غضبي حتى أقبل بالذهاب بين الفينه والأخرى إلى زاوية مولاي إدريس، غير أني لم أنتبه إلى كلامهم وإنما ركبت حصاني وانطلقت انطلاق الصاعقة لملاقاة مولاي عبد السلام. ولما دخلت على الأخير وهو الصديق المحترم قلت له إن مثل هذا القرار سينقص من منزلتي في نظر الناس لأنها ستظن أن السلطان لم يعد يقدرني. وطلبت منه أيضا أن يُبلغ الملك شكواي، وطلب هو مني بالمقابل أن أهوّن على نفسي، مضيفا أن الأمر عائد إلى سوء في الفهم وأنه لو كان قد عرف بالأمر لما سمح لأحد بإثارة الموضوع، وأنه يعتبرني ابنا له وللسلطان نفسه، مضيفا أني حر يمكنني أن أتصرف كما أشاء. وأمضى الأمير ثلاثة أيام يقدم لي الاعتذارات في محاولة منه لإرضائي، وسرعان ما تبين لي حسن ظنه والسلطان ذاته بي، وأن القرار ربما قد صدر عن أحد الوزراء الطمّاعين الراغبين في الإساءة إليّ وإلى مقامي لدى الناس، إلا أن محاولته البائسة زادت من سمعتي ومنزلتي عند المواطنين. واحتفل أصحابي بانتصاري بصفته إنجازا فريدا من نوعه، ونال اسمي شهرة واسعة بحيث هرول جميع وجهاء المدينة إلى زيارتي في الدار فأضحت تغص بالزوار من الصباح حتى آخر المساء.

بعد هذه الحادثة بأيام أُعلن عن قدوم السلطان فركبت برفقة بعض الخدم والأعيان لمقابلته في موقع يبعد مسافة بالغة عن المدينة، وما إن رأيناه حتى لوحنا بأيدينا لنسلم عليه فرد على سلامنا بحرارة، ثم انضممنا إلى موكب الخواص وسرنا معه. ودخل السلطان القصر غير أن الموكب والجنود ومعهم الأهالي المستقبلين له توقفوا عند الباب، ثم ذهب كل واحد إلى حال سبيله. وتألف هذا الموكب من فيلق من خمسة عشر إلى عشرين خيالا يليه السلطان نفسه على متن بغلة وبجانبه خادم يحمل مظلة لحمايته من الشمس. ويجب القول بأن المظلة تُعد في المغرب رمزا شخصيا للملك وعائلته، فاستخدامها مقصور عليه وأبنائه وأخوته، ومع ذلك فإني حظيت

بنعمة حملها. وجاء بعد السلطان مباشرة ثمانية أو عشرة من الخدم ثم الوزير السلوي بصحبة خادم يسير على الأقدام، وأخيرا طائفة من المستخدمين وحوالي ألف جندي أبيض وزنجي يمتطون الخيل وفي أيديهم بنادق طويلة. وكان هؤلاء الجنود يشكلون الصفوف وكأنهم على أهبة الاستعداد لخوض القتال، ورأيت في وسطهم ثلاثة عشر خيالا يحملون رايات كبيرة مختلفة الألوان من أحمر إلى أبيض وأسود وأصفر، ويعتبر هذا الصف الذي يحمل جنوده الرايات من يحدد مسيرة الصفوف الأخرى فيشير لها بالإسراع أو التباطؤ. وحين دخل الملك قصره، اصطف بجوار أصحاب الرايات أربعة أو ستة جنود يضربون الطبول ويعزفون القربة.

لقاء مُنجِم السلطان:

في ذلك اليوم نفسه قصدت مولاي عبد السلام واستشرته بشأن طريقة تقديمي إلى السلطان، فتوجه إلى القصر لاستطلاع المسألة ثم عاد إلي قائلا إن السلطان مستعد لمقابلتي أيام الجمعة كلها. وعلى حد تعبيره فإن السلطان تخلى عن فكرة الالتقاء بي يوميا حرصا منه على عدم إزعاجي وتقييد حركتي، ثم أفاد بأنه سيوفد إليّ عالِما يتولى قيادتي إلى القصر. وفي اليوم التالي وأنا مجتمع مع زهاء عشرين شخصا دخل عليّ موفد من السلطان، اتفق أنه رئيس منجميه، فقدم نفسه معبرا عن احترامه الكبير لشخصي ووضع بين يديّ حائكا رائعا هدية من السلطان. ثم أعلن، وكان اسمه سيدي قنان، أن السلطان قد أكرمه بتكليفه مهمة مرافقتي إلى القصر كل أيام الجمعة. وبعد أن قبلت الحائك ووضعته على رأسي كما تقتضي الأعراف تركته على الوسادة فيما أسرع الجميع على تهنئتي.

قُدّم الشاي وبعد ساعة من الحديث طلب مني سيدي قنان أن ننتحي جانبا، فأخذته إلى صالة أخرى ومعنا كاتب كان قد أحضره معه، وعندما اختلينا راح يسألني بعض الأسئلة حول نسبتي ومكان ولادتي، ثم طرح

عليّ عددا من المسائل الفلكية وطلب مني أن أقدر له طول الشمس وميلها لذلك اليوم، وأيضا الدوران الدوري وتحديد خطوط الاعتدال وموقع وطني عرضا وطولا، وموقع منزلي في لندن وما شابه. ولم أرتح لمثل هذه الأسئلة فلم أعرف الهدف من ورائها، ولكني أجبته بشيء من الصرامة ونقل الكاتب كلماتي إلى لغته[8]. وقدّرت له ساعتي الخسوف والكسوف القادمين فسجلهما أيضا الكاتب ثم أهديتهما هدية فانصرف. ولم يتوقف الحاج إدريس طوال هذه المساءلة عن الانتقال من صالة إلى أخرى وعلى وجهه إمارات القلق الشديد، وعندما غادر المُنجم وعدت إلى الحجرة الرئيسية ألفيت جميع أصدقائي متجمعين أربعة أربعة يؤدون الصلاة من أجلي. لقد تأثرت باهتمامهم بي وحرصهم على أحوالي وسعى الحاج إدريس الطيب إلى طمأنينتي فيما أغدق علي الآخرين بألطف عباراتهم.

الذهاب إلى الضيعة:

في اليوم التالي توجهنا إلى مزرعة للحاج إدريس في الأرياف ولما كنا رجالا من أصحاب الاتقاء والخشوع، لا نساء بيننا ولا ميل للغناء والرقص والخمر الحرام، ولما لم يكن معظمنا مضطلعا بالعلوم بحيث نستطيع إدراج المسائل العلمية في أحاديثنا، ولما تعذر علينا تناول أخبار السياسة والحياة الاجتماعية بسبب انقطاع البريد والاتصالات عنا، فلم يسعنا قضاء وقتنا إلا في الولائم نبتلع فيها اللقم بنهم وشراهة خمس مرات في اليوم، أو في شرب الشاي والصلاة الجماعية والخوض في ألعاب صبيانية. وكنا أحيانا ننتخب واحدا منا سلطانا أو وزيرا أو حاكما لقيادتنا والقيام على أمورنا وقت الغداء أو الخروج للنزهة. ولم يكن من ضمن الألعاب المختلفة التي مارسناها سوى لعبة واحدة تستحق الذكر

[8] هذه إشارة أخرى إلى عدم إتقان علي باي للغة العربية المتداولة في المغرب.

وهي كالآتي: نقلب دستة من الأقداح على صحن كبير وننقسمها إلى طائفتين، تقدم الأولى على وضع خاتم أو قطعة نقود تحت أحد الأقداح فيما تجبر الأخرى على اكتشاف ما أخفي تحت القدح في المحاولة الأولى أو الأخيرة، وإن رفع شخص قدحا في محاولة ليست الأولى ولا الأخيرة ووجد تحته شيئا فإنه يتعرض لضربة في اليد بمنديل معقود بعدة عقد من كل من أعضاء الطائفة الأخرى، وإذا استطاع العثور عليه في المحاولة الأولى أو الأخيرة فإن أفراد المجموعة الثانية هم الذين يتلقون الضرب. إن هذه اللعبة مسلية جدا لاسيما إذا اندلعت نزاعات بين المشاركين، وما إن يمد واحد يده إلى القدح بغرض رفعه حتى يهرول إليه رفاقه فيغمرونه قبلا ويتسولون إليه بأن لا يفعل والله عليه، وهناك من يرفع أربعة أقداح أو ستة مرة واحدة ظنا منه أنها لا تحتوي على شيء وإذا به يتسمر في مكانه أمام الخاتم المشؤوم. وحيث أن جميع أفراد المجموعة الواحدة يعرفون مخبأ الخاتم فيحاول أفراد المجموعة الثانية معرفة الحقيقة عن طريق التأمل في وجوههم، ولذلك فإن أصحاب السر حريصون على تضليل المتأملين فيهم بالإيهام والتصنع... بالجملة فإن مثل هذه الألعاب شغلت الفترة التي أمضيناها في المزرعة وهي ثلاث نهارات وليلتان. وفي آخر أيام مكوثنا فيها، وكان الخميس، أمر السلطان بالإعلان عن أول رمضان بدءا من الجمعة وذلك استنادا إلى تقديراتي التي قلت له فيها إن الهلال سيظهر يوم الجمعة المذكور إن لم تستره الغيوم.

دسائس رئيس المُنجمين:

عملا بتعليمات السلطان جاءني سيدي قنان تلك الجمعة بالذات ليأخذني إلى القصر. دخلنا الجامع المجاور له وتركني وحيدا، وبعد ساعة دخل السلطان مقصورته التي يحضر فيها الصلاة في منأى عن نظرات العامة. وغادر السلطان الجامع بعد فراغه من الصلاة دون أن يسمح لي

بمقابلته، إلا أنّ سيدي قنان استدعاني إلى المقصورة وأطلعني على المكان الذي يجلس فيه السلطان، ثم أكد لي أنه قد أبلغ السلطان بكل ما تنبأت بـه من خسوف وكسوف مضيفا أن السلطان كان راضيا وطلب منه مرافقتي إلى الجامع كل أيام الجمعة مثلما فعل هذا اليوم. وتبيّن لي علـى الفـور سوء نية هذا الرجل فأجبته بنبرة حازمة: "عظيم جدا ولكن سواء علي أن أقيم الصلاة هنا أو في مسجد آخر". وحاول الرجل وكنت قد أحرجته بهذا الجواب كتمان دسائسه فأخذني إلى الشارع عبر باب أحد أبواب القصـر الداخلية وهو يقول لي بكثير من الغموض: "هيا بنا نخرج من هنا فالكـل يعلم أن السلطان استدعاك وسيفطن بسرعة إلى حظوتك عنده". امـتلأت غضبا لدى سماعي هذا التفسير فأجبته قائلا أني لا يهمني الخـروج مـن هذا الباب أو ذاك ثم ركبت حصاني وغادرت برفقة خدمي، إلا أنه ركب بغلته وبلغني واقترح أن نتفسح سويا ولكني رفضت وذهبت إلـى الـدار، وتبعني الرجل إليها ثم انصرف.

دخلت الدار مغتاظا فهرع نفر من الأصحاب كانوا في انتظاري فيها إلى استطلاعي عن لقائي مع السلطان وحكيت لهم الحكاية بكل حذافيرها فسقط في أيديهم. وكنت أنا واثقا من نفوذي وارتفاع شأني عند السـلطان وكنت أعي دوافع سيدي قنان لمعاملتي بهـذه الطريقـة وخلصـت إلـى ضرورة تنفيذ خطة أردع عن نفسي هذه المعاملة الجائرة فأمسكت القلـم وخططت شكوى من اثني عشر فصلا أبين فيها الإهانة التي ألحقت بـي، مضيفا أني لم ألتمس شيئا من السلطان وأن الأخير قد تعمـد إحراجـي. وأعلنت في آخر المكتوب نيتي الرحيل إلى الجزائر على وجه الفور. ثـم نقلت قراري إلى أصحابي فطلبت من الحاج إدريس اتخـاذ الإجـراءات الكفيلة بتحقيق غرضي، وكلفت واحدا منهم بحمل الرسالة إلى مولاي عبد السلام. ما إن علم أصحابي بخطتي حتى جاهدوا في ثنائي عن غرضـي بيد أني لم آبه لهم إلا عندما نبهني أحدهم إلى أن المسلم لا يستحسـن أن

يسافر في شهر رمضان إن لم تكن هناك ضرورة قصوى، فرضخت لهم وقبلت بتأجيل السفر إلى ما بعد رمضان.

أوفد إليّ مولاي عبد السلام في اليوم التالي موفدا أخذني إليه فأخبرني أنه قد التقى السلطان فعبّر له عن سخطه على سيدي قنان مضيفا أنه رجل سيئ النية لأن السلطان قد أمره بمرافقتي إلى الجامع أيام الجمعة للسماح لي بمقابلته وليس لحضور الصلاة وحسب. كما قال إن السلطان سيأمر حالا باعتقال سيدي قنان "النذل"، ولكني سألت له أن لا يعاقبوا رئيس المُنجمين. وفرح جميع أصحابي بانتصاري إلا أن واحدا منهم أتاني بعد قليل يقول لي بحزن شديد: "لقد حملتك طيبة قلبك على ارتكاب خطأ إذ أفصحت لقنان الخائن عن ساعة الكسوف والخسوف فاغتنم الفرصة وقدم هذه التقديرات إلى السلطان على أنها من إستنتاجه". ولكني لم أتأثر بالخبر فقلت له: "يا له من شخص مسكين، إني لمشفق عليه! لا يعرف أحد توقيت الخسوف والكسوف سواي أنا، فلما كنت قد أحسست بخداعه منذ الوهلة الأولى فإني حرصت على تضليله في كل ما صرحت به من معلومات. أو بقول آخر، لا يتملك معطى صحيحا واحدا بهذا الشأن". وعمهم الفرح ورفعوني على أكتافهم قائلين إني أفوق البشر أجمع ذكاء وفطنة.

دخل عليّ سيدي قنان يوم الجمعة التالي متظاهرا أنه يتجاهل تطورات الأحداث الأخيرة، وبعد إجباره على انتظاري نصف الساعة ركبت مطيتي وأمرته بمتابعتي نحو القصر. وهناك، في إحدى الحجرات الداخلية انضم إلينا نجل السلطان ثم ناداني الأخير فأخذوني إلى بيت الخشب الصغير الواقع في الطابق الثالث. وطلب مني الجلوس إلى جواره وطرح عليّ بعض الأسئلة المتعلقة برأيي في البلد ومناخه، ثم قال إني ابنه وإنه والدي. وأسرعت إلى تقبيل يده ولكنه أظهر لي الكف كما يفعل

مع أبنائه ثم خلع علي بحائكه مشددا على أني أستطيع مقابلته في أي وقت أشاء. وبعد ذلك أكد مرارا أني ابنه إلى أن حان موعد الصلاة فانتقلنا إلى الجامع. وحضر لقاؤنا هذا نفر من الأشخاص كالمفتي وأخذني هذا إلى الجامع وقد غص بالمصلين فأجلسني إلى جانبه، وتحولت أنظار جميع أعوان السلطان إليّ عندما ألفوني محفوفا بالحراس مرتديا حائك السلطان، وبعد الصلاة خرجت من الجامع والكل يحاول أن يقبل كتفي أو تلابيب لباسي. وسألت المفتي عن سيدي قنان فأجابني بنبرة تدل على الاحتقار: "دعنا من هذا اللئيم، لا تهتم به من الآن فصاعدا". ووزعت بعض الأموال صدقات على باب الجامع فدعي لي ولمولاي سليمان بالخير والبركة ثم عدت إلى الدار راضيا عما قد آل الأمر إليه إثر رد الاعتبار إلي بصورة علنية. وهنأني الكل بنجاحي هذا ولم أعد أثير موضوع السفر إلى الجزائر بل التزمت بالاختلاف إلى الجامع كل يوم جمعة للصلاة مع السلطان في مقصورته.

معاشرة جارية زنجية:

إن المسلم غير المتزوج ينظر له نظرة لوم، ولم أكن أنا قد فكرت في المسألة لانشغالي بملذات الروح وانصرافي عن المتعة الجسدية. وألح أصحابي على زواجي إلحاحا شديدا لم أقدر عليه، وبما أنهم علموا بالتزامي عدم الزواج إلا بعد زيارة البيت الحرام فأهدوني جارية زنجية. وعكفت نساء الحاج إدريس على غسلها وتعطيرها ثم أحضرنها لي بعد أيام على أنها سرية لي، غير أني وعلى الرغم من لباسها الفاتن وجوهرها اللامع وعطورها الطيبة أنزلتها حجرة منفصلة، ولم أقترب منها لأني لم أستطع التغلب على تقززي من زنجية مثلها فطساء متورمة الشفتين وبدون أدنى شك أن تصرفي هذا أدى إلى خيبة أملها.

حساباته وتقديراته:

ألفت لمولاي عبد السلام تقويما أبين فيه الأشهر الأربعة الأخيرة للسنة الهجرية وموافقتها للأشهر الشمسية وساعات طلوع الشمس وغروبها، وأوجه القمر ومروره بدائرة خط الطول، وحركة الكواكب وغيرها من الظواهر الفلكية. وحددت أيضا ساعتي الخسوف والكسوف وكانا سيقعان في تلك الفترة بالذات، ورسمت كذلك الكواكب موضحا حجمها بالقياس إلى الشمس. وأُعجب مولاي عبد السلام والسلطان نفسه بتقويمي ورسومي لدرجة أنهما أكدا على أن حساباتي ستؤدي إلى هلاك جميع المُنجمين الدجالين في فاس. ولم يلبث أن ذاعت شائعات سخيفة بعيد الإعلان عن تقديراتي فأسرع البعض إلى التأويل والتخريف في حين تكهنت حفنة من المنجمين بملمات موشكة ستبدأ بثلاثة أيام من الظلام الدامس، ولا سبيل لسبر الجهود المضنية التي إضطررت إلى بذلها من أجل تكذيب كل هذا الكلام الباطل. وجرى الاحتفال بالعيد الصغير بعد نهاية رمضان بالطريقة المرسومة ثم غادر السلطان إلى مراكش ووعدته باللحاق به في وقت لاحق.

لم ينتبه الناس إلى الخسوف لأن السماء كانت غائمة وممطرة، إلا أنهم أثاروا جلبة لا توصف عند الكسوف فوقع في الظهر وكانت السماء رائقة تماما، وحدث أن أعتمت الدنيا ولم يتبين من الشمس سوى نصفها تقريبا. وراح الأهالي يركضون في الشوارع وهم يصرخون كالمصابين بمس، وامتلأت الأسطح بما فيها سطح داري التي أصبحت تعج بالزوار. وكنت جالسا إلى الطاولة بعيد الكسوف وانتهى بعيد الظهر لما دخل علي ابن العامل فسألني والدمع يجري على خديه هل هناك كوارث أخرى غير الكسوف يجب الاتقاء منها في الأجل القريب فهونت من خشيته مؤكدا أن لا داعي للخوف. ومن المستحيل إقناع هؤلاء البسطاء بأن القادر على إجراء فحص أو رصد فلكي ليس منجما يعرف تمام المعرفة أقدار

المخلوقات، وكنت أصادف باستمرار من يطلب مني المساعدة لاستعادة ممتلكات كانوا قد فقدوها أو سرقت منهم، أو يريدونني أن أشفيهم أو أن أمنحهم شيئا خاصا بي يحتفظون به كذكرى ثمينة. إن جهل هؤلاء الذين حاولت إصلاحهم بكل الوسائل لهو عميق الجذور.

مؤخرا عقدت العزم على الرحيل نحو مراكش، وعلى الرغم من أن أصحابي لم يألوا جهدا من أجلي إبقائي في المدينة فأمرت بالإعدادات اللازمة للسفر-تنفيذا لما وعدت السلطان به.

12
الخروج من فاس/ الوصول إلى الرباط/ وصف مدينة الرباط

اكتملت استعدادات السفر فخرجت من فاس يوم الاثنين السابع والعشرين من فبراير من العام 1804 يرافقني الأشراف والمقدم الحاج إدريس، وعبرنا بجم غفير من سكان المدينة كان قد تجمع في الشوارع. وبعد الصلاة في مسجد مولاي إدريس افترقنا أنا ورفاقي والدموع تذرف على خدودنا ثم شققت طريقي بصحبة خادمين وجنديين يركبون المطايا وخادم آخر يسير على الأقدام، وتقدمنا مرة ثانية عبر خلق كثير مما أجبرنا على التباطؤ وسمح للأشراف وخواص المدينة بالالتحاق بي مجددا ولم ينفصلوا عني هذه المرة إلا في ظاهر المدينة، وذلك بعد الدعاء لي بالخير وذرف وابل من الدموع.

هكذا، في تمام الساعة الواحدة بعد الظهر، غادرت فاس سالكا طريق مكناس ثم حدت عنه للتوجه إلى الغرب على طريق مواز للجبال. وفي الساعة الثالثة بلغت بحيرة مالحة المياه يستخرجون منها الملح، ورأيت فيها عددا غفيرا من البط البري. جعلنا هذا المكان عن يسارنا وواصلنا طريقنا إلى أن قررنا التوقف الساعة الرابعة والربع على نتوء كبير يقع بجوار دوار يدعى المغفرة. وتزخر هذه المنطقة بالسهول الفسيحة التي تمتد إلى جبال نائية وتتكون الأرض من التربة المركبة. النبات هنا غير ناضج ولم أر أثرا للزهور. وظلت السماء غائمة وأمطرت مطرا قليلا، وكانت درجات الحرارة 12 درجة ريامور أما الضغط الجوي فوصل إلى 64 درجة مئوية وكانت الريح تهب من الغرب، وبعد أن نصبنا خيامنا جاءنا ولي أحمق.

28 فبراير:

أمرت بالانطلاق في الساعة التاسعة والنصف صباحا، وكانت الرياح متقلبة الاتجاه إلا إنها كانت غالبا تهب نحو غرب شمال الغرب، وبلغنا عند الثانية عشرة والنصف الضفة الغربية لنهر امكز الجاري باتجاه الشمال، ثم توقفنا عند الساعة الخامسة والربع. وكانت المنطقة التي قد خرجنا منها مكسوة بالجبال المنخفضة ولم أشهد إلا في الثالثة والنصف جبلا مرتفعا على يدي اليمنى. وقيل لي إن هذا الجبل شاهق جدا وتسكنه قبيلة بني عمر التي لم تعلن طاعتها للسلطان. ورأيت زهورا في الجانب الآخر من النهر فكانت الأرض فيه غنية بالماء والطين. ولاحظت أن معظم الجبال مكونة من الحصى والأحجار الكلسية ويبلغ عرض أكبرها حجما من أربع إلى ست بوصات ويغطيها كلها غطاء من التراب الطيني الرقيق. وما زال الجو غائما ما عدا وقت الغروب الذي لمحنا فيه شمساً مواربة، وأمطرت السماء مطرا خفيفا في الثامنة وبلغت درجات الحرارة 13 درجة والضغط الجوي 98 درجة. في الصباح التالي عرجنا على دوار خرج منه اثنان من أكثر سكانه شأنا وطلبا مني الصلاة لأجل دوارهما فلبيت التماسهما ثم قبّلا ركبتي تعبيرا عن الشكر، ولا بد من التسجيل أن مثل هذا الطلب تكرر في معظم الدوارات التي اجتزناها.

29 فبراير:

لم نبدأ بالمرحلة التالية سوى في الحادية عشرة إلا ربعا وذلك لأنه قد أمطرت عند الفجر، واتجهنا نحو غرب شمال الغرب وكان أول الطريق بالصعود ثم أخذنا بالانحدار وفي الثالثة والنصف خرجنا من سلسلة الجبال فأشرفنا على سهل واسع قطعناه في اتجاه الغرب حتى الخامسة والنصف. وبعد أن عبرنا طريق طنجة وتجاوزنا نهر أردم

أمرت بإقامة الخيام على ضفته اليسرى. إن التراب هنا طيني بالكامل فيما الجبال غنية بصخور الرخام والطين الجاف، وكان الفج قد تشكل على الحجر الرملي اللين. طبقة الطين كثيفة فرأيت فيها شقوقا تبلغ الخمسة عشر قدما. ووجدت السهل غزير النبات والعشب والزهور مما شكل منظرا زاهي اللون يفوق جمالا أروع البساتين الأوروبية.

لا يجهل أصدقائي في فاس شغفي بجمع النبات والحيوان إذ أنهم يدركون مدى افتتان النفس المرهفة بروائع الطبيعة، ولكن الوحوش التي أحاطت بي في هذه الرحلة لم تكن قادرة على استيعاب ميلي هذا فأحجمت عن إعلان هوايتي التي يوصمون بها جميع الأوروبيين الوافدين إلى بلادهم، أعني حب الاستطلاع والبحث والتحمس للعلوم والكشف عن أنواع طبيعية جديدة. ويعتبر مثل هذا الميل المتحرر المتجدد نقيضا للهيبة والوقار اللذين يجب أن يميزا في نظرهم شيخا مسلما مثلي، بل أمرا مضرا يبعث على نتائج مزعجة. ولذلك فإني ألفيتني مرغما على تهميش استطلاعاتي وأبحاثي رضوخا لأحكام موكبي المسبقة السلبية مما منعني من التقاط عدد غفير من الأنواع النباتية وإن كنت قد جمعت ما يقارب اثني عشر نوعا في غفلة منهم، ودون أن أولي أي اهتمام للأمر وذلك حرصا على عدم إثارة حفيظتهم الناتجة عن طباعهم الجاهلة البليدة.

مررنا بمجموعة من الدوارات تألفت كبراها من زهاء عشرين خيمة فيما اقتصر عددها في صغراها على أربعة أو ستة لا غير. وتنصب هذه الخيام على شكل دوائر وهي سوداء اللون، وتباين بين الخيمة والأخرى مسافة تزيد عن عشر خطوات. بعض الدوارات يحيط بها سياج من العليق ويمتهن سكانها تربية المواشي التي يقودونها في الصيف إلى جبال الشرق الشاهقة ثم يعودون بها إلى السهول في فصل الشتاء. وعند حلول الليل يضعونها في حلقة مغلقة حول الدوار، ومعظم المواشي التي رأيتها

ثيران محصية بالإضافة إلى الكبش وقلة من الماعز. وخرج لمقابلتنا أثناء هذه المرحلة كثير من الأعراب يلحون علينا بالنزول عندهم أو بالدعاء لهم أو للاستجداء، وهذا لم يحدث إلا مرات قليلة. ونصبنا المخيم بجوار بعض الزوايا تقع فيها أضرحة الأولياء الصالحين، وتبرعت لها بشيء من المال، وتقام في هذه المنطقة ذاتها سوق جماعية أيام الخميس.

كان الجو أثناء هذه المرحلة ممطرا وظل على هذا المنوال إلى ساعة متأخرة من الليل، وهبت الرياح باتجاه الغرب حتى موعد المغرب ثم تحولت شرقا، وسجل ميزان الحرارة 16,2 درجة في السادسة مساء أما الضغط الجوي فكان 36 درجة.

1 مارس:

ازدحم في الصباح جمع غفير في السوق المدعاة سيدي قاسم، نسبة إلى صاحب أهم الزوايا الواقعة هناك. وعندما كنا على أهبة الاستعداد للرحيل انتبهت إلى كثافة الزوار والخيام الموجودة في السوق فقدرت عدد المجتمعين في الموقع بين مشترين وباعة بحدود ثلاثة آلاف نسمة، وهو تقدير أكده لي أناس استبنتهم عن المسألة. هذه السوق تباع فيها الحبوب والفاكهة وغيرها من منتجات البلد الزراعية، علاوة على الجياد والثيران المخصية والأكباش والماعز وما إلى ذلك. ويلتقي في هذا المكان وافدون من مناطق بعيدة يبتغون البيع والشراء. وتسفر النساء هنا، فبَدون لي قبيحات وفقيرات. ولما أسفر الصبح أهدانا المشرف على زاوية سيدي قاسم البرتقال ثم استأنفنا السير في الساعة الثامنة والنصف في اتجاه غرب جنوب الغرب. وعبرنا نهر بهت عند الواحدة بعد الظهر وهو نهر غزير المياه يسير جريانه نحو شمال الشرق قادما من الجنوب، وقيل لي إنه يصب في بحيرة كبيرة تبعد مرحلة واحدة عن الرباط مما يفند ما

يؤكد م. شيني في رسالته بأنه يرفد نهر سيو. وأكرهتنا عاصفة هوجاء على التوقف الساعة الثانية والربع.

لقد قطعنا سهلا خصبا كنا قد شهدناه أمس تحده جنوبا الجبال التي لففنا حولها. ورأيت كذلك سلسلة من الجبال أقل حجما من جهة الشمال وأكثر بعدا، وعن لي في بادئ الأمر أن السهل يتغلغل في الأفق ممتدا إلى الغرب غير أني اكتشفت إثر وصولنا إليه أنه عبارة عن مساحة رحبة ترتفع على سائر الأراضي المحيطة. ثم نزلنا بين جبال كانت قممها دون السهل المذكور، وفي ذلك الحين انتبهت إلى أن الجبال الواقعة سابقا على يميننا كانت تتمدد تمددا ملحوظا نحو الجنوب. التراب هنا كان طينيا في الأول ثم ازداد كلسا ورملا، ورأيت أنواعا شتى من النبات الصغير أوفرها العليق. ولا بد من الإشارة إلى أني لم أبصر شجرة واحدة منذ أن غادرنا فاس باستثناء شجرات قليلة بجوار سيدي قاسم حيث تزرع بعض البساتين. ولا تكثر في هذه المنطقة الأراضي الصالحة للزراعة، ولم أشاهد كذلك طيرا ما عدا بعض الأسراب الكبيرة المتنقلة.

جل الدوارات التي صادفناها في هذه المرحلة فقيرة باستثناء دوار واحد يتألف من دوائر عدة من الخيام بسياج من الشوك وتضم كل دائرة أفراد العشيرة الواحدة، وقيل لي إن إحدى الدوائر عائدة إلى الوزير سلوي. وفي كل دائرة ما يتراوح بين أربع واثنتي عشرة خيمة مصنوعة من شعر الجمل، وتبدو وسخة وداكنة اللون كسكانها القصار القامة نحاف الجسم، واسترعت انتباهي نزعتهم إلى الارتياب، وهي سمة تلازم الرجال الذين يعرفون معنى الحرية وإنما يرون أنفسهم تحت نير أبشع صور الاستبداد. أما النساء فوجدتهن أكثر لطفا وأنسا، وهن غالبا صغيرات الحجم وطويلات الوجه وثاقبات العيون، وجلدهن أسمر محمر بفعل أشعة الشمس كالرجال، ويرتدين الجبة والقميص ويلففن المنديل على رؤوسهن. أما لباس الرجال فهو الحائك وحسب، إلا أن الأثرياء منهم يتميزون عن غيرهم بسروال وقميص من الصوف يلبسونهما تحت الحائك ولكنهم لا

يضعون شيئا على رؤوسهم. ويطلق المغاربة على من يسكن في الدوار تسمية الأعراب أو البدو ويمتطي معظمهم الحصان ولا يفارقهم السيف والبندقية والخنجر. وألفيت إبان رحلاتي أعرابا كثيرين أقبلوا على تقبيل ركبتي أو يدي كما أن بعضهم طلب مني الصلاة ولكن لم يقابلني واحد مستجديا أو متسولا. ولم ألتق قط بإعرابي سمين أو ذي نضارة أو يظهر عليه الغنى أو يسر الحال، فأصحاب المال يعكفون على إخفاء ثروتهم والتظاهر بالفقر.

هبت الرياح في هذه المرحة هبوباً عاتيا انهال على وجوهنا فأجبرتنا والأمطار المتفرقة على التوقف قبل الموعد المحدد، فنصبنا الخيام بالقرب من دوار قال لي أصحابه إن هناك أسودا بالقرب منه. وكانت درجات الحرارة 12,6 درجة والضغط الجوي مائة درجة عند تمام السادسة. وكانت العواصف مستمرة إلى ساعة متأخرة من الليل مما جعل حشرات لا تحصى تحتمي في خيمتي، ووجدت من ضمنها أنواعا نادرة. وقفز علجوم ضخم على مكتبي وأمضى وقتا طويلا يمعن النظر فيّ إلى أن نهضت لأفتح الباب فأسرع إلى مغادرة الخيمة وكأنه قد أدرك غرضي.

2 مارس:

ساءت الأحوال الجوية فحثوني على عدم الرحيل، ولكني كنت عازما على بلوغ مراكش في أقرب وقت ممكن فأمرت برفع الخيام ثم انطلقنا في الثانية والنصف صباحا باتجاه جنوب الغرب، بيد أننا ضللنا الطريق فأوغلنا في غابة كثيفة الصفصاف لم نعرف كيف نخرج منها ولو لم يحالفنا الحظ في العثور على دليل أرشدنا إلى الطريق الصحيح لبقينا فيها ساعات طويلة. وكانت الرياح عاتية والأمطار شديدة بحيث استحال عليّ التأمل في البوصلة ولم يتسن لي كذلك الاستناد إلى معالم السماء لأنها كانت قد غيمت. وفي المحصلة، نصبت المخيم في الساعة الرابعة إلا

ربعا بجوار دوار. إن التضاريس هنا تطغى عليها السهول تتخللها الهاويات والوديان العميقة الضيقة أما التراب فغني بالرمل والنبات. ومررت في الطريق بغابات من شجرات المصطكى والبلوط واللوز البري الزاهر، والكائن الوحيد الذي تصدى لي هنا فراشة عظيمة كانت جاثمة على شجرة بلوط وسمحت لي بإمساكها بكل هدوء. وصفا الجو إثر غروب الشمس فسجل ميزان الحرارة 10,8 درجة. وفي الليل أطلقت جوقة من آلاف الضفدع تقاسيمها من مستنقع قريب من مخيمنا.

3 مارس:

أصبحنا تحت المطر ولكني قررت الانطلاق على الرغم من تقلب الأحوال الجوية، وغادرنا المكان في العاشرة والنصف صوب غرب جنوب الغرب ثم صوب جنوب الغرب، وعند الثانية إلا ربعا عبرنا نهيرا اسمه تفلات ثم في الرابعة، أوعزت إلى حاشيتي بالإقامة على المقربة من دوار. وتتألف التضاريس هنا من تلال صغيرة تفصلها وديان عريضة، أما التراب فهو مكون من رمال حمراء اللون يمزجها تراب نباتي. في الساعة الحادية عشرة خضنا غابة من البلوط الأحمر الطويل والرتم الضخم واللوز المزهر، ولما تبين لي أن هذه الأشجار وثمارها كلها تنتجها الأرض بصورة طبيعية فإني قلت في نفسي: يا ترى، لكان سكان هذه المنطقة قادرين على إغراق أسواق أوروبا بأسرها بالمنتجات الزراعية لو عكفوا على الفلاحة! إلا أن هؤلاء وعلى الرغم من ثرواتهم الطبيعية الهائلة ما زالوا يقبعون في غياهب الفقر والبؤس ولا يلبسون غير الأسمال فيفترشون الأرض أو الحصر الرثة... بئس الحكم الجائر البغيض الذي يفرض على رعاياه المشقة والشقاء في حين تعرض عليهم الطبيعة خيرات لا تحصى...

وأخيرا ارتأيت النزول في هذه الغابة، وظلت السماء غائمة ممطرة وانخفضت درجات الحرارة، وأكسبت هذه الظروف المنطقة طابعا ذكّرني

بالمناطق الشمالية في فرنسا أو بريطانيا، وهو منظر بعيد كل البعد عما يتصوره الواحد إذا فكر في إفريقيا الحارة الساخنة. في السادسة أخذت السُحب بالانقشاع عن الجو وبدأت الرياح تهب من جهة الغرب، وتوقفت درجات الحرارة عند عشر درجات فيما كان الضغط الجوي مائة درجة. وكنت أود أن أشاهد كسوفا جزئيا وقع تلك الليلة ولكن الغيوم حالت دون ذلك.

4 مارس:

استمرت الأمطار ليل نهار بمنوال أثار يأسي إلا إننا تجاوزناها وارتحلنا في السابعة والنصف صباحا باتجاه غرب جنوب الغرب، ثم انحدرنا صوب جنوب الغرب. ووصلنا سور سالي عند الساعة الثانية والنصف وبما أني كنت على عجلة من أمري فلم نتوقف فيها بل واصلنا طريقنا وقطعنا النهر لنصل إلى الرباط الواقع على ضفته اليسرى. الإقليم هنا غني بالأراضي المنخفضة والتراب الرملي الأحمر. ووجدت في طريقي إلى الرباط اللوز المزهر وبدت لي أشجار البلوط أقل كثافة وطولا من الغابات التي رأيتها أمس. وعند الظهر خرجنا من الغابات وأشرفنا على ساحل المحيط الأطلسي العريض. ولم تتوان الأمطار وهنة من الزمن وكذلك الرياح الشديدة القادمة من الغرب.

لاحت لي مدينة سالي صغيرة ولم أجد فيها ما يدل على يسر حال سكانها على خلاف الرباط التي أبصرت فيها مباني حسنة الإنشاء. وتأخر دخولنا المدينة ساعة ونصف الساعة نتيجة لعملية عبور النهر فاضطررنا لتجريد البغال من حمولتها ثم إعادة شحنها. ويتولى ما يتراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين زورقا نقل المسافرين والدواب والبضائع من ضفة إلى أخرى ويقود الزورق رجل واحد بمجدافين. ويبلغ عرض النهر في الموقع الذي عبرناه فيه زهاء مائة فرسخ ورأينا في الجانب الأعلى ثلاث

سفن مسلمة علاوة على سفينة فرنسية من ثمانين طنا كانت قد رست هناك.

لما حللت في الرباط أرسلت موفدا إلى حاكم المدينة فأوفد إليّ على الفور ضابطا من ضباطه للترحيب بي ومنحي وثيقة تعفيني من تسديد ضريبة عبور النهر. وأمر كذلك الحاكم بإنزالي ضيفا في القصبة التي تشرف إشرافا رائعا على كل من البحر والبر، وما إن وصلت إلى منزلي الجديد حتى بعث إليّ الحاكم بكميات كبيرة من الأطعمة والعلف وهكذا كان عهده معي طوال مكوثي في الرباط.

في اليومين التاليين كانت السماء صحواً تماما وهو ما سمح لي بإجراء أرصادي وتقديراتي فعلمت أن موقعي عرضه 34 درجة و4 دقيقة و27 ثانية شمالا وطوله 8 درجات و57 دقيقة و30 ثانية غربا حسب مرصد باريس.

وصف الرباط:

طالت محطتي في الرباط خمسة أيام لحاجتنا إلى رجال ودوّاب وكذلك إلى الاستراحة قبل استئناف السفر إلى مراكش بعد أن عانينا الأمرين نتيجة للعواصف ومشقة الطرق الملتوية. وكنا كذلك في حاجة إلى المؤن وإصلاح الخيام المتكسرة. وأمضيت هذه الأيام الخمسة أقوم بزيارة الخاصة واستقبال الزوار، وأهداني الحاكم محمد السلوي في إحدى هذه الزيارات حائكا رائعا فريدا من نوعه.

لم يتبق من لمعان الرباط السابق كمعقل بحري سوى ثلاثة أو أربعة ربابنة قادرين على قيادة سفينة ثقيلة، مما يعني أن السلطان سيواجه صعوبة بالغة لإنشاء أسطول ذي شأن إذا توخى ذلك. على كل حال فلا مصلحة البتة في بعث الروح مجددا في سكان الرباط ومهاراتهم البحرية العريقة إذا كانوا سوف يعودون إلى القرصنة التي امتهنوها في الماضي.

أما هيئة المدينة فمساكنها أحسن قياما وشكلا بالنسبة إلى ما هو الأمر عليه في مدن أخرى، وإن كان الحال واحدا فيما يتعلق بما في داخلها. حيث أنها شيدت على نتوء فمعظم شوارعها عقاب تصعب السير، ويظهر أن الرباط شيدت لاستضافة عاصمة يعقوب المنصور الشهير، وبالتالي تقرر استحكامها بأسوار طويلة أضيفت إليها الا راج، وتحتل المساحات القريبة منها بساتين مزروعة بعناية. ويوجد كذلك في القصبة ضريح السلطان سيدي محمد (والد العاهل الراهن) وهو ضريح زرته أثناء إقامتي في الرباط. وتقع القصبة في أقصى غرب المدينة وهي تطل على الأراضي المحيطة بالرباط مما يتيح فرصة الاستمتاع بمنظر رائع تشوهه للأسف أنقاض وخرائب تفرقت هنا وهناك وتنغص على المشاهد تخيلاته الحالمة. وما زالت في الجانب الشرقي بقايا مدينة شالة القديمة التي يعتبرها م. شيني عاصمة المستعمرات التي أقامتها قرطاجة في هذه الأقاليم. ويسميها ليون الإفريقي (الحسن بن محمد وزان الفاسي) سالا فيما يطلق عليها مارمول اسم منسالا. وفيما يتعلق بأصل هذا الاسم فلا بد من التذكير بأنه يوجد في ظاهر جميع المدن وباتجاه جنوب الشرق مكان يسمونه المصلى يجتمعون فيه لأداء صلاة العيد وربما هناك ما يربط بين الاثنين.

مدينة شالة يحيط بها سور شاهق ويُمنع على المسيحيين دخولها. وتضم أضرحة عدد من الأولياء وكذلك ضريح السلطان يعقوب بن منصور. يقع هذا الضريح في مسجد يتردد إليه المصلون باستمرار، ولم أتمكن أنا من الدخول فيه إلا بعد مشقة كبيرة لكثرة النساء المحتشدات فيه. وتتسم العقبة التي شيد عليها المزار بطابع رومانسي فتكثر فيها عيون الماء الرقراق الجاري عبر الصخور المكسوة بالورد والبرتقال والليمون والنارنج وأشجار أخرى والنبات الزكي الرائحة. وتنزهت بعد خروجي من المسجد في بساتين البرتقال المزروعة على ضفة النهر

فوجدت نفسي في ما يشبه الجنة، إذ كانت الأشجار المثمرة يفوح منها أريج فاتن وأنا ألتقط الثمار من أغصانها، وتبلغ هنا أشجار البرتقال طولا وكثافة، بحيث يمكن المرء الاستظلال بأوراقها الوافرة دون أن تدركه أشعة الشمس وقت العصر. افتتنت ببساتين الرباط افتتانا يجعلني أؤثرها على أجمل وأروع البساتين الأوروبية مع كل ما تختص الأخيرة من رونق وزخرف وأبهة. وبعد هذه البساتين ركبت قاربا كبيرا يقوده ربان كان قد جهزه خصيصا لي ويحركها رهط من المجدِّفين. أما استحكامات المدينة فتتمثل في عدد من المدافع المنصوبة صوب البحر، ويمكن اعتبار الميناء آمنا ما لم تجر رياح الغرب. والماء والأطعمة على قدر كبير من الجودة ولاسيما الخبز فهو ممتاز. في ما يتعلق بسكانها فهم نشيطون وأذكياء وأكثر مهارة في مجال الأعمال والتجارة من سكان المدن الأخرى، وتقطن فيها عائلات وأسر تؤكد أنها تنحدر من الأسبان (الموريسكيون) الذين لجئوا إلى شمال إفريقيا على مدار فترات زمنية مختلفة هربا من ملاحقة مواطنيهم وما زالوا يحتفظون بألقابهم الأصلية. وتأكد لي أن أحدهم ويدعى سيدي متّي مورينو هو علامة المملكة الوحيد الملم بعلم الفلك، وإن كانت معرفته بهذا الخصوص مستندة إلى مراجع ومناهج أكل عليه الدهر وشرب فإنها صالحة من حيث المبدأ. وسرعان ما أنست به وعطفت عليه لدماثته وحسن خلقه وأهديته عددا من معداتي والجداول الفلكية وعلمته سبل استخدامها.

13
رحلة إلى مراكش

السبت 10 مارس خرجنا من الرباط الساعة العاشرة صباحا وكانت وجهتنا مراكش. سلكنا الطريق في أول الرحلة باتجاه جنوب الغرب حتى الثالثة عصرا ثم تحولنا إلى غرب جنوب الغرب بعد أن قطعنا نهر يكم. عند الخامسة حططنا الرحال على المقربة من دوار بعد أن حدنا عن طريق يوازي شاطئ البحر حيث تمنع النفوذ إليه سلسلة من الصخور الوعرة والتي تضربها الأمواج بشدة حتى إذا هدأت الأجواء. تتشكل التضاريس هنا من تلال صغيرة من الكلس، أما النبات فهو مخضر وكان بعضها زاهرا عند الشط فأخذت بعض العينات لإثراء مجموعتي. والتراب من الحجر الرملي الممزوج بالطين. يغطي الشاطئ غطاء من أصداف الرخويات وعلى الرغم من أني بذلت جهدي من أجل العثور على صدفة كاملة واحدة إلا أني لم أفلح. ولاحظت بالقرب من المكان الذي أقمنا فيه صخرتين ضخمتين متوجتين بقمة على شكل نصل حاد، كانتا مكونتين من طبقات غير متساوية فيها قطع من بلور الكوراتز وتشكل بدورها عروقا متشعبة في طبقات الأردواز الطيني، وكانت هذه أول صخرة بدائية الشكل وجدتها في إفريقيا. وتساقط علينا رذاذ وبلغت الحرارة 15 درجة والرطوبة 100 درجة والرياح تهب من الغرب.

11 مارس:

أخذنا بالسير في الثامنة صباحا صوب غرب جنوب الغرب وقطعنا في التاسعة والربع نهر شرات، ثم ذهبنا جنوب الغرب إلى نهر بوزنيقة،

ثم عبرنا نهرين صغيرين. في الواحدة والربع مررنا بقصبة المنصورية، وفي الثالثة بلغنا الضفة اليمنى لنهر انفيفي حيث اضطررنا للتوقف طويلا في انتظار انخفاض مده قبل عبوره. بعد ذلك وصلنا إلى فضالة[9] حيث نزلنا. وهي منطقة غنية بالهضاب ويسير الطريق فيها موازيا للشاطئ الذي لا يختلف كثيرا عما شاهدناه في اليوم السابق، ويتألف التراب من طبقة من الرمل والطين وحجر الأردواز والطين الجاف. والتقطت كثيرا من النباتات المخضرة والزاهرة. وظل الجو غائما تخللته عواصف متقاطعة فهطلت الأمطار وانخفضت الحرارة إلى 14 درجة وبلغت الرطوبة 100 درجة.

المنصورية وفضالة موقعان مطوقان بأسوار طويلة فيها أبراج، وتبلغ واجهة السور الواحد حوالي خمسة وستين فرسخا، وتضم كل منهما مسجدا ومجموعة من المنازل المكتظة بالسكان بالقياس إلى مساحتها. مسجد فضالة الوحيد جيد الشكل ولكنه بدا لي أن سكان المدينة، ومعظمهم من اليهود، فقراء.

12 مارس:

أمطرت السماء بشدة طوال الليل وبعض الصباح مما أجل انطلاقنا حتى الواحدة بعد الظهر. وتوغلنا نحو جنوب الغرب، وفي الثانية والنصف قطعنا نهرا صغيرا، وحوالي الساعة السادسة بلغنا الدار البيضاء بعد أن قطعنا مستنقعات كبيرة وعبرنا نهيرا ضحلا. ولا تختلف المناظر هنا عما شاهدناه في المراحل السابقة، إذ تكثر الهضاب والسهول الفسيحة المتفرقة الأهوار العريضة المساحة. أما الساحل الذي يسايره الطريق فهو صعب التضاريس لا يوجد فيه سوى ميناء واحد أنشئ في الدار البيضاء، وهو صغير جدا. التراب هنا من الطين المخلوط بالرمل وقطع من الرمل

[9] المعروفة اليوم بالمحمدية.

النقي، ويرى هنا وهناك حجر الكلس وعينات من الطين الأردوازي، ولاحظت كذلك أن رمال البحر مكونة من مسحوق الأصداف. والنبات مثلما قلنا في المراحل السابقة إلا أنه أقل تنوعا حيث أن المروحة تحتل معظم المساحة. وهدأ الجو قليلا في المساء ولكن الأمطار عادت للتساقط فاستمرت حتى التاسعة ليلا وكانت الحرارة 14,8 داخل خيمتي والرطوبة خمسا وتسعين درجة.

13 مارس:

بقينا يوما واحدا في مخيمنا المقابل للدار البيضاء نتيجة للأمطار الشديدة، وعلى الرغم من سوء الأحوال الجوية فإني استطعت القيام ببعض الأرصاد الفلكية وعرفت أن موقعي كان طوله تسع درجات وخمسين دقيقة إلا ثانية بالقياس إلى مرصد باريس، أما عرضه فهو 33 درجة و37 دقيقة و40 ثانية غربا، في حين كان الأنحدار المغناطيسي عشرين درجة و43 دقيقة و30 ثانية غربا. وكانت الحرارة 17 درجة والرطوبة 96 درجة. وكانت الرياح قادمة من غرب جنوب الغرب وقد أناءت السماء فيما البحر هائج.

الدار البيضاء مدينة صغيرة تحيط بها أسوار كبيرة وهي فقيرة وميناؤها صغير جدا. وقيل لي إن سكانها من مقاطعة شاوية، وأقيمت طواحين صغيرة على نهرها. وأمر الحاكم بإضافة أربعة جنود آخرين إلى حاميتي.

14 مارس:

غادرنا في السابعة والنصف صوب جنوب الغرب، وبعد أربع ساعات عبرنا جدولا، ثم دخلنا في الواحدة في غابة كثيفة من المصطكى. وفي الثانية والنصف عبرنا عدة مستنقعات تزيد مساحتها عن نصف الميل غطست فيها الجياد حتى بطنها، وعند الساعة الخامسة نصبت الخيام

بجوار قرية خربة يسمونها للا رتمة، تقع في منطقة كثيرة التلال تمتد حتى الأفق وتميل للانخفاض. والتراب من حجر الكلس الثانوي يكسوه غطاء خفيف من التراب النباتي الطيني الخصب، ولذلك فإن النبات فيه من أجمل ما تنتجه الطبيعة. وظلت السماء غائمة وأصابنا الرذاذ عند المغرب وكانت الحرارة 13 درجة والرطوبة 100 درجة، وكانت الرياح تجري من وجهة الغرب. ومررنا في طريقنا بدوارين ولاحظنا أطلال ثالث على أنقاض للا رتمة.

15 مارس:

انطلقنا الساعة الواحدة والنصف صوب جنوب الغرب، وبعد أن عبرنا نهيرا ومررنا بدوارين ووصلنا وقت الظهر ثلاث زوايا وعددا من المزارع المأهولة. وتعد هذه المنطقة المركز الرئيسي لزراعة الحناء، وتستخدمها النساء لصبغ أيديهن وجفونهن. في الثانية بلغنا الضفة اليمنى من نهر أم الربيع ولم نجد سوى قارب صغير لعبوره وبما أن سعته كانت محدودة جدا فأمضينا خمس ساعات لنقل جميع الأغراض إلى الضفة المقابلة حيث أقمنا المخيم بالقرب من مدينة الزمور. وكانت الأراضي التي مررنا بها أثناء هذه المرحلة تكثر عليها الهضاب وكان البحر أمامنا باستمرار أما التراب فهو كما وصفناه في الأيام الماضية. وأبصرت غابة من الصفصاف ونباتات متعددة كانت الغلبة فيها للمروحة وكان كله زاهرا. ورأيت سنبلتين مثمرتين من الشعير إلا أن حبوبهما ما زالت صغيرة جدا. وظلت السماء تكسوها الغيوم في الصباح ثم صفت وكانت الحرارة 12,8 درجة داخل خيمتي فيما الرطوبة 98 درجة.

16 مارس:

أكرهتني الأحوال الجوية الرديئة على تأجيل موعد الرحيل، إلا أني اغتنمت الفرصة لما ظهرت الشمس قليلا لتحديد موضع الزمور على

النحو التالي: عرضه 33 درجة و18 دقيقة و46 ثانية شمالا وطوله 10 درجة و24 دقيقة و15 ثانية بالنسبة لمرصد باريس، وهامش الخطأ في هذا القياس لا يزيد عن 12 دقيقة. استحسنت جامع المدينة التي ليست بدورها قبيحة. إنها مسورة وتقام في إحدى ساحاتها أيام الجمعة سوق وثمة ربض جميل في ظاهر المدينة يحيط بمزار. النهر عرضه مائة وخمسون قدما تقريبا، ولكنه عميق جدا وسريع المياه مما يصعب على القوارب عملية التصدي لتياره القوي، ويعلل سكان المدينة مثل هذا العنفوان بأن الجن يسكن النهر ويدفع المياه بشدة. والضفة اليسرى شديدة الانحدار على خلاف الضفة اليمنى، وقيل لي إن هذا النهر يأتي من جبال تدلة أي الأطلس الكبير، وكانت مياهه حينذاك موحلة وحمراء اللون بفعل الأمطار الغزيرة وكأنه النيل موسم فيضانه، مما يضطرهم لوضع الماء المأخوذ منه في الأوعية والتريث قبل شربه. وكان أم الربيع في قديم الزمان يشهد تجارة مستمرة على متن سفن كبيرة تدخل من البحر الذي لا يمكن مشاهدته من هنا إلا أني سمعت هيجانه فقدرت موقعه على بعد ربع ميل تقريبا. وكنت في اليوم السابق قد لحظت البحر أحمر اللون عند مصب النهر. تتكون ضفتاه من التراب النباتي وحجر الرمل والكلس. الساعة الثامنة سجل ميزان الحرارة 13,5 درجة والمرطاب 98 درجة والبارومتر 27 بوصة و9 أسطر. وظلت الرياح تجري من جنوب الغرب وارتفعت الحرارة إلى 15 درجة عند الظهر.

17 مارس:

الساعة التاسعة إلا ربعا صباحا رحلنا نحو جنوب الغرب، ثم في العاشرة تحولنا إلى جنوب الشرق وفي الرابعة خيمنا بجوار دوار كبير. وتحيط التلال هذه المنطقة وكانت أراضيها مخضرة غنية بالمحورة والزنبقيات ونباتات صغيرة زاهرة، والمزارع المنتجة للشمّام والتين وغيره من الأشجار المثمرة، ولقد فرحت فعلا بمثل هذا المشهد الرائع لا

سيما وأني لم أكن قد لقيت أراضي مزروعة بالغلال منذ أمد طويل. وظلت السماء غائمة وسجلت الحرارة 13 درجة والرطوبة 98 درجة وكانت الرياح تهب باستمرار من جنوب الغرب. وأهداني شيخ الدوار المجاور كبشا وحليبا ودجاجا وشعيرا وفاكهة، وتتألف قبيلة هذا الشيخ من فرعين هما أولاد الفرج وأولاد محمد.

18 مارس:

أخذت السماء تمطر علينا إمطارا غزيرا منذ الرابعة صباحا، وظلت الأوضاع على هذا المنوال حتى الثامنة والربع عندما بدأت السماء تصفو فشددنا الرحال وغادرنا نحو جنوب الغرب. في العاشرة إلا ربعا مررنا بسوق كبيرة تقام أيام الأحد بالقرب من بعض الزوايا، وبعد استراحة قصيرة وقت الظهيرة أمرت بمواصلة الرحلة صوب جنوب الغرب، وفي الرابعة عصرا نصبنا الخيام بجانب دوار. وكانت المنطقة تلالا منخفضة متساوية تليها سهول فسيحة تمتد جنوبا إلى جبل كبير يبعد ستة أو ثمانية أميال، ولاحظت أن هذه الجبال هي امتداد لسلسلة جبال تطوان (سلسلة جبلة) وكذلك لتلك التي تلوح من طريق فاس، إلا أنها أطول منها ومن المرجح أنها متصلة بسلسلة الأطلس الكبرى. والأراضي هنا ذات لون أحمر رائق وسطحها من الرمل الغني بالكوراتز وكذلك بالفلسبار الأحمر القرميدي. ونظرا لهذا التكوين تساءلت هل مصدر هذه التربة بقايا انحدرت إلى هنا من الجبال التي ربما هي من الجرانيت؟ لا يمكنني الجزم في هذه النقطة فكافة الجبال التي رأيتها من الكلس الثانوي. وكان النبات جميلا جدا فتلذذت بالفرجة على بساتين الشمّام والفول وحقول القمح. وكالمعتاد هطل المطر واشتدت الرياح مما اضطرت القافلة إلى التوقف عن السير، ولم يتحسن الجو إلا في آخر المطاف وكانت الحرارة 12,8 درجة والرطوبة 100 درجة.

19 مارس:

رفعنا المخيم فخضنا مرحلة جديدة في السابعة والنصف صباحا صوب الجنوب حيث الجبل الشاهق الذي كنت قد أبصرته أمس فبلغنا سفحه قبل الظهر. وتحولنا نحو جنوب الغرب، وفي الثالثة وثلاثة أرباع لاحت قمم عدد من الجبال الشامخة كانت مقابلة لنا من جهة الجنوب. وقال أحد الخدم إن مدينة مراكش تقع قبل القمة التي كان نصفها مغطى بالثلج، وقررت التوقف في الرابعة والربع. ورأيت بعض السهول تشرف عليها جبال عالية في اتجاه جنوب الشرق. بدأنا في العاشرة بصعود الجبال المجاورة التي يتقارب الواحد إلى الآخر في البعد، وتبين لي عندما بلغنا أول الجبل أنه لم يكن شاهقا مثلما كنت أتوقع في اليوم السابق. وانتقلنا على الفور إلى واد تقطعه ثلاثة نهيرات، وبعدما تسلقنا تلا صغيرا رأيت منه عددا من الهضاب وخلفها جبال الأطلس المنيفة التي تحتل الآفاق جنوبا، وتبينت فيها أربع كتل عملاقة منفصلة... ما أروع أحاسيسي وأنا أتأمل هذه الجبال الشهيرة!

الأراضي هنا كنظيرتها في المراحل السابقة. وكان التراب غنيا بالكلس والرمل إلا أني لاحظت طبقة حقيقية من حجار الجرانيت بدأت بالتحلل نتيجة لتحول الفلسبار إلى مسحوق الفغفوري. إن لون هذه الطبقة أحمر قرميدي، وبعد التدقيق تبين لي أنها تحتوي أيضا على قليل من الميكا البلوري على شكل صفائح عريضة. وفي ما يخص حبوب الجرانيت فهي غير متساوية، فهناك السميكة والرقيقة والمتوسطة. وسرنا في محاذاة هذه الصخور إلى نهايتها حيث حططنا الرحال، وفيما الرجال منهمكون في نصب الخيام صعدت إحداها للإشراف على الكتل الحجرية الجبارة، وكان سطح هذه الصخرة الغاطسة في الأرض بصورة عميقة جدا كطاولة من اثني عشر قدما.

م النبات هنا قليل والزهور شحيحة، ومع ذلك أفلحت في التقاط عدد من النباتات النادرة، ولم تقع عيناي أثناء الرحلة على ما يشير إلى وجود أراض مزروعة. وأُخبرت بأن الجبل السامي الذي مررنا بسفحه يسكنه أولياء معتكفون، وقد رأيت بأم عيني بعض الأشخاص بمن فيهم امرأة أخالها أيضا راهبة معتكفة مثلهم. وظل اليوم مشمسا وإن ظهرت سحب متفرقة بين الفينة والأخرى. وسجلت درجات الحرارة عند الساعة الثامنة مساء 10 درجات والضغط الجوي 98 درجة، وهبت الرياح من جنوب الغرب ولم أبصر في طريقنا غير قرية واحدة وحططنا في مكان مقفر تماما.

20 مارس:

استأنفنا السير الساعة الثامنة صباحا قصد الجنوب، ثم عبرنا عددا من الجداول، وأخيرا توقفنا قرب دوار عند الرابعة والنصف. والتضاريس هنا سهول تحدها جنوبا جبال صغيرة تلوح من ورائها سلسلة الأطلس المكسوة بالثلج. وأنشئ مخيمنا في موضع قريب جدا من الخط الأول من الجبال المذكورة. وسطح الأرض هنا يكسوه غطاء نباتي ينمو على حجارة من الجرانيت والطين وحجر الكلس الرملي. ولاحظت قطاعا من اليصب الأبيض بالقرب من المخيم. ولم تكن هناك خضرة باستثناء مجموعات صغيرة من الزهور، وكما حدث في المرحلة السابقة فإني لم أر أثرا لحواضر أو مزارع. على صعيد الأحوال الجوية: لطف الجو إلى الثانية عصرا حين فاجأتنا عاصفة شديدة الرياح، وكانت دراجات الحرارة 14 درجة والضغط الجوي 78 درجة، وجرت الرياح من الغرب والسماء ملبدة الغيوم.

21 مارس:

ارتحلنا إلى الجنوب الساعة السابعة والنصف، وبعد فترة وجيزة شرعنا في تسلق الجبال، وما إن بلغنا القمة حتى عنت لنا مدينة مراكش، وأسرعنا في الانحدار فوجدنا أنفسنا في ما يسمونه سهل مراكش، وقبل الظهر بربع الساعة بلغنا جسرا طويلا جدا سلكناه لنعبر نهر تنسيفت ثم دخلت المدينة. والبلاد هنا سهول لا تتناهى وتمتد صوب الغرب وتتاخمها سلسلة الأطلس من جهة الجنوب وجنوب الشرق. قوام التراب الأردواز الطيني والقرميد ويبرز عن السطح على هيئة شرائح رقيقة متوازية، وبحيث أنها تتعرض للتفكك بفعل تأثرها بالرياح والأمطار فتنقسم إلى قطع متفرقة هي أشبه ما يكون بمقبرة كبيرة وزعت قبورها على شكل يوازي بعضها بعضا.

14
كرامة السلطان/اسميلالية/ رحلة إلى الصويرة/ الصويرة/ العودة إلى مراكش

أثار دخولي مراكش رضا كبيرا عند السلطان، وكذلك عند مولاي عبد السلام وجميع أصحابي في البلاط، وأول ما علم السلطان بوفودي بعث إليّ بالحليب من زاده الشخصي علامة على حبه لي، وكذلك فعل مولاي عبد السلام. في اليوم التالي ذهبت لزيارتهما فأكرماني مجددا مبرهنين على تعلقهما بي، ولم تتوقف بوادر التعاطف هذه عن الأستطراد طوال مكوثي معهما. هكذا، منحني السلطان هبات بالغة القيمة خولتني الحفاظ على منزلتي ومصاريفي دون الحاجة إلى استخدام أملاكي الخاصة، وذلك بموجب فرمان وضعه بين يدي مبعوث منه، جاء فيه أن السلطان ينعم علي بمزرعة للاستجمام في الريف اسمها اسميلالية، تضم المزارع والنخل وشجر الزيتون والبساتين وما شابه ذلك، علاوة على دار كبيرة في المدينة يطلقون عليها اسم سيدي بن محمد الدكالي. وكان السلطان سيدي محمد والد مولاي سليمان قد أقام في اسميلالية فزودها بأجمل أنواع الأشجار المثمرة وزينها ببساتين غناء، ومما يزيد من مفاتنها المياه الغزيرة التي تروي أراضيها قادمة من الأطلس بواسطة أنبوب محكم الصنع. وتبلغ مساحتها نصف ميل مربع وهي محاطة بالسور، وتقع قطع الأراضي الأكبر وكذلك النخيل خارج نطاق السور، في حين تتجمع مزارع الزيتون والبساتين في الداخل ولكل واحدة منها سياج خاص. أما الدار المهداة لي في المدينة فهي كبيرة، وكان بن محمد الدكالي، الوزير المفضل عند السلطان وحاكم المملكة الفعلي، قد شيدها

وأقام فيها فترة من الزمن. وعلى الرغم من أن جزءا منها مبني بشكل سليم وجميل وكذلك الحمّام، إلا أن الدار دون المستوى بصورة عامة. وما زلت أحتفظ بملكية هاتين الهبتين كما ينص الفرمان المؤرخ في التاسع العشر من ذي الحجة من عام 1218 للهجرة الموافق للحادي عشر من أبريل عام 1804 ميلادي.

رحلة إلى الصويرة:

ولما كان السلطان يعد عدته للسفر إلى مكناس، ونظرا لحرصه على إسعادي واستمتاعي بالإقامة في أراضيه، فقد دعاني إلى القيام برحلة استجمام إلى الصويرة، وتحقيقا للغرض أمر القادة العسكريين في مقاطعات هاها وشرمة وسوس بالتجمع في الصويرة مع قواتهم. لذلك. امتثالا لرغبته، غادرت مراكش الخميس 26 أبريل عند العصر وسرت باتجاه جنوب الغرب وغرب جنوب الغرب. وعبرنا نهيرا في الرابعة ثم نصبنا الخيام عند الضفة اليسرى لنهر نفيس الذي يقع على سهل واسع تتاخمه من جنوب الشرق سلسلة الأطلس. والأرض هنا كلسية رملية وهي جرداء لا ينمو فيها سوى الشوك والصفصاف. والجو فيها شديد الحرارة. تألف مخيمي من خمس خيام: واحدة منها لي وأخرى لرفاقي من الفقهاء، وأخرى للمطبخ، وأخرى للخدم والأخيرة للحامية المشكّلة من ضابط وأربعة جنود زنوج من حراس السلطان الخيالة. وشعرت بوعكة ولكني كنت قد تركت في مراكش أمتعتي وصندوق الأدوية وهو قرار ندمت عليه كثيرا في ذلك الوقت.

27 أبريل:

واصلنا الرحلة صباحا الساعة الثامنة صوب جنوب الغرب، وعبرنا في الحادية عشرة نهيرا، وفي الخامسة أمرت بالنزول عند الضفة اليسرى

لنهر ششاوة وهو يجري كغيره من جنوب الشرق إلى شمال الغرب. والمنظر هنا كسابقه في اليوم الماضي، وبدأت سلسلة الأطلس تنأى في الآفاق، ورأيت أحد فروعها ينتهي أقصى الجنوب. وفي العصر أبصرت في البعد جبلا بدا لي أنه منفصل. التراب هنا طيني جاف أما النبات فهو كالمشار إليه في الأيام السابقة ما عدا ذلك الموجود عند ضفتي النهر إذ أنه حافل بالزهور ويشبه بستانا. ورأيت في هاتين الضفتين طائفة من النساء يغسلن الملابس وهن سافرات.

أثناء هذه الرحلة ازداد مرضي حدة، وكنا على بعد سبع درجات ونصف الدرجة عن المدار، وكان المناخ جهنميا ولم يتوفر عندي الدواء الكافي مما جعلني أتوجس اشتداد أعراض المرض.

28 مارس:

على الرغم من دائي أمرت باستئناف المسير في الثامنة صباحا متجهين إلى الغرب ثم غرب جنوب الغرب. ومررنا بمجموعة من البيوت وزاوية تدعى سيدي مختار، وفي الرابعة عرجنا على ضياع منفصلة متفرقة هنا وهناك، وفي الخامسة نصبنا الخيام بالقرب من واحدة منها، وكذلك بالقرب من دوار مجاور لنهير لطيف. إن سطح الأرض هنا من المارل الممزوج بالطين وتحته طبقة من الحجر الكلسي المغطى بشريحة رقيقة من التراب النباتي الحافل بقطع الكلس والكوراتز. وكانت التضاريس سهلة في أول المطاف ثم سلكنا عددا من التلال نصبنا المخيم بين اثنين منها. والسماء تلبدت بالغيوم وتجري رياح باردة نوعا ما من الغرب وهي الرياح التي خففت قليلا من دائي أسوة بشراب الليمون الذي تناولته بكثرة. الخضرة قليلة في هذه المنطقة إلا أني فوجئت في المساء ببعض الزهور والأراضي المثمرة.

29 مارس:

انطلقنا الساعة الثامنة والربع صباحا صوب الغرب، ثم تحولنا إلى غرب جنوب الغرب ومضينا على هذا المنوال لغاية الرابعة حين حططنا الرحال. هذه البلاد تكثر فيها الجبال وعلى قممها منازل متفرقة مما يضفي على هذا المشهد طابعا شبيها بالمناظر الجبلية في سويسرا، وإن كان بعضها خربا. وتطل قمم طائفة من هذه الجبال شمالا وجنوبا على تضاريس كئيبة هي الأخرى، وفي الساعة الثالثة لاح في الأفق البحر وساحل الصويرة.

الأرض هنا تتألف من الحجارة الكلسية تكسوها طبقة رقيقة من التراب النباتي الغني هو الآخر بالكلس والرمل. الخضرة هنا ممتازة فرأيتهم يحصدون الشعير في حين كان النبات مزهرا، واسترعى انتباهي بصورة خاصة كثرة ما يسمونه شجر الأرقان، وهو شجر ينمو تلقائيا دون فلاحة ويستخرج من ثمرته الشبيهة بالزيتون الغليظ زيت يصلح لكافة الأغراض. إن هذا الشجر شائك وعلى ثمرته غشاء رقيق كغراء الراتينج ربما يصلح لأغراض كيماوية، وتستخدم ثماره لإطعام الجاموس بعد عصرها. في هذا المكان بالذات غابة كبيرة جدا من الأرقان ويقتطف البشر منها ما يشاءوا من الثمار. ألا يمكن أقلمة هذا الشجر على البيئة الأوروبية الجنوبية؟ إني أجزم بأن تشجير مناطقنا الجنوبية به لا يقل فائدة عن اكتساب ولاية جديدة.

30 مارس:

رفعنا المخيم في العاشرة والنصف صباحا وسرنا نحو غرب جنوب الغرب، وبعد ساعة خرجنا من غابة الأرقان وأخذنا مسلكا بين تلال من الرمال المتحركة، وأخيرا وصلنا بعيد الظهر إلى الصويرة آخر محطات

رحلتنا هذه. وكنا توغلنا أثناء المرحلة في سهل من الرمل هو في الواقع نسخة مصغرة للصحراء الغربية تجري فيها الرياح بسرعة فائقة وترفع الرمال الرقيقة جدا، وتحركها على شكل أمواج البحر، وتبلغ هذه الأمواج الرملية حجما كبيرا بحيث تستطيع نقل كثيب طوله عشرين أو ثلاثين قدما من مكان لآخر في مدة لا تزيد عن بضع ساعات. ولا يصدق المرء هذه الظاهرة إلا إذا رآها بأم عينيه. على كل حال، ليس من الصحيح أن الكثبان تنتقل بشكل مفاجئ سريع وأنها قادرة على دفن قافلة بالكامل في لمحة العين، والأمر على نقيضه حيث لا يصعب إدراك عملية تدحرج الرمال التي تتراكم تدريجيا بفعل الرياح في محل آخر لا يلبث أن ينمو إلى أن يشكل كثيبا جديدا بينما الهضبة السابقة تصبح مستوية. إن الرمال تطير في الهواء بشدة وغزارة بحيث يضطر الواحد لحماية العينين والفم بدقة وحرص شديدين. وحسب تقديراتي فإن هذه الصحراء المصغرة تحتل حوالي ثلاثة أرباع من الميل ويتطلب عبورها حسن الاهتداء واليقظة لعدم الضياع نتيجة لدوران الرمال وتغير ملامح المكان وسوء الرؤية حيث لا سبيل للتعرف على ما سلك من طريق لأن الرمال تمحو آثار الأقدام ويستحيل الاستدلال بالسماء لأن الرمال تحجبها. إن هذه الظروف تجبر البشر والدواب معا على السير كالعميان باستثناء الجمل الذي يمضي في مثل هذا المسرح بكل براعته، إذ له مميزات وفضائل خاصة به كعنقه الطويل الذي يسمح له بانتشال رأسه من عمق العاصفة الرملية والسلام به، والأجفان السمينة المشعرة شبه المغلقة التي تغطي عينيه ورجليه العريضتين، وظلفيه الخفيفين على هيئة وسادتين، وهو ما يخوله لأن يخطو خطوات أكبر بمشقة أقل مقارنة مع الكائنات الأخرى. هذه المميزات مجتمعة تجعله قادرا على التقدم بسهولة في مواضع يكره

فيها غيره على التباطؤ وبذل الجهد الكبير، ولذلك فإن الجمل المخصص بالفطرة لمثل هذه المهام الشاقة لهو نعمة من نعم الله على البشر، فسبحان الذي خلق الجمل خدمة للأفارقة كما خلق الرنّة خدمة للابون.

الصويرة:

تأسست مدينة الصويرة، وتذكرها الخرائط باسم موغادور، في عهد السلطان سيدي محمد والد السلطان الراهن. وهي مدينة منتظمة الهيئة، بناؤها منسق وحسن الصورة بالقياس إلى ما هو الأمر عليه في جل المدن الإفريقية. سوقها الكبير محاط برواق، ونظمت شوارعها تنظيما متناسقا إلا إنها ضيقة، ويطوقها سور كبير وتحميها في جزئها المطل على اليابسة بضعة مدافع وظيفتها ردع غارات الأعراب. ثمة موضع آخر للمدافع يضم أيضا الهاون ومدفعين صغيرين وكلها مصوبة نحو البحر، ولكنها قليلة الفائدة لأنها وضعت موضعا غير صالح لا يسهل استخدامها. الميناء مؤلف من قناة تفصل الجزيرة التي تقع جنوب الغرب عن المدينة، وقالوا لي إنه غير آمن ومع ذلك رأيت فرقاطة بريطانية راسية فيه. ولاحظت كذلك عند مدخل الميناء موضعين آخرين للمدافع تحتل المسافة الفاصلة بينهما مستودعات كبيرة حسنة الإنشاء. قطر الجزيرة التي تشكل الميناء حوالي ميل واحد وتبعد عن اليابسة نصف ميل تقريبا، وهي مخصصة لإيواء سجن وفيها مدافع شتى. وعلى الرغم من استحكاماتها المذكورة فإن الصويرة لا يمكن أن تصمد أمام هجوم مستمر، فلا مورد للماء لها غير مياه النهر الذي يبعد عنها أكثر من نصف الميل.

الإقامة في الصويرة مملة غير مغرية، إذ تحاصرها صحراء ذات رمال متحركة يستحيل التنزه فيها ولا حدائق داخلها والمنتزه القريب الوحيد هي الجبال المكسوة بغابات الأرقان الكثيفة الفاتنة وهي على بعد

يزيد عن نصف الميل. ويقيم فيها نواب القناصل وتجار قادمون من عدة بلدان أوروبية يتمركزون في أحياء خاصة بهم يسكنها أيضا التجار اليهود الذين يتمتعون هنا بهامش أوسع من الحرية بالقياس إلى وضع إخوانهم في سائر أنحاء البلد فيلبسون على الطريقة الأوروبية وهم أكثر سكان المدينة ثراء، ولكنهم بدأوا مؤخرا يدفعون هذه المزايا ثمنا غاليا إذ ازدادت تحرشات السكان بهم.

تقلبت الأحوال الجوية أثناء إقامتي فيها ودامت عشرة أيام، ولكني ظفرت مع ذلك بأرصاد ناجحة خولتني تحديد درجة العرض في 31 و32 دقيقة و40 ثانية شمالا والطول في 11 درجة و55 دقيقة و45 ثانية غرب مرصد باريس. وأكرمتني قبائل هاها وشرمة وسوس التي تصادفت إقامتي في المدينة- مع وجودها فيها- بعرض شيق لمهاراتها الفروسية إذ نظمت سباقا للخيل واستعراضا لقدراتهم القتالية على المواجهة في حلبة الصراع، يطلقون النار ويثيرون ضجة مدوية. وأخذوني كذلك يوما إلى قلعة من قلاع السلطان تقع في الجبال وسط غابة واسعة، وهناك أقاموا وليمة على شرفي، وعدنا منها برفقة زهاء ألف فارس برهنوا مرة أخرى على براعتهم القتالية الفروسية، وتوجهنا أثناء هذه الرحلة إلى قصر شيده السلطان سيدي محمد في السهل الرملي. وانتبهت أثناء زيارتي للمبنى إلى أن هناك حجرة مغلقة فطلبت فتحها، وإذا بي وشيوخ القبائل المرافقين لي نعثر فيها على صقر كان قد نفذ إليها من ثقب ما، فأمرت بالإمساك به وأخذته معي. وبعد ذلك واصلنا الطريق فعبرنا نهرا ضحلا عثر فيه أحد الجنود على سمك طوله قدمان ونصف القدم كان قد أربكه ضجيج موكبنا ونحن نقطع النهر فاخترقه بسيف وقدمه لي هدية، ولا يسعني هنا سرد جميع التكهنات والتنبؤات ذات الفأل الجيد التي خصوني بها نتيجة لطريقة العثور على الصقر والسمكة.

العودة إلى مراكش:

في أعقاب فترة الاستمتاع هذه في الصويرة قفلت إلى مراكش بحاشية من خمسة عشر فارسا يقودهم ضابط، وعندئذ شرعت في استعمال المظلة التي يحملها فقط السلطان وأبناؤه واخوته فهي ممنوعة على غيرهم. وشققنا طريق الذهاب نفسه، وبما أن سمعتي كانت تسبقني دائما فخرج جميع من في الدوارات المجاورة للطريق لاستقبالي، وهكذا اصطف الرجال المسلحون على متن أحصنتهم يحيونني ويهتفون لي "الله يبارك عمر سيدنا"، في حين وقف خلفهم الشيوخ والصبيان يقدمون لي جرة كانت مليئة في معظم الأحيان باللبن، وكنت أنا أتناول المشروب وأحتسي منها تطبيقا للعرف السائد عندهم. وألح كل من التقيت به في رحلة الإياب على البقاء عندهم، فيما النساء المختبئات في خيامهن يزغردن، ومن نافلة القول إني لم أتمكن من الاستجابة لكل الدعوات، لاسيما وأن هناك أهالي قطعوا مسافات طويلة فقط لرؤيتي، وفي هذه الحالة فإنهم يطلبون مني أن أدعو لهم فأؤدي الصلاة من أجلهم ثم يعبّرون عن جزيل شكرهم بالركض والسباق على مطاياهم وهم يطلقون النار. وفي الليل كان شيوخ الدوار أو القبيلة يزورونني في مخيمي وهم محملون بكبش أو قدر من الكسكس أو الشعير أو الدجاج أو الفاكهة، وكنت أنا أرد على هداياهم هذه بدعوتهم إلى تناول الشاي واستضافتهم ساعة أو نصف الساعة ثم يغادرون معتزين بكرمي معهم والحفاوة التي استقبلتهم بها. وفي الصباح قبيل رحلتي تتكرر السباقات وإطلاق النار وزغاريد النساء، وهكذا سارت رحلة العودة إلى مراكش التي دخلتها لمرة الثانية يوم الثلاثاء الموافق لـ15 مايو.

15
وصف مراكش/الأولياء/ أهم أولياء المغرب/ قصر السلطان/ اليهود/ البساتين/ الغراب/ المجذومون/ جبال الأطلس/ البربر

إن مراكش العاصمة القديمة للمملكة المعروفة بالاسم ذاته، ما هي اليوم إلا صورة باهتة للمدينة التي ازدهرت وتألقت في زمن ليس ببعيد وذلك نتيجة للاقتتال والطاعون اللذين جرداها من جل لمعانها ونسبة كبيرة من سكانها، إذ أن مراكش وهي الآهلة في أيامها الذهبية بما يناهز سبعمائة ألف نسمة طوروا الزراعة والفنون والتجارة، أصبحت اليوم لا يسكنها سوى ثلاثين ألف نسمة، ومما يبرهن على مجدها الضائع السور المحيط بها الصامد على الرغم من الدمار والمآسي، ويحيط هذا السور بمساحة قدرها ثلاثة فراسخ تكثر فيها البساتين والمباني الخربة. وعلى الرغم من أن واجهات المنازل متناسقة ومنظمة على شكل شوارع إلا أن هناك أماكن كثيرة خالية لا مباني فيها. وبعد إجراء تقديرات فلكية عديدة تمكنت من تحديد موقع منزلي المعروف باسم بن حامد الدكالي والواقع في وسط دائرة السور، وهو 9 درجات و55 دقيقة و45 ثانية عرضا غرب مرصد باريس أما الطول فهو 31 درجة و37 دقيقة و31 ثانية شمالا، وتحدد الميل الزاوي في 20 درجة و38 دقيقة و40 ثانية غربا.

شوارع مراكش غير منتظمة من حيث عرضها، فكثيرا ما نجد الشارع الواحد يضيق أو يتسع بصورة اعتباطية. إن مداخل المنازل الكبرى تتخذ شكل الزقاق الضيق الوعر الذي يكاد لا يسع لحصان واحد والسر في ذلك تسهيل الدفاع عنها في حالة اندلاع انتفاضات شعبية أو مواجهات مسلحة بين الأشراف المتنافسين على السلطة، وما أكثر هذه

المواجهات، والواضح أن أربعة أو ستة رجال يستطيعون حماية هذه المنازل بسهولة. مثل هذا الغرض الدفاعي يفسر أيضا تزود المباني بالمزاغل ولا غرابة أن تشبه المنازل، بما فيها منزلي، حصنا منيعا في قلب المدينة. أما نمط الهندسة المعمارية المتبع هنا فهو مماثل لما ينتهجون به في مدن المملكة الأخرى، إذ تتألف الدار من الفناء والرواق وحجرات عالية وملتصقة لا ينفذ إليها الضوء إلا من خلال أبوابها، لأنها مجردة من النوافذ. ويوجد في دور الوجهاء فناءان أو أكثر وارتفع عددها إلى خمسة في داري، ومن النادر جدا أن تلحق النوافذ بالواجهة المطلة على الشارع. فيما يتعلق بمواد البناء فالطوب هو السائد وإن كانت بعض المنازل مبنية من الحجر. تحتضن مراكش ميادين وساحات كثيرة تتخذ أسواقا، وهي كالشوارع غير مرصوفة أو مبلطة مما يعرقل السير فيها لا سيما في حال هطول الأمطار وما ينجم عنه من وحل، وكذلك في موسم الجفاف وما يثيره من غبار.

من ضمن مساجد مراكش المتعددة تبرز ستة سنخص ثلاثة منها بالذكر: الكتبية والمواسين وبن يوسف. جامع الكتبية يقع موقعا منفصلا في وسط مكان خال، وهو جامع أنشئ إنشاء أنيقا في حين أن مئذنته العالية شبيهة جدا بصومعة حسن بسالي. بدوره، شيد جامع بن يوسف قبل ستمائة واثنين وخمسين عاما ولا بأس به من حيث الرونق مع أنه اختلط به الأسلوب القديم بالجديد نتيجة لأعمال الإصلاح والترميم التي تعرض لها على مر العصور. أما جامع المواسين وعمره ثلاثمائة سنة فهو قريب من مسكني. إنه عظيم حقا ويعمل فيه عشرة من رجال الدين يتقاضون راتبا زهيدا رسمه السلطان وفقا لميزانية الجامع، ونظرا لقلة أموالهم فإنهم يضطرون شأنهم شأن جميع القيمين على المساجد في البلاد إلى سد الرمق في أعمال شتى والشعوذة وبيع الطلاسم والتعاويذ الخاصة بمعالجة الأمراض وآثار السم والجروح وشر العين وغيرها من المصائب. وشتان

ما بينهم والنبي محمد العظيم الذي لم يزعم قط أي قدرة على القيام بالمعجزات، إذ صرح علنا بأن عيسى بن مريم هو من أنزل الله عليه هذه القدرة الخارقة وليس هو.

الأولياء:

إن ولي المدينة هو سيدي أبو العباس، وعلى غرار مسجد مولاي إدريس في فاس يتألف المعبد المكرس له من قاعة مربعة تغطيها قبة ذات ثمانية أضلاع وأعمدة مزخرفة، وهذه القبة مكسوة بالقرميد الملون. وعلى ضريح هذا الولي المراكشي أقمشة من الحرير والصوف وبجانبه صندوق التبرعات، وبعض الحيطان وضعت عليها الفرش المطرزة. وتوجد بجوار المسجد بضعة أفنية يسكنها الفقراء على الأخص المرضى والمعوقين والعجزة منهم. مشاهدتهم على هذه الحالة أمر مثير للاشمئزاز فمشهد دائهم وفاقتهم يزداد سوءا نتيجة لعدم التوفر على الشروط الصحية والنظامية المتبعة في أوروبا في مثل هذه الحالات. ويكتظ المكان بألف وثمانمائة بائس من كلا الجنسين يقتاتون بواسطة التبرعات وأموال المسجد. ويتخذ هذا المزار كذلك مأوى للبؤساء المضطهدين من السلطة الاستبدادية فيمكنهم التفاوض معها في مأمن ودون أن يمسهم أحد بسوء، وعلى الرغم من عدم وجود أي قانون يعترف لهم بهذا الحق فإن الرأي العام يساندهم في ذلك، فويل للسلطان إذا سولت له نفسه أن يخالف رأي الشعب فلا شك أنه سيواجه عصيانا مدنيا. والحق يقال إن هذا العرف مفيد للسكان في بلاد كهذه يسود فيها البطش والجور ويحرم المواطنين فيها من أدنى حقوقهم. ويلقب القيم على هذا المزار بالمقدم على غرار لقب الوالي على مولاي إدريس في فاس، ويحظى هذا المقدم باحترام شديد بل يعامله البعض معاملة القديس.

أهم أولياء المغرب:

استرسالا في هذا الموضوع فإني سأعطي لمحة عن الرجلين اللذين يعدان أكبر أولياء المملكة في الوقت الراهن، وهما سيدي علي بن أحمد المقيم في وزان، وسيدي العربي بن المعطي الساكن في تدلة. يمكن القول بأنهما يقرران مصير المملكة حيث يعتقد أنهما يجلبان نعم السماء على البلاد ولا وجود للشيوخ أو الباشوات أو مندوبي السلطان في المناطق التي يقطنانها. هذه المناطق معفية من الضرائب ويمتثل سكانها لأوامرهما في ظل ما يشبه النظام التيوقراطي المستقل. ومما يدل على علو شأنهما أن مندوبي السلطان يأخذون بتعليماتهما ونصحهما عندما يزورون مناطقهما. ويدعو الاثنان إلى طاعة السلطان والحفاظ على النظام العام والبر والإصلاح ويتلقيان عطايا وتبرعات ثمينة، ولا أتصور امرأة واحدة تتخلف عن استشارتهما إذا جابا منطقتها. وإذا خرجا إلى مكان ما رافقهما موكب من الفقراء المعدمين يسبحون بالله ويمجدون الأولياء الصالحين كما يتبعهما جمع غفير من الرجال المسلحين المستعدين دائما للدفاع عن قضية الله بالبنادق.

وذكرت آنفا أن نعمة الولاية تنتقل بالوراثة في بعض العائلات، فوالد سيدي علي كان وليا معظما، وكذلك بدأت القدسية تظهر على نجله سيدي بن التهامي. وبما أن هذه النعمة يمنحها الله لمن يشاء من خلائقه الضعيفة فالأولياء هنا يستغلونها بمنتهى الفعالية، فقد أحاط سيدي علي نفسه بمجموعة هائلة من السراري الزنجيات، ونسبة لا تحصى من الأبناء، في حين احتفظ سيدي العربي بزوجاته الشرعيات وجواريه العاديات، يضاف إليهن ثماني عشرة زنجية تنال كل واحدة منهن، وسبحان الله الذي يجعل عباده أصحاب الفحولة، حظا من وليهن مرة واحدة في الأسبوع!

وسعدت في أحد أسفار سيدي علي إلى مراكش بلقائه حيث أزال

بتعليماته بعض الشكوك المثقلة على ضميري الرقيق. وأهديته هدية تقدر بألف فرنك وخلع عليّ بالمقابل جلد أسد رائعا كان يستخدمه للصلاة منذ ثلاثة عشر عاما، ثم أعطاني قدرا كبيرا من الحلوى وزجاجة من شراب الليمون يشربه عادة مع الشاي، ولم يفتني الثناء على هذا المشروب حين دعاني لتناول الشاي معه. وبما أنه يبقي نفسه على هامش ملذات الدنيا فإنه استثمر الأموال المسلمة إليه وكذلك التبرعات القيمة في شراء البنادق وغيرها من الأسلحة لتسليح مرافقيه المكلفين بحراسة الإيمان. ولا بد من التنبيه إلى قسمات الرجل الذي ربما يناهز عمره الخمسين، والحق يقال إنه يبدو رسولا، فوجهه مدور ووجنته مضرجة وعيناه لامعتان ولحيته قصيرة وشيبة كالثلج وقامته قصيرة ومتناسقة بإحكام فسبحان الله. أما لباسه فهو واحد لا يلبس غيره، وهو نوع من القميص أو القفطان الصغير المصنوع من الصوف الأبيض، وعمامة ليست كبيرة، وما يشبه الحائك من الصوف الأبيض يغطي رأسه ويتدلى من الوراء وعلى الجانبين على غرار عباءة صغيرة. صوته شبه الأنفي لا يخلو من الرقة واللطف بفضل طراوته الإلهية. ويقتفي نجله إثره فتفوح منه رائحة القدسية مهما كانت سنه صغيرة إذ لا يتجاوز السادسة والعشرين، ولكنه يفوق أباه طولا وحجما وبشرته أكثر احمرارا. يصطحب الشيخ نجله هذا وغيره من أبناء نسائه الزنجيات عند رحلاته التي يستخدم فيها منقلة مديدة توضع بين بغلين ويتمدد عليها إذا أصابه تعب من الابتهالات التي يرفعها باستمرار إلى السماء لأجل خير البلد.

لم تتح لي فرصة التعرف على سيدي العربي فبقي في تدلة ولكني التقيت أحد أبناء أخيه وقد زارني لنقل تحياته الخاصة. إن شكله مفعم بالحياة أيضا وجسمه سمين جدا بحيث يصعب عليه التنفس، وأكد لي بعض الناس أن أباه يفوقه طولا وبدانة وهو ما يدل على أن الصيام والزهد لم يؤثرا في صحة أوليائنا الأكابر وعافيتهم. ويجيد سيدي العربي

الفروسية وإطلاق النار بالبندقية فها هو برهان آخر على نعمة الله عليه. لشديد الأسف نشب خلاف بينه وبين السلطان مولاي سليمان لأنه حول مسجدا كان السلطان قد أمر ببنائه في تدلة إلى اسطبل للمطايا ولا شك أن السلطان تقاعس عن الوفاء بتعهدات قطعها للولي، وحاول السلطان حل القضية بإرسال ألف قطعة من الذهب فرد السيد العربي عليها بهبة من ألف كبش. ونرجو للسلطان أن ينال برهان التوبة، ورحمة الرحمن بوساطة ولينا الصالح!

قصر السلطان:

المدينة لها تسع بوابات ويحميها سور سميك شاهق مستحكم بالأبراج المشرفة على الخارج ما عدا الأبراج القريبة من القصر وهي مطلة على الداخل مما يشكل نوعا من القصبة، وجميع الأسوار مصنوعة من الطوب والقير. ويقع قصر السلطان خارج نطاق المدينة من جهة جنوب الشرق، ويتألف من مجموعة من الأبنية الواسعة جدا تحتوي على الحجرات الخاصة بالسلطان وأبنائه ومولاي عبد السلام و فيلقا بالكامل من النساء المملوكات لهم، أما الباقي فيحتله عدد من البساتين والحدائق وغرف الخدم والحراس وموظفي البلاط، يضاف إليها مسجدان وساحات وأفنية شاسعة يقيم فيها السلطان مجالسه العلنية المسماة هنا مشاور. وتشكل هذه المتاهة من المباني والحجرات والساحات مدينة بذاتها يبلغ قطرها فرسخا ونصف الفرسخ تقريبا، ويتطلب الوصول إلى القصر عبور الساحات الثلاث التي يترأس فيها السلطان المشاور، ثم الانتقال إلى فناء آخر مخصص للحراس، ومنه إلى فناء آخر يتوسطه ما يدعونه هنا "قبة"، وهي بيت صغير مربع الشكل ومفروش من الداخل بالبسط والوسائد، وهو البيت الذي يجلس فيه ضباط الحاشية في انتظار أوامر السلطان. وبعد هذا

وجب النفوذ إلى دهليز يقف فيه خدم السلطان وحرسه، وأخيرا حديقة فيها قبتان صغيرتان على شكل كوخ من الخشب، يستخدم السلطان إحداهما لاستقبال الزوار. أما الحديقة فهي مربعة الشكل وتزخر بأشجار البرتقال وهي مزدانة بالزهور والنبات الطيب الأريج، ولا تدخلها النساء فلهن حدائق أخرى خاصة بهن ممنوع دخولها على الرجال. ورأيت بين القبتين منصة صغيرة قد وضعوا عليها مزولة صغيرة، وذات يوم كانت معداتي معي قدرت موقع الشمس ورسمت علامة على القاعدة لتعديل موضع الشاخص الذي كان مائلا، وجرت هذه العملية في حضور السلطان.

في يوم من الأيام أخذني السلطان إلى القصر ودلني على غرف جميلة بنيت على الطريقة الأوروبية ذات شرفات تطل على الحديقة، وأراني كذلك صالة كبيرة مربعة رائعة هي الأخرى خالية من الأثاث ما عدا الفرش المطرز. إن هذه الحجرة الواقعة في الطابق الأول جميلة جدا ولكنهم قد ألحقوا بها سلما قبيحا مظلما رديئا شوّه جمالها. ويوجد في الحديقة نفسها ممر داخلي للذهاب إلى بيت مولاي عبد السلام الواقع في الطرف الآخر من القصر. ولا أثر للحراس في هذا الممر وتبقى أبوابه مغلقة باستمرار ولا تُفتح إلا للسلطان ومولاي عبد السلام وأنا، ولا يُسمح لأحد سوى نحن الثلاثة بالمرور بها إلا بتصريح خاص من السلطان. ويوجد بستان أيضا أمام بيت مولاي عبد السلام وهو بيت كبير كذلك.

حارة اليهود:

يقع الملاح أو حارة اليهود بين القصر والمدينة، ويحيط بها سور يبلغ طوله نصف فرسخ، والحارة فقيرة شأنها سائر أحياء المدينة، وفيها سوق واحدة حسنة المؤونة، ويقفل بابها جميع الليالي وأيام السبت ويحرسه قائد. ويسكن في الملاح زهاء ألفي يهودي وفرض على جميع

اليهود رجالا ونساء دخول المدينة حفاة ويعاملهم السكان باحتقار. يرتدون الملابس السوداء ولا يقل مظهرهم شقاء عن مظهر إخوانهم في طنجة. رئيسهم الذي زارني بعض المرات وبدا لي رجلا خيّرا يلبس أيضا الرداء الرث. أما نساؤهم فيسرن في الشوارع سوافر ويتميزن ببهاء خاص، بل حسبت بعضهن من الحسناوات الفاتنات ومعظمهن شقراوات. إن وجوههن الناضرة المتألقة المضرجة بالورد والياسمين جديرة بإبهار الأوروبيين. نعومة ملامحهن ورقة قسماتهن وبهاء عيونهن وكثرة مفاتنهن لا يضاهيها شيء، ولكنهن لا يسلمن مع ذلك من الازدراء والإذلال، بل يجبرن هن الأخريات وعلى الرغم من أن حسنهن يجسد قمة المثال الإغريقي الكلاسيكي في الجمال، على السير بدون نعال والسجود على أقدام الزنجيات المزينات بالجوهر اللواتي ينعمن بحماية أصحابهن المسلمين. ذكور اليهود وسيمون في شبابهم غير أنهم يزدادون قبحا مع تقدمهم في العمر، ولذلك لا يكاد المرء يصادف واحدا يثير شكله الإعجاب... هل مرد هذه السماجة إلى معانات هذه العبودية الفظيعة التي يعيشون فيها؟

إنهم يمتهنون عددا محدودا من الحرف كصناعة الفضة والصفيح والخياطة وكل هذه المهن ظلت حكرا عليهم في مراكش، في حين يعمل المسلمون إسكافيين ونجارين وبنائين وصناع أقفال ونساجي الحائك.

البساتين:

كانت مدينة مراكش في السابق تحيط بها بساتين ومزارع تمتد امتدادا بعيدا في الآفاق. ومن أجل ريها سيقت المياه من آلاف الينابيع الواقعة في الأطلس عن طريق القنوات والمجاري المكشوفة وكذلك القناطر والأنابيب تحت الأرض. أما اليوم فلم يبق من كل هذا سوى

الأنقاض والبقايا مما يجعل المرء المثقف الحساس يتألم ويشقى وهو يشاهد كل هذه الأنقاض المبعثرة على أراض جدباء يابسة كانت في يوم مضى بستانا غزيرا بالماء. على كل بقيت هناك قنوات ما زالت تحمل الماء وتجلب الخضرة والبهاء إلى كثير من البساتين. إن الأنبوب تحت الأرض الممتد إلى حي سملاليا كان واسعا بحيث يستطيع الرجال المكلفين تنظيفه السير داخله مسافة طويلة دون أن ينحنوا، ويضاف إلى ذلك أن الماء يمتاز بالجودة.

إن النبات الأكثر غزارة هنا هو النخل المتوفر في الضواحي والشاهق الطول، إلا إن ثمرته التمر أسوأ من تمر تفلت ولا يمكن حفظه يابسا طوال السنة، ويسميه أهل المدينة البلح. وتزدهر حارة اسميلاليا وما خارجها بالنخل وأنا نفسي تلذذت في حديقتي الخاصة بـ(جُمار) الجذع وهو لُب لذيذ حقا.

الغربان:

يقطن في إحدى غابات النخل الكائنة بين سميلاليا ومراكش سرب من الغربان لها عادات طريفة فريدة من نوعها، فيغادر كل طير في الصباح بحثا عن لقمته في أماكن بعيدة جدا وكل واحد على حدة ولا يبقى واحد في الغابة. ثم، في المساء، تعود الغربان مرة واحدة فتجتمع على النخيل بالآلاف حيث تشرع في إطلاق صيحات مدوية سرعان ما تتحول إلى ضجيج جهنمي وكأنها بصدد التحاور فيما بينها بشأن مغامراتها اليومية، ولاحظت تكرار الظاهرة في الشتاء والصيف. وعلى الرغم من زياراتي إلى هذا المكان فإني لم أتمكن من رؤية الغراب ذي الرجلين الحمراوين الذي يؤكد الباحثون وعلماء الطبيعة أنهم اكتشفوه هنا.

المجذومون:

يوجد على مقربة من غابة النخيل هذه حارة منعزلة تسكنها عائلة أصيبت بعاهة تشبه الجذام وتنتقل أبا عن جد، ويعزل من ثبت عليه أعراض المرض عن المجتمع فيضطر إلى الإقامة هنا حيث لا يجرؤ أحد على الدنو منهم.

جبال الأطلس:

تشخص من مدينة مراكش جبال الأطلس المكسوة بالثلج، وبدا لي أنها ترتفع زهاء 13 ألف قدم على سطح البحر ولا يمكنني أن أجزم بهذا التقدير لأن قياسا دقيقا كان يتطلب مني إخراج المعدات والقيام بحسابات خاصة بالمثلثات وهو الأمر الذي كان سوف يفزع بدون أدنى شك شرذمة الهمجيين المحيطين بي. وتوازي سلسلة الجبال هذه مراكش من جنوب الغرب باتجاه شمال الغرب، إلا إن الجزء الأقرب منها يقع جنوب المدينة ولا يبعد أكثر من حوالي ستة فراسخ، وتتوغل داخل القارة الإفريقية نحو الجزائر وتونس لغاية ضواحي طرابلس. وسنعود لاحقا للحديث عن جبال الأطلس في مناسبة أخرى. أما المدينة فالصورة التي تبدو عليها تبعث على الأسى بسبب الحروب والأوبئة التي أخلتها من سكانها وحالت دون تطور النشاط التجاري فيها. إن الأطعمة أرخص منها في طنجة وفاس على الرغم من أسعارها الزهيدة فيهما. وإذا كان الوضع المادي على هذا المنوال من البؤس فلا سبيل لتطوير العلوم والفنون، خاصة وأن المدينة تفتقر إلى مدرسة ذات شأن. ومما يبرهن على انحطاط المدينة السريع المدهش، الأسوار الخربة والأنقاض والسواقي والقناطر المهملة والمقابر

الكثيرة المطوقة لها. ولا وجه للمقارنة بين قيصرية مراكش ونظيرتها في فاس إلا أن عرب الجبال يختلفون إليها للتزود بالمؤن والسلع مما يضفي قدرا من النشاط والحيوية عليها.

البربر:

يتميز سكان الجبال النازلين إلى المدينة للتسوق بقصر قامتهم ونحافتهم وبشرتهم السمراء وهيئتهم القميئة، ويطلق عليهم اسم البربر، ويشكلون قوما متميزا. وإن كان جلهم يجيدون اللغة العربية كسائر سكان المملكة فإن لغتهم شتان ما بينها والعربية باستثناء مجموعة من المصطلحات المأخوذة منها. ويجري في الجبال التداول بلهجات عدة إلا أن جميعها فقيرة للغاية، فالمفردات العربية غالبة عليها لدرجة أنه يمكن التنبؤ بأن البربرية ستزول عن الوجود في غضون بضعة قرون. وقيل لي إنهم يستخدمون الأبجدية العربية لتدوينها ولكني لم أوفق في العثور على كتاب واحد مكتوب بهذه اللغة مع كل ما بذلت من جهد.

16
مرض علي باي/ نبذة عن طبيعة البلاد/ الخسوف وعودة السلطان/ هدية السلطان/ إعلان الرحلة إلى مكة/ الانطلاق إلى البيت الحرام

أصبت أثناء إقامتي في سميلاليا بداء كاد يقودني إلى مشارف الهلاك، وتعرضت لخمسة انتكاسات في غضون ثلاثة أشهر، وأمضيت فترة مماثلة غارقا في حالة من الإعياء الشديد مما منعني من إجراء أبحاثي المختلفة، بل فرض عليّ البقاء في قصري في سميلاليا، وخلال هذه المدة لم يزرني طبيب واحد لأني لم أرغب في استدعاء الأطباء المحليين ولم أجد طبيبا أوروبيا، ولذلك اضطررت لمعالجة العلة بوسائلي الخاصة والاعتماد على الدواء والعلاج اللذين صنعتهما أنا بنفسي. لحسن الحظ لم أفقد الوعي قط أثناء صراعي الشخصي مع المرض، ورغم الإرهاق انتهزت أي فرصة للوقوف على رجليّ والقيام بأرصادي الفلكية وكذلك دارسة أحوال النبات والزرع.

نبذة عن طبيعة البلاد:

لاحظت أن شجر الرمان تنضج في عز أغسطس وكذلك المشمش والنخل والزيتون، وتم في الشهر ذاته حصاد الشعير. وبدأ موسم التين في أواخر يونيو وطال إلى منتصف أغسطس. وزخرت الحقول بالشمّام والبطيخ في يوليو كما ظهر أول تمر تفلت عند نهاية أغسطس. وأغرقت الأسواق في منتصف الشهر ذاته بكميات ضخمة من العنب والقرع والفلفل والطماطم وغيرها من الخضار، وتم جني القمح في غضون هذين الشهرين.

في الحادي والثلاثين من يوليو قَتل أعواني في بستاني الصيفي ثعبانا يزيد طوله على ستة أقدام ويبلغ عرضه الأقصى خمس بوصات. وبدا لي شبيها بالنوع المعروف بكولوبير مولوروس أو "بواء" إلا أن رأسه كان مصبوغا ببقع كبيرة جعلته أقرب إلى نوع "ايستيتالي". وعندي أنه كان من الأنواع غير المعروفة، ولكني ولسوء الحظ لم أتمكن من فحصه أو تصويره لأن الشريعة تحظر لمسه لكونه كائنا نجسا قذرا، ولذلك فإن حاشيتي كانت سوف تعتبرني زالاً إن فحصته. بالتالي، حثني من معي من الأعوان على التخلص من مثل هذا الكائن الفاتن الجمال الغريب الفذ... كيف ستتطور العلوم الطبيعية في البلدان الإسلامية وهي متمسكة بمثل هذه المعتقدات؟

في ذلك اليوم نفسه جاءت رياح جنوب الشرق مصحوبة بما يشبه الضباب المرتفع العلو المرعب الحضور. وكانت السماء صافية وذات لون رمادي، وبدا لي الأفق خطا أحمر يحيط بنا من كل الجهات على ارتفاع قدرته بست درجات. أما قرص الشمس فكان بدون لمعان وكأنه بالونة من الجص أو أسطوانة من الورق الأبيض. وسجل ميزان الحرارة 36 درجة وكان الجو خانقا. واستمرت الأحوال على هذه الصورة طوال النهار، ولا شك أن رياح السموم الصحراوية هي المسؤولة عن هذه الظاهرة، وحالت جبال الأطلس دون انتشارها إلى المدينة. وأصبح الجو في اليوم التالي بقدر أكبر من الانجلاء، وعلى الرغم من أن أشعة الشمس نفذت الهواء بصعوبة إلا أنها لم تلمح باهتة اللون كما في اليوم السابق. وأصبحت السماء بعد يومين غائمة عكرة وهبت الرياح شديدة وقامت العواصف الرعدية. وأُكّد لي أن الأمطار والعواصف لا تحدث أبدا في هذا الموسم إذ أنها لا تبدأ قبل شهر أكتوبر.

يمكن العثور على ثمار العنّاب في وسط أغسطس وفي القسم الأخير

من الشهر نفسه ينضج السفرجل، ويبدأ الرمان بالنمو قبل قطفه في منتصف سبتمبر. ويظهر التمر في أوساط أكتوبر، ويتم جنيه في نوفمبر، وهو شهر حصاد الزيتون. وأخذت أوراق الشجر بالسقوط في منتصف أغسطس، ولكن العملية سارت ببطء شديد حيث أن ثلثي الأوراق ما زالا على أغصانها عند بداية ديسمبر. وكان بستاني في ذلك الموسم ذاته زاهرا بالنبات والفجل والبصل والثوم والخسّ والفول والملفوف والجزر الأبيض، وكان الشعير قد نما نموا كبير. وبعد عواصف أغسطس هدأت الأحوال الجوية ولم تتخللها سوى أمطار متفرقة لم تكن كافية لشفاء غليل الأراضي التي جفت ويبست فلم يتسن زرع البذور في شهر نوفمبر، وربما حالة الجفاف هذه هي ما أدى إلى إبطاء سقوط أوراق الشجر، وأضر النقص في الأمطار إضرارا خاصا بولاية دوكيلا التي تعد مركز البلاد الزراعي.

يسود هنا القول بأن طير اللقلق يهاجر صوب السودان في شهر أغسطس، ولكني احتفظت بثلاثة في ضيعتي الصيفية كنت قد قصصت أجنحتها فلم تغادر المكان بل ظلت وديعة ترافقني إذا خرجت إلى البهو أو السقيفة لأتناول طعامي فيها، وعلى الرغم من أن أجنحتها عادت إلى حجمها الطبيعي مع مرور الزمن إلا أن الطيور الثلاثة ما برحت مكانها.

الجو فجرا وليلا بارد جدا في نوفمبر مما يؤدي إلى حالات عديدة من الزكام. هذا الطقس يتسبب كذلك في زوال الضفدع والعلجوم. في العاشر من نوفمبر عُثر على عقربين تحت وسادة سريري. أما الذباب فهو كثير حتى منتصف نوفمبر، ثم يأخذ بالانخفاض إلى أن يغيب كليا في أواخر الشهر نفسه. وكان الناموس قد اختفى في أكتوبر. ورأيت في الثامن عشر من ديسمبر لقلقا يحلق فوق مزرعتي دون أن يبدر أي حراك من طيوري الثلاثة. وبما أن مراكش كانت خالية حينذاك من اللقالق فلم

يستطع أحد تحديد مصدره، والغريب في الأمر أنه بدا وكأن الطير مقيم في المنطقة فلم يكن عابرا بل توجه إلى شمال الشرق بعد أن حلق فوقنا. إن هذه الحادثة دفعتني إلى التساؤل هل هناك أفراد من هذه الفصيلة تبقى مختفية في هذه البلاد أثناء الشتاء؟ وربما اضطر الطائر إلى الخروج من مخبئه نتيجة للرياح العاتية التي هبت ذلك اليوم وأدت إلى إعصار في الصباح.

بدأت الأمطار في التاسع عشر من ديسمبر، وتساقطت الأوراق بغزارة إلى أن تجردت الأشجار منها مع حلول الشهر الجديد.

في الحادي والثلاثين من ديسمبر أشرقت الشمس محاطة بتاج، غير مكتملة الدائرة، وهي ملونة بجميع ألوان قوس القزح وكلها زاهية في مساحة قطرها عشر درجات وذات لون أبيض كالدائرة القمرية في مساحة من مائتي درجة، أما الباقي فكان غامضا. واستمرت الأمطار واكتمل الحصاد في نهاية ديسمبر. وأرعدت السماء في الثلاثين من ديسمبر، وكان الرعد الأول مرعبا ودام دويه أكثر من دقيقتين. وجرت الرياح من الغرب بشدة وانخفضت درجات الحرارة أثناء هذا الشهر وسجلت دنياها في الثامن عشر من ديسمبر عند الخامسة صباحا، إلا أن الجو كان في ذلك اليوم نفسه باردا جدا. وكان ميزان الحرارة الموضوع تحت أشعة الشمس قد أشار إلى 29,5 درجة في الأول من يناير.

كانت في المزرعة أربعة غزلان مدجنة تسرح في الحقول وتمضي وقتها في اللعب والقفز مما يشكل فرجة مثيرة للاهتمام. وكان القائمون على البساتين والمزارع يحاربونها محاربة شديدة بدعوى أنها تأكل النبات وتتلف الزرع ولكني كنت أحميها باستمرار لأن المساحة المزروعة كانت واسعة جدا لا تتضرر إلا قليلا جدا من جراء غاراتها. ولما كانت أليفة كاللقالق فلم تفارقني صباح مساء وأنا أتناول الطعام، وهكذا أصبحت

الطيور الثلاثة والحيوانات الأربع صديقاتي المفضلات. وكنت قد قررت منع البنادق والصيد وإطلاق النار من أجل حماية الكائنات الحية كافة والحيلولة دون تدنيس حرمة سميلاليا العزيزة عليّ، وحرصت على توفير ملاذ للطيور والسماح لنفسي أثناء تجوالي بالحقول بالاستمتاع بها والاستماع إلى صداحها وتغريدها بمنتهى الحرية مما حول مزرعتي إلى نوع من الفردوس على وجه الأرض. وكنت أصادف في أوقات الاستراحة أسرابا من الحجل والأرانب تقطع الطريق تحت رجليّ، وسعيت إلى التآلف معها وكسب ثقتها والحقيقة أنها استجابت لمساعي بصورة أفضل من البشر الذي يدعي لنفسه الحضارة والتمدن، إذ كانت العصافير تأتيني لالتقاط فتات الخبز الذي ألقيه لها فتدخل حجرتي بدون أي مانع. وهكذا غدا ستار الغرفة مسكونا بالطيور الحرة المتحررة في بلاد الاسترقاق والعبودية. مع ذلك، لم أفلح قط في ترويض ابن آوى لعين كانوا قد جلبوه منذ حين. قررت بناء بيت صغير له لإفساح مزيد من الحرية له ثم أمرت بنزع السلسلة الحديدية عنه وإيداعه في مسكنه الجديد ولكنه سرعان ما حفر مخرجا تحت الحيطان فهرب من المكان بحذق وذكاء جديرين بكائن عاقل. ولا بد من الإشارة إلى أن ابن آوى هذا كان يتحمس للهروب كلما تناهى إلى أسماعه عويل أخوته القادم ليلا إلى محيط المزرعة، وحيث أن الكلاب التي تبيت داخل المزرعة ترد عليها بنبرة مماثلة من النباح المتعدد الألوان والتقاسيم فإني كنت أقضي ليالي مستمعا إلى هاتين الجوقتين وغالبا ما ينضم إليها نهيق الحمير وصياح الديكة مما شكل سهرة موسيقية غير متناسقة الألحان والأنغام، غير أنها لم تكن مزعجة بل وجدتها مطربة لأن كل شيء كان يجري بصورة طبيعية محضة. وعنّ لي أن شهرة مسكني قد انتشرت في الصحراء إلى أن أصبحت قبلة لجميع الحيوانات إذ لمحت مئات من الغزال ترتاد أسوار

سميلاليا للقفز واللعب، وخُيل إلي في بعض الأحيان أنها كانت تستأذنني الدخول.

خلال مكوثي في السميلاليا حصلت على مجموعة قيمة من النبات والحشرات والأحافير. من ضمن الحشرات برز نوع من العنكبوت اسمه ارانيا غليبوديس، وهو كبير جدا أفزعني أول مرة رأيت واحدا منها حين زحف على بطني وأنا جالس على الأريكة.

الخسوف وعودة السلطان:

لما كنت قد أعلنت عن خسوف لليلة الخامس عشر من يناير من عام 1805 فقد تجمع عدد كبير من الأعيان والوجهاء في منزلي لمشاهدة الظاهرة، إلا أن السماء باتت غائمة، بل أمطرت وأرعدت مما حال دون ذلك. بعد أيام شاع خبر يفيد بعودة السلطان الوشيكة إلى مراكش وأدى هذا الإعلان إلى سرور السكان وبهجتي أنا إذ كنت أتوق للقائه لأستودعه الله والرحيل إلى مكة لأداء فريضة الحج. وفي اليوم المعلوم وفد السلطان فخرجت لاستقباله في مكان بعيد. ظهر راقدا على نقالة وضعت بين بغلين، وعندما انتبه إلى حضوري توقف بالقرب مني وخصني بأصدق علامات المودة والاحترام، وهي المشاعر نفسها التي عبر عنها أخوه مولاي عبد السلام المرافق له. كانت علاقتنا قد تواصلت أثناء غيبته عبر الرسائل ولما استحال علي كتابة الرسائل نتيجة لاشتداد المرض أرسل الموفدين من فاس خصيصا للاطمئنان على أحوالي الصحية. لذلك، عندما تأكدت له حالتي الجيدة وألفاني قادرا على الحراك وامتطاء الحصان فرح بي فرحا شديدا فاستمرت علاقاتنا أثناء بقائه في المنطقة على أحسن صورة.

هدية السلطان:

بعد بضعة أيام فاجأني السلطان بإرسال امرأتين إلي ولكني رفضتهما ما لم أقم بزيارة بيت الله الحرام، وحيث أنهما تعذر عليهما الرجوع إلى حريم السلطان فإن مولاي عبد السلام الخير رضي عنهما في مسكنه الخاص. على كل حال، شعر مولاي عبد السلام بالحرج من جراء تصرفي فكان يخشى إثارة الموضوع أمام السلطان وأمامي أنا نفسي فيما البلاط بأسره مشغول بالأمر يتداول القضية همسا دون أن يجرؤ أحد على إثارتها علنا. لكني أصررت في المقابل على زيارة السلطان بصورة طبيعية وكأن شيئا لم يحدث، بيد أن مولاي عبد السلام لم يعد يتحمل الإحراج فخرج عن طوق الصمت وطلب مني التطرق إلى المسألة فوافقت، وتواعدت معه لليوم التالي في منزله. وهناك استقبلني مولاي عبد السلام برفقة كبير فقهاء السلطان الذي يحظى باحترام شديد ولم يلبث أن شن الاثنان هجوما كلاميا عليّ يعيباننني فيه على عدم قبول امرأتي السلطان. وسعيت للدفاع عن نفسي وإسقاط براهينهما في نقاش طال بضعة ساعات بدا عبد السلام فيه غاية في الانزعاج والقلق فبلغ به الأمر أنه ذرف الدموع وهو ما هزني وجعلني أنتبه إلى ما أصابه من سوء وإحراج نتيجة لقراري، وبما أني كنت أحسب كل الحساب لخطورة وضعه واحتمال تعرضه للمشاكل من أجلي، علما بأن سلامته كانت بالنسبة لي أكثر أهمية من أي تهديد قد يتربص بي، فإني قلت له ويده بين يديّ: "إني أعرف حق المعرفة أنك تقدرني وتعرف بما في صميم قلبي فأخبرني بما يستحسن أن أنفذه فأنا سأمتثل لرغبتك إلا أني أناشدك الروية والدقة وحسن الاعتبار". وأخذ هو بدوره يدي ووضعها على قلبه وبعد

برهة من الصمت خاطبني متلجلجا: "الأفضل أن تُقاد المرأتان إلى منزلك". وأجبت أنا بدوري: "حسنا، ولكن يجب أن تعلم يا مولاي عبد السلام أني لن أقابلهما لأن يوم رحيلي إلى مكة قد اقترب، وإذا أحبتا البقاء في الدار فلتفعلا ولكن دون أن أراهما. وإن كانتا ترغبان في مرافقتي فأتعهد بحمايتهما". وما إن استمع صديقي إلى كلامي هذا حتى ارتمى في أحضاني منتشيا سعيدا فكان قد تقلب من الأسى واليأس إلى غاية الفرح والبهجة، وسالت الدموع على خديه ثانية ولكن هذه المرة لسبب مختلف تماما. اتفقنا على توقيع العقد بشأن المرأتين ذلك المساء نفسه ولكني اشترطت أن يجري الحفل دون بوادر احتفالية ومراسيم خاصة ثم غادرت إلى منزلي. والمرأتان المهديتان من السلطان وهما بيضاء وزنجية اسماهما محنى وتيغمو.

بعد ذلك أمرت بتجهيز حجرة منفصلة لهما في منزلي بالمدينة ونقل البضائع والمؤن من السكر والقهوة والشاي وما شابه ذلك إلى الحجرة، بالإضافة إلى صندوق فيه أنسجة وأقمشة ومجوهرات وكيس فيه قطع نقدية من الذهب. وفي حوالي العاشرة ليلا دخل عليّ القهرمان لإفادتي بوصولهما فأوعزت إليه بقيادتهما إلى الحجرة ثم واصلت حواري مع جلسائي وكانوا كاتبي وفقيهي وصديقين آخرين. وكانت رئيسة حريم مولاي عبد السلام قد جاءت أيضا لمرافقة المرأتين. وبعد تقديم العشاء للرجال والنساء كل منهم على حدة طلبت رئيسة حريم مولاي عبد السلام فمثلت بين يديّ ملتحفة باللحاف كما هو العرف في هذه الحالات، وأهدتني هدية صغيرة. ووضعت أنا بدوري مفتاحا في يدها قائلا: "امنحي محنى هذه المفتاح وقولي لها إني أقدرها إلا أن هناك ظروفا خاصة تمنعني من

مقابلتها. ويمكنها التصرف في كل ما في الغرفة من ممتلكات وبضائع وأنا واثق من أنها ستسهر على تيغمو. أنا ذاهب الآن إلى سميلاليا ولكني سأوكل إلى أحد أعواني الرئيسيين وهو الشريف مولاي حميد بالاعتناء بهما وسيساعده في ذلك خادمان وخادمتان. ولذلك، إن كان لها شيء فلتتوجه إلى مولاي حميد". وعلى الإثر ودّعت رئيسة الحريم التي خرجت وعلامات الدهشة مرتسمة على قسماتها. ثم قررتُ وكانت الساعة منتصف الليل الركوب وأصدقائي إلى سميلاليا حيث استقر مقامي فيما المرأتان بائتتان في المدينة. ولم يمض يوم واحد حتى انتشر النبأ كالنار في الهشيم بفضل الخدم وحاشيتي فدهش الباشا عند سماعه طريقة استقبالي للمرأتين دهشة لم تقل عما كان قد أصابه لما عرف رفضي لهما سابقا، إلا أني واصلت زياراتي إلى السلطان ومولاي عبد السلام وكأن شيئا لم يحدث وذلك لأن المسلمين لا يستحسنون الحديث عن النساء.

إعلان الحج:

أخيرا أفصحت عن نيتي قصد البيت الحرام ولم تثنني عنها محاولات السلطان ومولاي عبد السلام وكافة أصدقائي الذين ذكّروني بمتاعب مثل هذه الرحلة الطويلة مشددين على أن السلطان نفسه لم يؤدها وأن الدين لا يستلزم القيام بها شخصيا وإنما يجوز تسديد كلفة السفر لحاج آخر يؤدي المناسك بالنيابة، وهو إجراء لا يقل فضلا في نظر الله، غير أن هذه الحجج وأخرى مماثلة لن أذكرها فشلت في تثبيط عزمي. ومما يدل على إلحاحهم أن السلطان دخل عليّ صباحا الساعة التاسعة برفقة أخيه مولاي عبد السلام وابن عمه وجميع أفراد حاشيته ولم يغادر حتى

الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر. وعالج السلطان موضوع سفري بضعة مرات ولكني لم أتأثر. وقدمت لهم وجبة الفطور عند مقدمه والغداء قبيل مغادرتهم وأقبل السلطان الحريص على إبداء وده وثقته الكاملة بي على الطعام في كلا المناسبتين، بل شرب القهوة والشاي وعصير الليمون وكتب القرارات وختمها على مكتبي، وخصني بمعاملة أخوية، وأهداني عند خروجه فرشتين مطرزتين رفيعتين. وبعيد رجوع السلطان إلى قصره عاد إليّ معظم أعوانه لتحيتي والسعي مجددا لإبقائي في مراكش بواسطة أسخى العروض والوعود. ولكني تمسكت بقراري، بل أضفت أن الرحيل سيكون بعد ثلاثة عشر يوما ولم يتبق سوى توديع السلطان الذي أقدم على محاولة أخيرة بائسة للاحتفاظ بي مذكرا بالأخطار والتهديدات المتربصة في مثل هذه الرحلة الشاقة، وأخيرا افترقنا والدموع تنهمر على خدودنا. ولم يقل افتراقي لعبد السلام حزنا وتمزيقا للقلب وسوف تظل دامغة في قلبي صورة هذا الأمير الحبيب حتى آخر أيامي.

الانطلاق إلى البيت الحرام:

أهداني السلطان خيمة رائعة من القماش القرمزي والمطرز بالحرير، وكان قد أمر تركيبها أمامه ثم دخل اثنا عشر فقيها أدوا فيها صلوات من شأنها إغراقي بنعم السماء والسلامة أثناء رحلتي. ومنحني أيضا عددا من القرب لحفظ الماء وهو متاع رئيسي لمثل هذه المهمة.

قبيل السفر أوفدت على محنى من يخبرها برغبتي في مخاطبتها ووجوب التحافها بالكامل، ولما استعدت لاستقبالي دخلت عليها في غرفتها وقلت لها: "يا محنى، إني على وشك الرحيل نحو الشرق وإن كنت

تريدين مرافقتي فلن أتخلى عنك ولكن يجوز لك البقاء هنا إن رغبت، فلك الحرية في الاختيار إذ تعلمين أن هذه هي أول مرة أراك وأخاطبك فيها". وأجابت: "إني راغبة في متابعة سيدي". ودعوتها إلى التفكير جيدا في الأمر ولكنها ألحت فأثبتت نيتها وعندئذ توجهت إلى الحضور قائلا: "لقد استمعتم إلى عزيمة محنى فأنتم شهود على كلامها". ثم التفت إليها وختمت: "إنك إنسانة طيبة فتريدين مودتي ولذلك سأحميك دائما. استعدي للسفر معي". وأمرت بتركيب نوع من النقالة تدعى دربوكة، وهي صندوق محكم الإغلاق من كل الجوانب ينصب على بغل أو جمل وتستخدمها نساء الوجهاء. فيما يتعلق بتيغمو فالأمر خلا من كل هذه التكاليف إذ لم يكن الأمر يستدعي سوى أن تلتحف بالحائك، وخصصت لهما خيمة كبيرة لا يمكن لأحد رؤيتهما فيها. ثم انطلقت إلى مكة بعد أن وكلت سيدي عمر باشا حاكم المدينة على إدارة ممتلكاتي في مراكش موضحاً له التعليمات والتوصيات المناسبة.

17
البيت الحاكم في مراكش/ نسبة السلطان/ تكتيك المغاربة في القتال/ ممتلكات السلطان/ الطريق إلى فاس/ رحلة إلى وجدة

دوَّن مؤلفون كثيرون تأريخ ملوك البلاد التي تشكل اليوم مملكة المغرب، وفي رأيي فإن من بين المؤلفات الأوروبية لا بد من إبراز ما كتبه السيد م. شيني القائم بالأعمال للملك الفرنسي لدى سلطان مراكش. ومن المسلم به أن ممالك مراكش وفاس ومكناس وسوس وتفلت ظلت مستقلة منفصلة منذ أيام مولاي إدريس، تحكمها سلالات متخاصمة فيما بينها إلى أن استقر شريف ينبع مولاي شريف في تفلت، فالتفت حوله جميع الممالك اعترافا منها بفضله وامتثالا لشرعه. وخلفه نجله مولاي إسماعيل بعد سلسلة من الحروب، ثم حفيده مولاي عبد الله، وتميز حكمهما بالعنف والقسوة. بعدهما جاء مولاي محمد الأكثر رحمة وحصافة سياسية، ولكنه لا يقل عن سلفيه جشعا وبخلا. أما السلطان الراهن مولاي سليمان فهو أكثر من اعتدل في سياسته من الأشراف الحكام في المملكة. إذ ليس للسلطنة دستور أو قانون أساسي مدون، فلم تحدد رسميا سبل التربع على السدة مما يفرض على الملك الجديد مقاتلة اخوته وغيرهم من المتنافسين في معارك ضارية يسقط فيها الآلاف.

للسلطان الحالي مولاي سليمان ثلاثة اخوة هم مولاي عبد السلام الأخ الأكبر، ومولاي سلامة المنفي الآن في القاهرة إثر تمرده الفاشل على أخيه، ويعيش فيها عيشا بائسا، ومولاي موسى المقيم في تفلت إقامة ملؤها الإباحة والتسيب. إن مولاي سليمان خبير في العلوم الدينية، ويعد فقيها تقيا ورعا يقضي معظم وقته في الصلاة، وتراه يلبس عادة حائكا

خشنا كارها للترف والبذخ، وبما أن نمطه التقشفي هذا طغى على سلوكيات رعاياه فلم يجرؤ أحد، باستثنائي أنا ومولاي عبد السلام، على إظهار أي ظاهرة من الأبهة مهما كانت صغيرة. وعملا بمبادئه الدينية الصارمة أوعز، حالما استقرت ولايته بعد هزيمة أخويه، باقتلاع جميع مزارع التبغ الموجودة في السلطنة، وكانت بعض العائلات ترتزق منها، ومبرر قراره أن الفقهاء المتشددين يعتبرون التبغ وصمة لمن يتعاطاه، لاسيما وأن النبي لم يستخدمه قط، كما أن الشريعة لا تحظر صراحة التبغ. مع ذلك، رأيت مولاي عبد السلام يتعاطاه بكثرة، وكذلك مولاي سليمان نفسه، وإن بصورة نادرة. وانتشرت العادة لدى عمال الموانئ والبحارة، أما السكان فلا يستهلكه سوى قلة قليلة منهم. وأدت صرامة السلطان في المجال الفقهي إلى التقاعس عن الاتجار مع المسيحيين، لأنه يخشى أن يؤدي توطيد العلاقة معهم إلى إفساد المؤمنين الأوفياء وتضليلهم، وتجعل مثل هذه النظرة نمو الروابط التجارية في حكم شبه مستحيل، وهناك أشخاص يملكون من الحبوب والزرع ما يخولهم شحن أسطول كامل من السفن، إلا أنهم يكادون لا يجدون ما يقتاتون به لعدم قدرتهم على بيع منتجاتهم في الخارج. ولا يصعب تشخيص مواطن الشلل والوحشة والشقاء التي تقبع في صدور أبناء بلاد كهذه لا وجود فيها للملكية الخاصة، فكل شيء خاص بالسلطان، ولذلك فلا طاقة للمرء بالتصرف بثمار جهده وريعه كما يشاء، أو للاستمتاع بما كسبه بالحلال والانتفاع به أمام الملأ.

نسبة السلطان:

إليكم الآن نسبة السلطان مولاي سليمان طبقا لقائمة تسلمتها منه وتبدأ باسمه تليه أسماء أسلافه فتنتهي عند النبي:

سليمان/ محمد/ عبد الله/ إسماعيل/ شريف/ علي / محمد/ علي/ يوسف/ علي/ حسن/ محمد/ حسن/ قاسم/ محمد/ أبو القاسم/ محمد/ حسن/ عبد الله/ محمد/ عرفات/ الحسن/ أبو بكر/ الحسن/ أحمد/ إسماعيل/ القاسم/ محمد/ عبد الله الكامل/ حسن/ حسن السبط بن علي بن أبو طالب وفاطمة الزهراء بنت النبي محمد.

إن مدينة تفلت تضم أكثر من ألفي شريف، يعدون أنفسهم أصحاب الحق لاعتلاء سدة الحكم، ويكافئهم السلطان بمكافآت قليلة لأنهم ينتمون إلى عائلته. ويقدم هؤلاء على إشهار السلاح كلما توفي السلطان وشغر العرش، وهي عادة تغرق البلاد في الفوضى والانفلات، لاسيما وأن السلطنة ليس فيها جيش بالمعنى الدقيق قادر على دحر حركات العصيان المتفرقة.

تكتيك المغاربة في القتال:

طريقتهم القتالية واحدة لا تتغير في كل المعارك، وتتمثل في الاقتراب من العدو على بعد خمسمائة خطوة، ثم الانتشار فجأة على جبهة تمتد أوسع ما يمكن، ثم الاندفاع إلى الأمام وهم يصوبون بنادقهم صوب هدفهم، وحين يبلغون نصف المسافة تقريبا يتوقفون وهم يشدون بقوة على اللجام ويطلقون النار ثم يولون ظهورهم على الفور ويعودون أدراجهم بالخفة نفسها، ثم يكرون فيستأنفون العملية نفسها. وإن أجبر العدو على التقهقر استمروا في إطلاق النار والتقدم نحو الأمام، ولكن إذا احتدم القتال واضطروا إلى الاحتكاك بالخصم واستلال السيف فعليكم تصور ورطة هؤلاء الفرسان غير المنتظمين الذين يمسكون باللجام والبندقية الطويلة في يدهم اليسرى والسيف في اليمنى، ولتجنب هذه الوضعية الصعبة تراهم ينصبون

البندقية على حنو السرج بشكل مواز لرأس الحصان علهم يتفرغون للإمساك بالسيف، غير أن كل واحد منهم يحتل بهذه الطريقة مكانا واسعا يساوي مكان فارسين، ولذلك يصبح معزولا لا يغطي أحد جانبيه... والحال هذه فيمكن التنبؤ بالعواقب الوخيمة التي سيتعرض لها هؤلاء الفرسان إن هاجموا بالسيف خطا دفاعيا منظما على شاكلة الجيوش الأوروبية. لهذا السبب تحرص الخيّالة المغربية على عدم الاشتباك بالسلاح الأبيض إلا في أوقات الضرورة القصوى، والاكتفاء بالكر والفر معتمدين على سرعتهم وبراعتهم في استخدام أسلحتهم النارية وهم فوق مطاياهم.

ممتلكات السلطان:

يقدر ريع السلطان ما بين عشرين وخمسة وعشرين مليون فرنك، وحيث أن عدد الموظفين قليل جدا ولا يتقاضون راتبا ثابتا وإنما أموالا مقابل خدمات معينة وبعض الهبات النادرة، وحيث أن الدولة لا تنفق على أي جيش نظامي إذ يفرض على جميع المؤمنين الخوض في القتال فرضا دينيا، فإن معظم ما يدخل ميزانية السلطنة يحول إلى خزائنه في مراكش وفاس ومكناس. يقتصر عسكر السلطان على زهاء عشرة آلاف جندي يشكلون حرسه الخاص، وجل هؤلاء زنوج اشتراهم السلطان نفسه، أو سُلموا كهدية أو دفعا لدين، أو هم أبناء جنود زنوج آخرين، أما سائر الحراس فهم من قبيلة تدعى أدَيَة. وتستقر نسبة من هؤلاء الحراس في الولايات في حين يتكلف الباقي بمرافقة السلطان أينما ذهب. ويطلق عليهم ومعظم الفرسان اسم البخاري نسبة إلى الإمام الشهير (مؤلف الصحيح) المعمول بنهجه في المغرب، وذلك لأنهم اتخذوه وليا حاميا لهم. وعلى الرغم من أن مولاي سليمان يعيش عيشا بسيطا يخلو من التكلف ومظاهر

الإسراف إلا أن مصاريف قصره باهظة نتيجة لتكاثر نسائه وأبنائه. ولا يحق له سوى التزوج بأربع نساء، يضاف إليهن الجواري والسراري، ولكنه تعود على الإكثار في تطليق زوجاته وإرسالهن إلى تفلت مما يضطره لتسديد معاش خاص لهن. ولقد رأيت مرارا الأهالي وهم يمثلون أمامه يعرضون عليه بناتهم للعمل خادمات في الحريم، وإن اتفق أنه مال إليهن عقد القران عليهن ثم طلّقهن. ولا يستحسن الفقهاء ميله إلى الجمع بين الأختين، وكذلك شغفه بشرب الخمر ليلا في الحريم، فكلاهما حرام عند الشرع. على كل حال، يعتبر السلطان رجلا بسيطا في عاداته وتقاليده فيأكل بالأيدي على غرار العرب، وإن كان يسمح لي باستخدام ملعقة من الخشب (إن الشريعة تمنع أواني المائدة المصنوعة من الذهب وما شابهه) عند دعوته لتناول الطعام معه. بالتالي فلا وجه للاختلاف بين طاولته وطاولة طعام رعاياه. وعلى الرغم من أنه لا يأكل عادة سوى ما تطبخه رقيقة من الزنجيات، إلا أنه تناول في بيتي ما أعده خدمي.

الطريق إلى فاس:

عدتُ إلى فاس عبر الطريق نفسه الذي سلكته عند ذهابي منها إلى مراكش. ومع أن صحتي لم تكن قد تعافت تماما فإني تمكنت من إجراء بعض الأرصاد الفلكية أثناء الرحلة أثبتت نتائجي السابقة. للأسف الشديد، منعني ضعفي من التفرغ للعمل بصورة مستمرة.

بعد قضاء أيام محدودة في مدينة فاس دار نقاش بيني وبين الحاكم فحواه أن الحاكم ألح علي بالخروج إلى الجزائر في غضون عشرة أيام بدعوى أني كنت قد ودعت السلطان عازما على مغادرة البلد، واتخذ الرجل كل الإجراءات لتنفيذ غايتي ولكني قلت له بصورة قاطعة إني غير مستعد للسفر، وطال مكوثي في المدينة شهرا ونصف الشهر. قبيل خروجي من فاس جاءها مولاي عبد السلام محملاً برسالة توصية من

السلطان إلى باي تونس، وأخرى إلى باشا طرابلس، ومنحني عبد السلام نفسه رسالة ثالثة منه إلى باشا الجزائر، وقد امتنع السلطان عن تحرير الخطاب لاعتبارات سياسية. ولما قررت الانطلاق صوب الجزائر مررت على مولاي عبد السلام وغيره من الأصحاب للوداع والحزن يغمرني أكثر مما غمرنا في المرة الأولى، إذ كانوا يعتقدون أني مقبل على سفر شاق تحيق به الأخطار، بل كانوا يخشون عدم لقائي ثانية.

رحلة إلى وجدة:

في تمام الساعة التاسعة و45 دقيقة صباح الخميس الموافق للثلاثين من شهر مايو من العام 1805 توجهت بصحبة الأحباء إلى مسجد مولاي إدريس، ثم أخذوني إلى الطريق وهناك افترقنا. وكانت الشوارع المؤدية من المنزل إلى المسجد ومن هنا إلى الطريق عاجة بالأهالي الراغبين بلمسي ودعوتي إلى الصلاة من أجلهم. وشققت طريقي باتجاه الشمال ووصلت عند الظهر إلى المخيم الذي كان رجالي قد نصبوه عند الضفة اليمنى لنهر السبو الكثير المياه الجاري نحو الغرب.

يوم 31 مايو:

عند الثامنة صباحا شددنا ركابنا وكان الطريق يحبو نحو شرق شمال الشرق عبر الجبال والمناطق الوعرة، وعند الساعة الثانية بعد الظهر توقفنا على ضفة الإناون، وهو نهر قليل الأهمية يجري مجرى غربيا. مررنا بعدد من الضياع والمزارع، ومن بين حفلات الاستقبال التي خصني بها سكان المنطقة حفلة واحدة تستحق الذكر، إذ تجمع الصبيان لمقابلة موكبنا واقتربوا مني يتقدمهم واحد يلبس حلة بيضاء ويضع منديلا من الحرير على رأسه وحزاما من الحرير أيضا على بدنه، وكان يحمل كذلك عصا من سبعة أقدام عُلقت على رأسها لوحة مكتوب عليها صلاة.

وبعد إلقاء تحية مدروسة حاولوا تقبيل يدي أو ركابي أو أي شيء يمكنهم لمسه، ثم عادوا أدراجا وهم في غاية الفرح، وكانت أمهاتهم يتابعن المشهد متابعة دقيقة ليرين كيف أستقبل أولادهن.

يوم 1 يونيو:

واصلنا طريقنا في الثامنة صباحا باتجاه الشرق وجارينا نهر الإناون لمدة تزيد عن الساعة والنصف، ثم أوغلنا ما بين الجبال، وفي الواحدة عبرنا نهرا صغيرا ونصبنا الخيام على ساحله الأيمن. إن التضاريس كانت كما في اليوم السابق والنبات يابس، ورأيتُ بعض الأراضي المغلة، ولكني لم أجد غير دوّار واحد. تلبدت السماء نسبيا أثناء تنقلنا هذا، وسجل ميزان الحرارة داخل الخيمة 26,7 درجة على مقياس ريامور.

يوم 2 يونيو:

استأنفنا السير في السابعة صباحا وسلكنا بضعة وديان تقع بين جبال متوسطة الطول، كما عبرنا عددا كبيرا من الأنهر الصغيرة. وعند الرابعة والربع نصبنا الخيام عند ظواهر مدينة تازة الصغيرة، الواقعة على جبل منخفض يقابل سلسلة من الجبال تفوقه علوا وتزحف نحو جنوب الغرب. إن منظر هذه المدينة لهو مثير للاهتمام، فتطوقها أسوار قديمة وتصعد مئذنة المسجد إلى الأعلى كالمسلة. ويبدو النتوء الذي شيدت عليه وعرا تارة ومكسوا بالخضرة الجميلة تارة أخرى، في حين أن سفحه مليء بالبساتين والحدائق وأنهر تنغمر بصخب وجداول تشكل الشلالات. وهناك جسر شبه خرب يضفي طابعا خاصا على المكان، وكذلك صداح الهزار والقماري وطيور أخرى. ودفعتني الوديان المزروعة الغنية بالمحاصيل إلى الاعتقاد بأن سكان هذه المناطق أكثر كدا وعملا من سكان الساحل.

الطقس كما هو في المراحل السابقة، فقد اشتد الحر إلى أن توقفنا،

وعندئذ تلبدت السماء فانهمرت الأمطار ودوت الرعود، ومع هذه الظروف السيئة أتاح لي ظهور عابر للشمس تحديد موقعي فكان 6 درجات إلا دقيقة و15 ثانية غرب مرصد باريس.

صادفنا في الطريق قوافل عربية قادمة من الشرق هربا من المجاعة السائدة هناك، وتألفت كل قافلة من قبيلة بكاملها تجر دوابها وكل ممتلكاتها، ويساعد مشهد هذه القوافل في تكوين صورة عن حجم حركات الهجرة قديما في فلسطين ومصر نتيجة للأوضاع المعيشية الصعبة نفسها. من جانب آخر، سببت لي ضربة شمس حُمرة في اليدين، فتورمتا وأصابتاني بألم شديد.

3 يونيو:

امتنعت عن إصدار أمر برفع المخيم لأني شعرت في الصباح بألم لا يطاق، ولزيادة الطين بلة هطلت الأمطار فهاجت العواصف طوال الليل والصباح التالي. ولاحظت تغطية الشمس بالسحاب فسعيت إلى تحديد موقعنا الجغرافي فكان 34 درجة و30 دقيقة و7 ثانية، غير أن هذا القياس لم يكن دقيقا. واستمرت الأمطار أثناء المساء تتخللها رياح عاتية تهب من الغرب ولم يخف الألم في يدي اليسرى.

4 يونيو:

استمرت الأمطار على وتيرتها دون انقطاع مما حال دون استئناف الرحلة.

5 يونيو:

في الثامنة صباحا انطلقنا نحو الشرق عبر الوديان والهضاب المروية بالجداول، وعند الواحدة والربع قطعنا نهرا، ثم أمرت بنصب

المخيم داخل قصبة قديمة تدعى مسون. التراب هنا من الصلصال اللزج الذي تتشكل منه الوديان والتلال، فرأيت شقوقا عمودية طويلة تزيد على أربعين قدما، وبدا لي أنه نوع الغطاء نفسه الذي يمتد من جبال تطوان إلى طريق طنجة/ مكناس. في هذه المرحلة التقينا بقافلة آتية من جهة الشرق يرافقها قطيع من أكثر من ألف وخمسمائة عنز، وكانوا قد نصبوا على بعض الجمال ما يشبه الهودج أو الخيمة الصغيرة ترقد فيها نساء العائلات الثرية وأولادهن، أما الجمال الباقية فلا ستار عليها، ورأيت كذلك عددا من الجاموس والأبقار محملة بالأوزان على غرار البغال. وكان الموكب يسير على الترتيب التالي: تتقدمه المواشي وتوزعت على مجموعات من مائة رأس يقودها أربعة أو خمسة أولاد يحرصون على إبقاء المسافة فيما بينها نحو عشرين خطوة تقريبا، ثم جاءت في الوسط الدواب المحملة بالعتاد والخيام ومعظم النساء والصغار، وكلهم على الجمال، وأخيرا جاء الرجال ومنهم من امتطى الجياد أو سار على الأقدام والبندقية تتدلى من ظهورهم، وهناك من يسير على جانبي الطابور لحمايته.

أما القصبة التي بتنا فيها فقد تألفت من أسوار تشكل مربعا بلغت واجهته حوالي أربعمائة وخمسة وعشرين قدما، وهناك برج على كل النواصي، وآخر في وسط كل الجوانب. عرض السور ثلاثة أقدام وطوله ثمانية عشر وأشرف على السور حاجز طويل بالمزاغل، وما تبقى منه هو المكان الوحيد المتاح للمدافعين عن القصبة، ويفرض عليهم الوقوف فيه وكأنهم على شجرة. يوجد في وسط القصبة مسجد خرب تحيط به أنقاض مبان أخرى، ويقطن سكان هذا المكان البائس المقفر في عدد من الأكواخ تتفرق ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة. ولم يلبث أن حضر قائد القصبة الساكن في دوار يبعد فرسخا واحدا للترحيب بي وإهدائي كبشا وشعيرا وحليبا ومؤنا أخرى.

6 يونيو:

ارتحلنا نحو الشرق عند الساعة السابعة والنصف صباحا، وتوقفنا في الثالثة والنصف عصرا بجوار دوار فقير وعلى مقربة من بعض الأطلال والأكواخ. وكانت الأراضي هنا تتكون من الطين الخالص وتشكل سهولا جرداء خالية تماما من السكان والخضرة، ما عدا بعض الأعشاب اليابسة، ومررنا الساعة العاشرة عند صهريج ضخم مليء بالمياه الممتازة الجودة، وعند الظهر قطعنا نهيرا. إن الجو كان حارا غير أنه برد نوعا ما بسبب رياح الشرق.

7 يونيو:

ارتحلنا قبيل السابعة صباحا، وبعد مرورنا بنهر مولوية شاهدنا آثارا عائدة لقصبة خربة، وسلكنا طريقا يزحف نحو شمال الشرق لا يبتعد كثيرا عن النهر، ثم تحولنا إلى الشرق حتى الثانية بعد الظهر. ثم وصلنا إلى قصبة كبيرة مهجورة كانت بجانبها بعض القرى، وبعد أن عبرنا نهر زا ضربنا الخيام على ضفته. نهر مولوية عميق ولكننا عبرناه عند نقطة تتوسع فيها مخاضته. ويجري هذا النهر مجرى شمال الشرق ومياهه حمراء اللون غنية بالطمي كثيفة كمياه النيل، ولكنها صالحة إذا هدأت، وتنبت في أطرافها الشجيرات. أما نهر زا فهو شحيح المياه أصلا، وازداد شحه من جراء السواقي والتُرع التي تتفرع منه، وانتابتني لذة عارمة وأنا أتأمل بشائر الإنتاج البشري في وسط الصحراء. وكان النهر يجري هنا مجرى الغرب. وكانت الأتربة هنا مكونة من نوع الطين نفسه الذي رأيته في اليوم السابق. وانحدرنا فيما بعد إلى أراض أخرى تتألف من الشرائح الطينية والكلسية المشكلة لمجموعة من التلال، وعند الظهر تجاوزنا من جهة اليمين جبلا ظهر لي أنه مكون من البازلت. في الواحدة والنصف

خضنا منطقة جميلة حسنة الزرع والمحاصيل توسطت فيها القصبة ويتاخمها شمالا نهر زا حيث ضربنا الخيام على ضفته اليمنى. وباتت السماء غائمة وتلطف الجو بفضل رياح شديدة آتية من شمال الشرق. هذه الصحراء يسمونها الأنجاد وظهر لي أنها تمتد من قصبة مسون في شرق الغرب إلى جنوب الجزائر.

8 يونيو:

رفع رجالي المخيم في السابعة والربع، وأخذنا بالسير في الصحراء نفسها صوب شمال الشرق، وظهر لنا في الثامنة جدول صغير صالح المياه. ثم بدأ الطريق يضيق بين جبال منخفضة، وفي الثانية عشرة وثلاثة أرباع عبرنا جدولا آخر وتحولنا إلى الشرق محاذين لضفته اليمنى، ولم نلبث أن مررنا بعدد من الحقول ثم قدمنا دوارا، وعند الثالثة والنصف نصبنا الخيام بجوار قصبة ودوار يدعى عيون سيدي ملوك. وكانت التضاريس طينية وكلسية في آن، وهناك سلسلتان من الجبال تؤلفان جزءا من سلسلة الأطلس الصغرى، وتطوقَ بالأفق شمالا وجنوبا. ولم أبصر في هذه البرية المقفرة حيوانا واحدا ما عدا الضباب والعناكب والحلزون الميت أو النائم على الشوك.

كان سكان الدوار عند قدومنا يقيمون مراسم جنازة، وكانوا قد وضعوا الجثة على موضع مرتفع تحدق بها زهاء أربعين امرأة يشكلن جوقتين تصرخ كل واحدة منهما "آه، آه، آه" على إيقاع واحد. عند التأوه أقبلت النساء على خدش وجوههن وتمزيقها بأيديهن حتى راحت الدماء تسيل عليها. هذا واصطف ستة رجال على خيولهم مولين وجوههم إلى موطن القبيلة المعتدية التي كانت قد أراقت دماء الفقيد السارية مراسم التشييع من أجله، وكان باقي الأعراب يقفون حول الجثمان. وظل الجميع حوالي نصف الساعة على هذا الموضع ثم انفصلت النساء عن الميت

وهن يبكين بكاء خافتا بعد أن كن قد صخبن بالصياح واللطم، وعندئذ أقدم الرجال على دفنه في المكان ذاته ثم ذهب كل واحد إلى سبيله.

تلك المرحلة تخللتها سماء غائمة وطقس بارد.

9 يونيو:

رحلنا عند السادسة صباحا جهة شمال الشرق، وفي السابعة قطعنا جدولا، ثم تحولنا منه إلى شرق شمال الشرق. لاحقا، عند الثانية بعد الظهر، عبرنا جدولا آخر ثم دخلنا وجدة قبيل الرابعة. الأرض هنا طبيعتها نفسها التي في الصحراء السابقة الذكر، غير أني انتبهت في الثامنة صباحا إلى تربة نباتية صالحة قليلة الزرع تبدو من ورائها سلسلتا الجبال البعيدة تطوق بالآفاق شمالا وجنوبا. في السابعة والنصف أبصرنا في البعد فارسين على هضبة يقدمان إلينا بتؤدة فانتاب القلق حاشيتي لكني طمأنتهم. ولم يمض وقت طويل حتى وصل الفارسان فعرفت أنهما من القبيلة القاتلة للرجل الذي حضرنا جنازته أمس في عيون سيدي مَلوك، وأفاد الرجلان بأن سائر أفراد القبيلة وراءهم.

واصلنا طريقنا فصادفنا مجموعة من الرجال يحصدون القمح، يقف إلى جانب كل واحد منهم حصان مجهز بالسرج واللجام، ولمحت خلفهم في مكان بعيد مجموعة أخرى من الرجال المسلحين. الساعة العاشرة خضنا الأراضي التابعة لهذه القبيلة ومساحتها فرسخ واحد، وهي مزروعة بكاملها، وفيها أكثر من عشرين دوارا. وجاءنا أربعة فرسان يحملون الأسلحة لتقصي أمرنا، وحين عرفوا من نحن طلبوا مني أن أصلي لأجلهم ثم انصرفوا على الفور. وبدت لي هذه القبيلة وتسمى محية مولعة بالقتال، ولا أظنهم خاضعين لسلطة الملك إلا خضوعا محدودا جدا.

18
وصف وجدة/ صعوبات مواصلة الرحلة/ إيقاف الرحلة بأمر من السلطان/ مغامرات في الصحراء/ الوصول إلى العرائش ووصفها/ مغادرة سلطنة المغرب

يقطن مدينة وجدة ما يقرب من خمسمائة نسمة وهي مدينة لا تختلف كثيرا عن جميع الحواضر التي مررنا بها بعد قصبة مسون، إذ أنها مبنية عند واحة في صحراء الأنجاد. بيوتها المصنوعة من الطين صغيرة وواطئة جدا بحيث يتعذر الوقوف في داخلها، وهي وسخة ومليئة بالحشرات، ولذلك فضلت المبيت في خيمة أقمناها في القصبة الكبيرة المتاخمة لأحد جوانب القرية، وأمضيت بعض الوقت في بستان حسن المظهر متصل بالقصبة. ثمة عين غزيرة المياه يقع منبعها على بعد نصف الفرسخ من وجدة ترتوي بمياهها الجيدة المزارع والبساتين المحيطة بالقرية الزاخرة بالعشب الجميل وأشجار الفواكه كالتين والكرم والنخل. وتثمر المزارع هنا شمّاما لذيذا كما ترعى فيها مواشي لحمها أحسن من أي لحم آخر، والعجب كل العجب من طراوة لحم كبش الصحراء، إذ إنك ترى الكباش هنا هزيلة وطويلة وقليلة الصوف وقاطنة في منطقة تكاد لا تجد فيها ما تقتات به، ورغم ذلك قد نقول إن لحمها أفضل ما يمكن العثور عليه في العالم كله. أما الطيور والدجاج فلا أثر لها في هذا المكان، إلا إن الخبز والرز والبقول متوفرة لا تعدم أبدا.

أجريت تقديرات عدة لقياس بعد القمر وخسوف الكواكب مما سمح لي بتحديد موقع وجدة بدقة مرضية، فقدرت طولها بـ4 درجات و8 دقائق إلا ثانية غربا حسب مرصد باريس، وعرضها بـ34 درجة و40

دقيقة و54 ثانية شمالا. وكان المفروض في موقع مرتفع الطول كهذا ألا يختلف الجو كثيرا عنه في أوروبا غير أن الصحراء المحاذية تجعل الرياح ساخنة للغاية. مع ذلك، نعمنا بأيام رطبة ولم نعدم الغيوم وحتى الأمطار ونحن في شهر يونيو. وشهدت هنا كسوفا، وكنت أنوي القيام بأرصاد أخرى إلا أن الظروف حالت دونها فاضطررت للتفرغ لمستجدات لم تكن بالحسبان.

صعوبات مواصلة الرحلة:

أول ما وصلت المكان أفادني شيخ القرية وأعيانها بأني لا أستطيع المضي قدما لأنهم قد تسلموا في اليوم نفسه خبر اندلاع ثورة في مملكة الجزائر، واحتدام المناوشات وإراقة دماء الأتراك والعرب في تلمسان، وهي المدينة التي خططت للذهاب إليها. وفي أعقاب نقاشات مستفيضة وبعد أن حسبت ألف حساب للموضوع عزمت على إرسال موفد إلى تلمسان للتحري عن تطورات الأحداث هناك، فعادني مخبرا بأن القتال قد هدأ في المدينة إلا أن الطرق خطرة تعج بالمتمردين يقترفون القتل والسرقة. ولم أكد أسمع هذه المعلومة حتى طلبت من شيخ القرية موكبا من الرجال المسلحين إلا أنه أجابني قائلا إنه لا يتوفر لديه ما يكفيه من الرجال، ولكن وعدني بإيجاد حل يحظى برضاي. وبعد ذلك بيومين استقدم الشيخ ووجهاء وجدة الشيخ بو عنان زعيم إحدى القبائل المجاورة، وعرضوا عليه قيادتي إلى تلمسان، ورفض الشيخ في أول الأمر ولكنه أجرى لاحقا مباحثات طويلة غادر المكان على إثرها دون أن يكون قد حزم أمره. وأضعت يومين في مفاوضات لم تجد نفعا على الرغم من أن الثوار دنوا من سور وجدة نفسه وأطلقوا النار فأوقعوا قتيلين. في الوقت نفسه، ازداد موقفي حرجا، فمن جهة أوشكت مؤني على النفاد، ومن جهة أخرى كنت أعي تمام الوعي أن أعدائي في بلاط السلطان قد استغلوا

إطالة مكوثي في فاس لتأليب السلطان عليّ، ولأني كنت على يقين بأن هؤلاء لن يفوّتوا على أنفسهم فرصة الإساءة إلى سمعتي عقدت عزمي على التوجه بمفردي إلى بو عنان القائم مخيمه عند سفح الجبال على بعد فرسخين.

لكن حاشيتي اعتراها الهلع لما سمعتني أخبرها بقراري ما عدا مرتدين إسبانيين كانا قد انضما إليّ لدى خروجي من فاس، وتقدما إلي قائلين: "يا سيدنا، إن سمحت لنا فإننا سنتبعك ونشاركك مصيرك". فما كان مني أن تمعنت فيهما فوجدتهما رجلين شديدي البأس وأمرتهما بحمل السلاح، وطلبت من أحدهما الذهاب معي في حين تكلف الثاني حراسة آلة سفري. وإذا بنا على حسن الاستعداد لمغادرة المدينة بصحبة أحد المرتدين ومملوك مخلص اسمه سالم ألفينا بوابة المدينة موصدة في وجوهنا، وأمامها زهاء أربعين أو خمسين من نخبة سكان المدينة، وقد عزموا على منعنا من الخروج. وناشدتهم السماح لي بالمغادرة ولكنهم أبوا دفعة واحدة، وهناك من ساق الحجج، وهناك من لم يصدر منه سوى الصراخ. وأعدت مطلبي ولكنهم رفضوه ثانية. في آخر المطاف توجهت إلى رئيسهم وأمسكت أحد المسدسات المعلقة على القربوس وخاطبته في نبرة تراوحت بين الإنذار والمودة: "يا شيخ سليمان لقد بدأ السير بنا بدءا حسنا إلا أني أخشى أن يؤول مآلا سيئا. افتحوا الباب". ولم يكن من الشيخ سليمان إلا أمر بفتح الباب وهو يقول للآخرين: "إذا كان مصرا على الهلاك فلندعه".

خرجت يتعقب خطاي المرتد ومملوكي وقصدت جبال بو عنان، ولم يمض وقت طويل حتى التفت إلى الوراء ورأيت هؤلاء الوجهاء الذين حاولوا عبثا منعني من الخروج يهرولون إلي على متن مطاياهم، ولما بلغوني أفادوني بأنهم يرغبون مرافقتي إلى معقل بو عنان، ثم اعتذروا عن تصديهم لي متحججين بحرصهم على سلامتي وخوفهم من هلاكي. وهكذا سلكنا طريقنا إلى بو عنان الذي استقبلنا استقبالا حارا، ثم أكرمنا

بغداء سخي. ولم يقبل مرافقتي إلى تلمسان، ولكني أفلحت بفضل كلماتي وكلمات الشيخ سليمان، الذي أسدى لي خدمة قيمة هذه المرة في الاتفاق على أن ينتظرنا شيخ يقود قبيلة أخرى تدعى بني سنوس على الجانب الآخر من الحدود لكي يقودني إلى تلمسان، فيما تكلف بو عنان إرشادي إلى الحدود المتاخمة للجزائر.

إيقاف الرحلة بأمر من السلطان:

بعد يومين جاءني بو عنان يطلب مني التهيؤ اليوم التالي. ولما كان من الغد حضر مع مائة رجل فتركنا وجدة على الفور. ولكن لم نكد نقطع نصف الفرسخ حتى وردنا رسولان من السلطان على وجه السرعة يلوحان لنا بالتوقف، وكان يتبعهما فيلق من الخيالة يترأسه ضابط كبير يدعى القائد دليمي. وأخبرني الضابط بأن السلطان قد علم بوجودي في وجدة فأوفده بإمرة الحفاظ على سلامتي والدفاع عني إن اقتضى الأمر. أعلمته بدوري أن ثورة الجزائر واضطرابات تلمسان هي ما أخّرني، ولكن الخطر قد زال الآن، ولذلك يمكنني مواصلة طريقي آمنا، خاصة إذا كانت قبيلتا بو عنان وبني سنوس أخذتا على عاتقهما حمايتي، إلا أن حججي لم تزحزحه قيد أنملة فأكد لي أن أوامره تقضي عليه بضمان سلامتي وعدم السماح لي بالرحيل. ولم يكن لي بد من العودة إلى وجدة ومراسلة السلطان. ولما تسلم الأخير رسالتي أوفد ضابطين من بلاطه إلى وجدة بأمر قيادتي إلى طنجة حيث من المقرر أن أركب مركبا إلى الشرق. وأكرهني أمر السلطان هذا على مغادرة وجدة مع حاشيتي ومتاعي في الثالث من أغسطس الساعة التاسعة ليلا. وانضم إلى موكبي ضابطان وثلاثون من الحرس الشخصي للملك، بينما بقي في وجدة القائد دليمي مع سائر رجاله. وأُجّل موعد الرحيل إلى مثل هذه الساعة المتأخرة

من المساء لأن دليمي قد تلقى خبرا يفيد بأن أربعمائة أعرابي مسلح قد كمنوا لي على الطريق، وتقرر الخروج سرا ودون أن أعلم ما هو الطريق الذي سنسلكه إلا في وقت الخروج نفسه حين حدد دليمي لقائدي القافلة وجهتنا، وعدلنا عن الطريق العادي وتوجهنا إلى الجنوب موغلين في الصحراء. وكانت الليلة مظلمة وقد تدثرت السماء بالسحب.

أغسطس:

بعد أن أمضينا الليلة كلها في السير السريع وتسلق الجبال وصلنا الساعة السادسة فجرا إلى أنقاض قصبة كبيرة قريبة من مجرى ودوار. وواصلنا السير دون انقطاع محاذين لبعض الوديان الملتوية التي يجري في قرارتها جدول كان نافعا جدا، مع ضآلته، لسكان الدوارات المجاورة لها. وبموجب أمر من السلطان يعرضه ضابطان على سكان المنطقة ألفينا في كل مكان نتوقف فيه أعرابيين فارسين مسلحين ينضمان إلى موكبي. ولما بلغنا الساعة التاسعة صباحا الموضع الذي ينتهي فيه الجدول ودعني الثلاثون جنديا وتركوني تحت حراسة الأعراب المسلحين وضابطين. وحين تركني حرس السلطان أعطيت أحد الضباط حفنة من العملات الذهبية ثم استأنفت سيري، ولكني لم أكد أتقدم بعض الخطوات حتى تناهت إلى سمعي أصوات صاخبة فالتفتت وإذا بالجنود يطوقون ضباطهم يهددونهم بالقتل، ولم يلبث أن وردني واحد منهم يشكو ضباطه ظنا منه أنهم قد حجزوا جزءا من النقود التي أهديتها إليهم، وأسرعت إلى حيث كان الجنود يجادلون رؤساءهم، ولم يهدأ لي بال حتى أقنعتهم بعدم إشهار أسلحتهم. ولسوء حظنا أن هذا الشجار الذي أرعبنا وجعلنا نتوجس قتالا داميا ألهاني عن التزود بالماء، فلم أكن أنا عالما بأن هذا الموضع هو آخر نبع على الطريق يمكنني الارتواء منه.

استمر سيرنا على قدم وساق خوفا من الاصطدام بالأربعمائة أعرابي الذين كنا نحاول الهرب منهم، ولهذا السبب ابتعدنا عن الطرق نقطع الفلوات والهضاب والمناطق الوعرة. تخلو هذه البراري من المياه، وكذلك من الأشجار والصخور وأي شيء يمكن اللجوء إليه أو التظلل به. واكتملت الصورة بهواء شفاف جلي نقي، وشمس ساطعة في كبد السماء، وأرض شهباء اللون مقعرة الشكل كالمرآة المحرقة، ورياح لافحة كاللهب. وبحيث يعتبر كل من تصادفه في هذه الصحاري عدوا فإن الأعراب الثلاثة عشر المرافقين لي ركضوا مسرعين صوب فارس مسلح برز لنا في الأفق عند الظهر وهم يطلقون الصيحات تتخللها عبارات الازدراء والاستخفاف من قبيل "ما مبتغاك يا أخي؟" أو "ما مقصدك يا ابني؟". ولم يكفوا أثناء ركضهم عن التلويح بالبنادق فوق رؤوسهم. أما الرجل فانتهز الفجوة الفاصلة بينه والأعراب ولاذ بالفرار إلى الجبال حيث استحال العثور عليه. هذا الفارس هو الإنسان الوحيد الذي تصدى لنا أثناء رحلتنا.

مغامرات في الصحراء:

إن الدواب والرجال لم يأكلوا أو يشربوا من اليوم السابق وكانوا قد استمروا في السير منذ التاسعة من الليلة الماضية. ونفد الماء بعيد الظهر وبدأت علامات التعب والإرهاق تظهر جليا على الفرسان والمطايا، ولم تلبث أن تعثرت الدواب المحملة بالأوزان فوقعت أرضا مما أملى علينا التوقف بين الفينة والأخرى من أجل رفعها وتحريكها، وأدى مثل هذا الجهد الجهيد إلى القضاء على الطاقات الضئيلة المتبقية لنا. وفي الثانية ظهرا سقط أحدنا على الأرض مغميا عليه كالجثة من جراء العطش والإعياء، وهرولت أنا إلى إسعافه يساعدني اثنان أو ثلاثة من خدمي،

وعصرنا ما تبقى من الماء في قربة ولكن القطرات القليلة التي حصلنا عليها لم تجد المسكين نفعا وحتى أنا نفسي راودني ضعف شديد نبّهني إلى أن قواي هي الأخرى على وشك الانتهاء، فقررت امتطاء حصاني مجددا وترك ذلك الرجل المنكود الحظ هناك. وتكرر المشهد فيما بعد إذ وقع عدد من رفاقي على الأرض دون أن يتوقف الموكب لإسعافهم فكان كل واحد منا يحرص على النفاذ بجلده لا غير. وانهارت كذلك بعض البغال ورأيت اثنين من صناديقي مرمية على الأرض ولكني لم أر أثرا للدواب التي كانت تحملها، فلم يكن هناك من يسهر على أمتعتي وأدواتي، والحق يقال إني لم أعر المسألة أهمية تذكر. وكان حصاني نفسه وهو أمتن مطايا القافلة يبدو عليه الإنهاك ونوبات الارتجاف. فأصبح سيرنا بطيئا رتيبا وإن أقدمت على حث أحدهم على التقدم بسرعة أكبر أجابني بإيماءة من يده إلى فمه وكأنه يريد أن يلقي باللائمة على الظمأ الشديد الذي ينال منا. وأردت أن أعيب الضباط على غفلتهم وعدم الحصول على الماء في الوقت المناسب، ولكنهم أشاروا إلى تمرد الجنود، وأضافوا أنهم أيضا متضررون كالآخرين. وآلت أوضاعنا مآلا مهولا فلم يعد أحد يتوقع القدرة على الاستمرار في السير إلى موضع نعثر فيه على الماء. وأخيرا، حوالي الساعة الرابعة، هبطت عن مطيتي مغشيا علي من شدة العطش والإعياء.

ها أنا ذا مرميا في الصحراء لا أعي شيئا تحف بي حفنة من الخدم، كان أحدهم قد ارتطم أرضا عندما وقعت أنا تقريبا، فيما الآخرون غير قادرين على مساعدتي، فلا ماء عندهم ولا حيلة لهم للحصول عليه. وباتت المنية حتما علينا لولا الرحمة الإلهية وأعجوبة أنقذتنا جميعا، فحسبما قالوا لي لاحقا فإن قافلة ضخمة مؤلفة بما يزيد على ألفي رجل قدمت إلينا بعد وقوعي على الأرض بنصف الساعة تقريبا، وكانت هذه

القافلة ويقودها أحد الأولياء اسمه سيدي محمد العربي الدرقاوي[10] تتوجه إلى تلمسان، أو ربما تؤوب منها، وذلك بأمر من السلطان. ولم يكد الولي الصالح يرانا على حالنا الباعث على الرثاء حتى أمر بسكب المياه على وجوهنا وأيدينا، وبعد أن صبوا علينا عددا من القرب استعدت الوعي ودار بي البصر يمينا يسارا دون أن أقدر على تمييز شيء. وعندما استقر بي الوضع تبين لي أن زهاء ثمانية من الأشراف والفقهاء يحيطون بي يكلمونني بنبرة صادقة ودية، وأردت أن أرد عليهم إلا أن هناك غصة في حلقي تسد الهواء فلم يصدر مني سوى الإيماءات والحركات. ظلوا يسكبون الماء على وجهي وذراعي ويدي، وتمكنت بعد برهة من احتساء بعض الجرعات فسألتهم من هم فأجابوا "لا خوف عليك، نحن أصدقاء ولسنا لصوصا ولا أعداء". وقدم كل واحد منهم نفسه، وفعلا تسنى لي تمييز قسمات البعض منهم، إلا أني لم أتمكن من استذكار أسمائهم. وصبوا الماء عليّ إلى أن تبين لهم أنني أستعيد قواي، وبعد ذلك ملؤوا بعض القرب بالماء وواصلوا سيرهم لأنهم لا يمكنهم إهدار الوقت في مثل هذا المكان.

أعراض نوبة العطش الشديد تتجلى على الجسم تجليا واضحا، إذ يصبح الجلد قاسيا والعيون دامية ويتغطى كل من الفم واللسان بطبقة مما يشبه القلح السميك أصفر اللون ماسخ الطعم لا تقل غلاظتها عن قطعة من خمسة فرنكات، وتذكر هذه الطبقة بلزوجتها بشمع خلايا النحل. ويؤدي كل ذلك إلى الوهن الشديد وجفاف الحلق ثم الإغماء والوقوع على

[10] وكان أحد مريدي هذا الرجل يقود القبائل في تلمسان في عصانهم على الأتراك، ويبدو أن السلطان مولاي سليمان كلف سيدي العربي مؤسس الطريقة الدرقاوية الاتصال بسكان تلمسان وضمان تأييدهم له في خطة تقضي بضم منطقة وهران إلى سلطنة المغرب. وللمفارقة أن الرجل انقلب لاحقا في العام 1820 على السلطان حيث تحالف مع شريف وزان، سيدي الحاج العربي، في محاولة للإطاحة بمولاي سليمان.

الأرض فالشلل، ويتعذر كذلك التنفس وتدمع العيون ثم يُفقد الوعي. ها هي الأعراض التي استبنتها على رفاقي بل عانيتها بنفسي.

أخيرا وبعد أن بذلت جهدا كبيرا استطعت امتطاء حصاني وعدنا إلى مسلكنا الأصلي، وكان الأعراب وسالم الوفي قد تفرقوا شذر مذر للحصول على الماء، ورجعوا عقب ساعتين يحمل كل واحد منهم المياه المتفاوتة الجودة. وبما أن الكل ألح علي بتناول الماء الذي عندهم فإني اضطررت لشرب أكثر من عشرين مرة، ومع ذلك ما زال حلقي جافا لا بلل فيه ولم أكون أقدر على الحديث أو البصاق.

وصلت بنا الرحلة إلى نهر صغير، وضربنا عنده الخيام الساعة السابعة، وكنا قد رحلنا لمدة اثنتين وعشرين ساعة متتالية دون أن نتوقف. أثناء تلك الليلة تقاطر إلى المخيم سائر رجالي ومعهم أمتعتي الخاصة، ولم تكن خسائري كثيرة لأن قافلة سيدي العربي صادفت وهي تواصل سيرها من تبقى من خدمي وحقائبي فقدمت العون للرجال والدواب وروت ظمأهم جميعا. لولا قافلة سيدي العربي لكنا قد هلكنا جميعا، فمن المستحيل أن يكون الأعراب والخدم قد استطاعوا العودة بالماء قبل فوات الأوان، إذ أن التنفس وسائر الأنشطة الحيوية قد انقطعت عندما فارقونا، ولا أعتقد أن المرء يسعه البقاء على هذه الحالة المتفاقمة لمدة تزيد على ساعتين. وكلما استذكرت أن القافلة قد انحرفت عن مسلكها نتيجة لخبر زائف يزعم أن هناك جيشا من ألفين إلى ثلاثة آلاف رجل مسلح مستعدا للانقضاض علينا (والحقيقة أن هذا الجيش لم يكن سوى الأعراب المنتظرين لي) وهو الخبر الذي أنقذنا جميعا، فإني أعود المرة تلو الأخرى للتسبيح للرحمن والتحميد له. وليس إلا في هذه اللحظة أستطيع أن أدرك سبب مصرع المستكشف الأوروبي الميجور هوغتون في الصحراء، وقد تعرض لمحنة مماثلة لمحنتنا فلا ضلع لرفاقي في مماته.

أما تضاريس الصحراء فهي مكونة من الطين الخالص ما عدا بعض الشرائح الكلسية، وتغطي الحجارة المتكلسة البيضاء اللون المتساوية الحجم جميع الأراضي مما دفعني إلى الاعتقاد بأنها نتاج ثوران بركاني. وتتمدد هذه الطبقة الحجرية بصورة مستوية تماما لا تترك شبرا من الأرض إلا وسترته. ولم نجد أثرا لأي كائن سواء أكان دابة أو طيرا أو زواحف أو حشرات أو نباتا، فلا وجود هنا لغير الموت. فقط في الساعة الرابعة بعد الظهر ظهر لنا بعض النبات لفحته الشمس وشوك دون زهور أو ثمار. وكنت قد التقطت حجرين وقطعة من الصلصال وزوجا من المعادن، ولكنها ضاعت مني فيما بعد. ونتيجة لما ألم بنا مما سبق ذكره، انخلعت نعال الجياد والبغال وأتلفت أكثرها إتلافا كبيرا.

5 أغسطس:

انطلقنا الساعة السابعة صباحا نلتف التفافا نحو الجنوب وجنوب الغرب. إن الأراضي هنا كسابقتها في المرحلة الأخيرة. في الحادية عشرة صباحا انحدرنا انحدارا شديدا فبلغنا أعمال شاوية وضفة نهر زا اليمنى. وكان بالإمكان رؤية منزل منعزل على الضفة المقابلة يسكن فيها الشيخ شاوي حاكم المقاطعة. وبعد أن عبرنا النهر ثلاث مرات ضربنا الخيام ظهرا على الضفة اليسرى بجوار دوار وسوق. وما زال الرجال والدواب متأثرين بعواقب محنتنا السابقة بحيث اندفعوا جميعا إلى النهر ودخلوا فيه، وكلفني جهدا كبيرا إخراجهم منه. وكانت ضفتا النهر مزروعتين بالشمّام والبطيخ والعنب، وأكلنا منها ونحن نعدها نعمة من نعم السماء. ولم يتصادف مقدمنا مع وجود الشيخ شاوي في المنطقة التي بدت لي غنية جدا، ولكن أخاه زارني محملا بالزاد الكثير. أما أنا فظللت طول النهار أعاني من الحمى.

6 أغسطس:

استأنفنا السير الساعة السادسة صباحا وانتقلنا نحو الغرب عبر الجبال إلى أن وصلنا ظهرا إلى سهل واسع تحولنا منه باتجاه شمال الغرب إلى وادي الملوية الكبير، الذي توقفنا عند ضفته اليسرى الساعة الرابعة. ولم تكن جبال هذه المرحلة جرداء كجبال المرحلة الماضية، إذ لاحظنا فيها الجداول والمزارع. ويعتبر السهل امتدادا لصحراء أنجاد التي سبق أن عبرناها ونحن في طريقنا إلى وجدة. وما زالت حالتي الصحية دقيقة، فكنت أخاف أن تنتابني نكسة في أي لحظة.

7 أغسطس:

واصلت القافلة طريقها دون حوادث تذكر، ويؤدي هذا الطريق إلى قصبة مسون.

8 أغسطس:

في هذه المرحلة وصلنا مدينة تازة.

9 أغسطس:

أمضيت الصباح كله في مخيمنا، ثم انتقلت إلى تازة لحضور صلاة الجمعة. إنها أجمل مدينة زرتها في سلطنة المغرب، وهي الوحيدة التي لم أصادف فيها الأنقاض والخراب. شوارعها جميلة ومنازلها أنيقة ومبيضة. الجامع واسع وحسن البناء، يتألق ببهاء رائع جدا، وهناك أسواق كثيرة في المدينة تتزود بسلع متعددة، ولا تخلو من البساتين وينابيع الماء العذب والهواء النقي والأطعمة الوفيرة الرخيصة اللذيذة. وإذا زدنا على كل هذه الفضائل أن سكانها بدوا لي أذكياء فإن تازة خير مدينة في المغرب، فضلتها على عاصمتيه فاس ومراكش.

أرسل حاكم المدينة فيلقا من الجنود ضربوا خيامهم بجوارنا، وقدموا

لنا التحية والزاد. وقيل لي إن مولاي موسى أخو السلطان كان مع الحاكم ولكن علّتي منعتني من زيارته. مع ذلك، تسنى لي إجراء بعض التقديرات الفلكية فحددت موقع تازة عند 34 درجة و9 دقائق و32 ثانية عرضا، وهي النتائج التي بينت لي غلطتي عند قياس موقعها في رحلتي الأولى عندما كانت السماء ملبدة بالسحب، فتأكد لي أن قياس العرض هو القياس الصحيح الوحيد. وخلافا لما درج عرفنا عليه من مباشرة الرحيل عند الفجر، انطلقنا في التاسعة ليلا متجهين صوب شمال الغرب. وعبرنا نهر تازة والتففنا على بعض الجبال ثم قطعنا أنهارا أخرى.

10 أغسطس:

استمر مسيرنا طوال الليل ثم بلغنا عند بزوغ الشمس نهرا يجري شرقا، وأخذنا طريقا جبليا وعرا قادنا إلى الغرب، وفي الساعة الثامنة صباحا توقفنا على مقربة من دوار يقع في ولاية حياينة. في الواحدة بعد الظهر استأنفنا الرحيل نحو الغرب وشمال الغرب، وحوالي الخامسة حططنا رحالنا في مكان يجاور دوارا هو مسقط رأس أحد ضباط السلطان المكلفين بحمايتي.

11 أغسطس:

توسل إليّ سكان هذا الدوار الصالحون أن ألازمهم يوما كاملا، ولم أر مانعا في ذلك نظرا لحسن مطلبهم ولطف سؤالهم، ولم يألوا جهدا من أجل إرضائي وتسليتي والتعبير عن جزيل شكرهم، والواقع أني رضيت بهذه الوقفة فكنت في أمس الحاجة إلى الراحة والسكينة بعد عناء السفر.

12 أغسطس:

ودعت هؤلاء الأعراب الطيبين وعدنا إلى مسلكنا عبر الجبال في السادسة صباحا، ثم عبرنا عند التاسعة نهر لبن الكبير الجاري نحو جنوب الغرب، وحاذينا لساعات عدة ضفته اليمنى إلى أن وردنا سهلا واسعا انتقلنا منه إلى منطقة جبلية أخرى، ثم نزلنا عند دوار. ولاحظت

على مسافة قريبة من مخيمنا مجموعة من الصخور الملحية ومن خلفها سلسلة من الجبال المنعزلة على شكل أكوام من السكر، وحملني لونها الأحمر على الترجيح بأنها معدنية المنشأ.

13 أغسطس:

واصلنا السير الساعة السادسة صباحا وعبرنا بعض الجبال حتى الثانية حين ترجلنا قرب دوار كبير، وكنا ما زلنا في ولاية حياينة. وتتشكل الأراضي هنا من جبال مدورة من الطين اللزج شبيهة بتلك الواقعة في تطوان. إن هذه الجبال جدباء ولكن سكانها المجتهدين تمكنوا من زراعة سفوحها بالدُخن الشبيه بالذرة، والذي يمثل قوتهم الأساسي. وكانت هذه الأراضي مزروعة وقت مرورنا بها، ويحرسها نفر من الرجال ينهمكون في إبعاد الطيور بالصراخ والتلويح. وغير الأنهر المذكورة سابقا، فإن سكان هذه المنطقة لا يشربون سوى مياه الآبار الجوفية المحفورة عند سفوح الجبال، ولكن هذه المياه سيئة الطعم لأنها تحتوى على قدر كبير من الكبريت المالح. ورأيت أيضا الأجراف والفجاج وأحواض الجداول المكسوة بشريحة من الملح الناصع البياض مما دفعنا إلى الاستنتاج بأن هذه البلاد غنية بالمعادن، إلا أن أبناءها ليس لهم أي فكرة عما يحويه موطنهم من الثروة. وهناك مواقع يمكن العثور فيها على الشرائح المعدنية من بين الطين الذي يغطيها، وهي تبرز هنا وهناك كالبروج المنعزلة وسط السهول. ويحترف السكان هنا الفلاحة، ولكنهم يقتصرون على الحبوب، فلا شجر لهم، ولذلك قلت بساتينهم. إن بيوتهم المصنوعة بالطوب صغيرة مغطاة بالأغصان لا يبيتون فيها إلا في الشتاء أما في الصيف فينزلون عند خيامهم كسائر الأعراب.

14 أغسطس:

ارتحلنا الساعة السادسة صباحا نلتف على الجبال الشاهقة الآهلة بالقرى، ثم انحدرنا إلى السهل عند الظهر، وبعد عبور نهر ورغة الكبير

المتجه نحو الغرب سرنا موازين لضفته اليمنى حتى الساعة الثالثة، وهي الساعة التي أمرت فيها بالنزول عند دوارين. وتدعى القبيلة الساكنة في هذه المنطقة أولاد عيسى، وهي قبيلة كثيرة الأفراد.

15 أغسطس:

أعد رجالي العدة للرحيل، فانطلقنا الساعة السادسة باتجاه شمال الغرب، وفي الثامنة خضنا دائرة وزان، وبعد قليل لاح لنا في الشمال الجبل الذي شيدت عليه مدينة وزان، ووارينا من اليمين وشققنا طريقنا حتى الثالثة، وعندئذ أمرت بالتوقف بجوار بعض المضارب. إن دائرة وزان تتألف من سهول شاسعة يحدها شرقا جبل راسب. ويبرز وسط المروج جبل أحمر شاهق قامت عند وسطه تقريبا مدينة وزان، التي يقال إنها كبيرة للغاية ولكنها ليست مسورة كباقي حواضر السلطنة، ويقطن فيها الولي الصالح الشهير سيدي علي بن حميد الذي سبق ذكره. ويتمتع هذا الولي وهو حاكم المدينة والدائرة بقدر من الاستقلال. ولم أر في المناطق الأخرى أغناما غفيرة وسمينة كأغنام هذه المنطقة، والأمر نفسه ينسحب على المزارع والحبوب. ورأيت كذلك عددا كبيرا من الديار الممتدة المقامة على نمط مختلف تماما عما ألفناه في المناطق الأخرى، إذ أن خيامها تنصب بهيئة صف في حين أنها توضع على شاكلة الدائرة في المواضع الأخرى. ولم أشاهد شجرة واحدة، أما عيون الماء فهي شحيحة. ركّبتُ آلاتي ومعداتي في الموضع الذي نزلنا فيه، ويبعد فرسخا غرب جبل وزان، وتبين لي طول موقعنا على خط 6 55 0 غرب مرصد باريس، إلا أن نتائج هذا القياس مشكوك فيها فلم أعتمد عليها. وتكللت محاولتي تحديد موقعنا عرضا بدقة أكثر فكان 34 42 29 وهو موقع وزان ذاتها، لأنها تقع تماما في نفس موقعنا ولكن باتجاه الشرق.

في هذه الأثناء أحسست بأن هناك شيئا غريبا في تصرفات الضباط المكلفين بقيادة موكبنا، وإن كانوا يعاملونني بالاحترام المعتاد. بين الفينة

والأخرى أباغتهم يتبادلون الأحاديث الهامسة والنظرات المتواطئة، ولكن لم يتسن لي الكشف عن مضمون حواراتهم المستترة. وتعرضت لنا في طريقنا القبائل تقدم لي الهدايا على هيئة زاد وعلف، وبما أني لم أتخل عن المظلة فكانوا يخصونني بمعاملة تليق بنجل السلطان أو شقيقه... ولكن هذه الحالة سرعان ما تغيرت بشكل كامل كما سنرى عما قليل.

16 أغسطس:

غادرنا الساعة السادسة صباحا متجهين إلى الغرب، وبعد مرور ساعة واحدة على انطلاقنا وبعد طريق دار بنا حول جبال واطئة تحولنا نحو الشمال عبر الطريق المؤدي من فاس إلى طنجة، ثم عند الثالثة حط بنا الرحل عند البساتين الواقعة جنوب غرب مدينة القصر الكبير. ولم أتمكن من تحديد موقعنا إذ كانت السماء غائمة لا أثر لقمر أو نجوم.

17 أغسطس:

في هذه المرحلة أميط اللثام عن سر تصرفات الضباط المثيرة للاشتباه فأعلنوا لي أن مقصدنا العرائش وليس طنجة كما كانوا قد أكدوا لي في بادئ الأمر. إن إعلانهم هذا أزعجني إزعاجا شديدا، ولكني استسلمت للأمر بعد التأمل في المسألة فسمحت لهم بقيادتي إلى حيث يشاؤون فلم أبال بشيء. ولذلك، أخذنا فجرا بالسير نحو الغرب ثم انحرفنا إلى الشمال، وأوغلنا في طريقنا في أجمة من البلوط الأخضر يفرشها السرخس ولم نخرج منها إلا ظهرا، وبعد الدوران الكثير. أخيرا قطعنا نهرا صغيرا ووصلنا إلى العرائش في الواحدة بعد الظهر.

تعتبر العرائش مدينة صغيرة فيها أربعمائة مسكن لا غير. أنشئت على سفح هضبة شديدة الانحدار، وتمتد المساكن إلى ضفة النهر الذي يستغل مصبه مرسى للسفن الكبيرة. ويمكن للمراكب التي لا تزيد حمولتها على المائتين طنا الإيغال في النهر، ولكنها مضطرة لإفراغ الحمولة لتجاوز الحاجز الذي وضع وسط النهر. توجد في العرائش بعض

المساجد، وينعم أهمها بحسن الإنشاء الهندسي، وثمة سوق واسع محفوف بالرواق، وأعمدة صغيرة من الحجر، وهو أجمل سوق رأيته في هذا البلد، وبناه النصارى الذين شيدوا أيضا استحكامات المدينة. كان مولاي إسماعيل قد استرجع المدينة من الأسبان. ويطوقها من جهة البر سور متين وخندق، ونجد جنوب المدينة القصبة وهي مربع محصن بالأبراج الصغيرة ولها بعض الخنادق وحالة القصبة حسنة الصيانة ما عدا الحاجز الخارجي الخرب. للأسف لا توجد موارد ماء داخل المدينة فيعتمد السكان على ينبوع يبعد حوالي 360 مترا عن السور، ويقع بجوار الساحل خارج نطاق مدافع المدينة. هناك عين ماء أخرى تقع على بعد فرسخ واحد.

توجد في أحد أطراف المدينة قلعة مطلة على مصب النهر قيل لي إنها شيدت في عهد مولاي يزيد، وهي محصنة بسور مربع نصبت عليه مدافع صغيرة العيار. ورأيت كذلك صفا من المدافع والهاون يشرف على المرفأ ويقع على بعد حوالي 700 مترا، ولكن ليس هناك أثر لأي نوع من التحصين شمال النهر أو المرفأ. جنوب المدافع بمسافة 600 متر تقريبا لاحظت أنقاضا على الشاطئ تبدو ما تبقى من حصن مدمر إذا قابلها المرء من البحر، ولكن سرعان ما يتبين إنها بقايا طاحونة أو مسكن إذا اقترب المرء منها . ويوجد شرق شمال القلعة المربعة مزار يضم ضريح ولية صالحة اسمها لالا منانة، وهي شفيعة المدينة. ولم أستطع قط أن أفهم كيف يمكن تقديس النساء فيما تنص الشريعة على أنهن ممنوع عليهن دخول الجنة ولكن الله أعلم[11].

الساحل الجنوبي مكون من صخرة طويلة بينما الشمالي هو شريط رقيق من الرمال. وبموجب أمر من السلطان خصص لي سيدي محمد السلاوي حاكم المدينة أفضل المنازل في السوق الكبير بجوار الجامع. ولم

[11] سبق أن أطلق الحكم نفسه في الفصل الثامن ويدل مرة أخرى على ضحالة إلمامه بعدد من جوانب الدين الإسلامي.

أتمكن من القيام بأرصادي الفلكية لرداءة الطقس، ولكن خسوف الكواكب ساعدني في تحديد طول الموقع في 8 21 45 وعرضه في 35 13 15 غرب مرصد باريس. أما الميل المغنطيسي فهو 21 39 15 غربا. درجات الحرارة معتدلة كما هو الحال في إقليم الأندلس.

توجد في المدينة بعض البساتين والأطعمة جيدة والماء خابط ولكنه ليس ضارا. ووقعت أسير المرض لمدة عشرة أيام نتيجة لمتاعب السفر من وجدة إلى هنا، ومرض معي نفر من خدمي والدواب التي أصيبت كلها بالإنهاك وهلكت واحدة منها. لذلك اغتنمت الفرصة للاستحمام في البحر وإثراء مجموعتي الطبيعية من الكائنات البحرية. وشاءت الأقدار أن صادفت في العرائش مركبا من طرابلس كان قد أمضى أشهراً عدة في النهر فأمر السلطان بتجهيزه على حسابه، وتخصيص إحدى قمرات الكوتل لإسكاني أثناء رحلتي نحو الشرق. زرت السفينة المعدة للإبحار صوب طرابلس وأشرفت على أعمال تجهيز القمرة الخاصة بي. ويوم الأحد الموافق للثالث عشر من أكتوبر العام 1805 وهو يوم رحيلي توجهت إلى حاكم المدينة لتوديعه فاستقبلني استقبالا حارا ودودا وشدد عليّ أنه سيحضر مغادرتي إذا أجلتها إلى الساعة الثالثة، ولم يكن مني إلا أن أستجيب لطلبه هذا بعدما أغدق علي بالثناء والإكرام. وعندما انتهيت من إعداد أمتعتي وإيداعها المركب توجهت إلى الميناء مع حاشيتي الجاهزة هي الأخرى لمرافقتي في الساعة المرسومة، إلا أن الحاكم لم يكن قد حضر بعد، وسألت عنه فقيل لي إنه في الطريق. انتظرته واقفا عند شاطئ البحر، وأخيرا وصلني القارب الذي سوف يحملني إلى السفينة، وحين أزمعت على ركوب القارب يأسا من حضور الحاكم فوجئت بثلاث سرايا من الجنود، وهرولت سريتان إلى إلقاء القبض على رفاقي في حين طوقتني السرية الثالثة. عندئذ أمروني بالإبحار وحدي

ولكني سألتهم السبب فأجابوا أنه أمر من السلطان. ثم سألتهم عن الحاكم ولكنهم اكتفوا بإجابة مقتضبة: "تفضل بالركوب". في تلك اللحظة بالذات تجلى لي بكل وضوح سوء نية السلطان والحاكم اللذين أوصيا الشعب والجيش بإظهار أكبر قدر ممكن من الإكرام والتقدير تجاهي بينما هما عاكفان على تدبير مناورة قاسية يجرحانني بها، إذ كنت أحسب لمصير رفاقي الحساب ذاته الذي أحسبه لنفسي. ولم يكن بد من ركوب القارب وسط صياح عدد من الرفاق الذين بكوا فراقنا، ونزل بي النهر إلى الحاجز الذي يفصله عن البحر والغيظ يتملكني، وكانت الأمواج شديدة بحيث أحسست بالدوار فأفرغت ما في معدتي، وكان القيء مفيدا لحالتي إذ خلصني من كمية كبيرة من المرارة. مع ذلك، أصبت بإرهاق شديد نتيجة لتأرجح القارب، فلما بلغنا المركب الراسي قرب الحاجز كنت على وشك الإغماء. ثم صعدت السفينة وقادوني إلى حجرتي حيث أرقدوني على الفراش.

بمثل هذه الطريقة غادرت سلطنة المغرب ولا أود أن أورد هنا خواطر وانطباعات لا تناسب هذه المناسبة ولعلها تفيد الغرض في موضع آخر.